

تاریخ العرب

قبل الإسلام والسيرة النبوية



د. جاسم صكبان علي



**تاریخ العرب
قبل الاسلام والمسيرة النبوية**

رقم التصنيف: 956

رقم الابداع لدى دائرة المكتبة الوطنية - 2001/11/2366

المؤلف ومن هو في حكمه: جاسم سكبان علي

عنوان الكتاب: تاريخ العرب قبل الاسلام وال Herrera العربية

الموضوع الرئيسي: التاريخ الاسلامي / تاريخ العرب /

السيرة النبوية.

مطابقات الناشر: دار الفكر - عمان

تم اعداد بيانات الهرة وتصنيف الأوراق من قبل دائرة المكتبة الوطنية

عنوان الكتاب في حفظه للنشر

الطبعة الأولى

1422-2002



دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

سوق البشائر (المبهري) - هاتف: ٦٦٢١٩٣٨

لakis ٤٥٤٧٦١ من.ب: ١٨٣٦٢٠ عمان ١١١١٨ الأردن

Tel: 4621938 Fax: 4634761

P.O Box: 183520 - Amman - 11118 Jordan

ردمك 8-266-9907-ISBN

تاریخ العرب قبل الإسلام والسيرة النبوية

الأستاذ الدكتور
جاسم صكبان علي

الطبعة الأولى
عام - ٢٠١٤م

شبكة كتب الشيعة



كتاب الفتح للطبيعة وللسنة في الواقع



shiabooks.net

mktba.net رابط بديل

المقدمة

كتب المؤلف هذه الدراسة في تاريخ العرب قبل الإسلام والسيرة النبوية الشريفة وفقاً لمفردات المنهج المقرر لطلبة المرحلة الأولى في أقسام التاريخ. وتؤلف هذه الدراسة الحد الأدنى من المعرفة التاريخية لهذه الفترة من التاريخ العربي والإسلامي التي يجب أن يتعلمها طلبة المرحلة الأولى بقسم التاريخ، ويوسع الطالب أن يبحث عن التفاصيل المفيدة في مظانها المختلفة لغرض الاستزادة في الفهم والاستقصاء.

ولا يدعى المؤلف الكمال في هذه الدراسة، ولكنه وضعها نتيجة خبرته في تدريس هذه المادة لعدة سنوات. وهو يرجو إخوانه الأساتذة التدريسيين أن يرشدوه إلى الهرمات والأخطاء ليستفيد منها ويتعلم. والعلم دراسة وتجارب

تأتي أهمية الموضوع لكون تاريخ العرب قبل الإسلام يمثل القاعدة التي يستند عليها تاريخ العرب في الإسلام؛ لأن الكثير من المفاهيم والأفكار والمبادئ الخيرة التي كانت سائدة عند عرب ما قبل الإسلام اكتسبت احترام وتقدير الإسلام لها.

يُضاف إلى ذلك فإن الكثير من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي برزت في عصر الرسالة لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى بداياتها في عصر ما قبل الإسلام.

وإلى جانب ذلك فإن حضارة العرب في الإسلام هي امتداد لتلك التي كانت قبل الإسلام، ولذا فقد أصبحت دراستها بشكل علمي لا تتم إلا بدراسة بواكيرها الأولى.

والى جانب كل هذا وذاك فإن الكثير من المشاكل التي ظهرت بعد وفاة

الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن إدراكها وتفسيرها إلا بدراسة تاريخها في عصر ما قبل الإسلام. وأن الكثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي برزت في العصر الراشدي هي الأخرى بحاجة لمعرفة أولياتها في عصر ما قبل الإسلام. إن العوامل السابقة الذكر هي التي جعلت للموضوع أهميته الكبرى في دراسة التاريخ العربي في عصر ما قبل الإسلام.

للمؤلف

الباب الأول

تاريخ العرب قبل الإسلام

الفصل الأول

المصادر وجغرافية بلاد العرب

١- أهمية الموضوع ومصادره

ولا يكفي المروي في الكتب العربية عن تاريخ العرب قبل الإسلام ولذا فقد أصبح من الضروري الرجوع إلى مصادر وموارد تساعد على تدوين تاريخ العرب قبل الإسلام. وقد تمكّن الباحث من جمع مادة تاريخ العرب قبل الإسلام من المصادر والموارد الآتية :

١- المصادر اليونانية واللاتينية : وتعتمد هذه المصادر على روايات الرجال الذين اشتراكوا في الحملات التي أرسلها الرومان واليونان إلى بلاد العرب. وقصص السياح الذين جابوا هذه البلاد. وأخبار أصحاب السفن والتجار الذين توغلوا في البحار وببلاد العرب للتجارة.

ورغم بعض الأخطاء التي وردت في هذه المصادر فإنها روت أخباراً تاريخية وجغرافية ذات أهمية كبيرة. وروت أسماء قبائل عربية لولاهما لم نعرف عنها شيئاً.

يُعد هيرودوتس (٤٨٠ - ٤٢٥ ق. م) من أقدم من ذكر العرب من اليونانيين. فقد زار مصر ودون ما شاهده وسمعه. ويُعد هيرودوتس بأنه أول أوروبي ألف كتاباً في التاريخ بأسلوب منق محبوب وصل مؤلفه اليانا. وقد اهتم هيرودوتس في كتاب بالصراع الفارسي اليوناني. ومع حرصه على النقد فقد ذكر أمور وروايات ساذجة كانت متشرة آنذاك^(١).

ويزودنا ثيرفراستوس (٣٧١-٢٨٧ق.م) *Theophrastus* بمعلومات مهمة عن المناطق العربية التي تنمو فيها مختلف الأشجار والنباتات، ومناطق إنتاج التمور واللبان والأفواية والبخور^(١).

وذكر سترايبو أحوال العرب التجارية والاقتصادية والاجتماعية ومدنهم وقبائلهم في عهده، وحملة أوليوس كاللوس على بلاد العرب وأسباب فشلها. ولما كان سترايبو قد اشتراك في الحملة المذكورة فقد ذكر معلومات جيدة عن تاريخ بلاد العرب إذ وصفها وصف شاهد عيان^(٢).

ومن المؤرخين اليونان الذين اهتموا بتاريخ عرب ما قبل الإسلام بلين الأكبر (*Pleny The elder*) ت ٧٩ فقد روى معلومات مهمة عن بلاد العرب والشرق. وقد نقل كثيراً عنمن تقدمه غير أنه ذكر معلومات كثيرة لم يرد لها ذكر في كتب المؤرخين الآخرين^(٣).

وتضم جغرافية بطليموس معلومات مهمة عن بلاد العرب ومدنها وقبائلها وأحوالها وعلاقاتها ببعضها البعض^(٤).

٢- المصادر العبرانية (التوراة، التلمود، التفاسير والشروح)

والتوراة هي الأسفار التي كتبها أنبياء العبرانيين في مناسبات مختلفة. كتبوا أكثرها في فلسطين وما تبقى منها في العراق (أثناء الأسر البابلي) وقد وردت فيها معلومات مهمة عن علاقة العبرانيين بالعرب يعود تاريخها ما بين ٧٥٠ والقرن الثاني قبل الميلاد^(٥).

وقد وردت في التلمود إشارات كثيرة إلى العرب. وهناك نوعان من التلمود، تلمود بابلي وتلمود فلسطيني. ولكل تلمود من التلمودين صفة مميزة وطابع خاص به

(١) *Historian plantarum . ed Hort . 1916*

(٢) *The Geography of strabo , trans . Hamilton (London , 1916) 3 vols.*

(٣) *Pleny , Naturalis Historia . ed . c mayerch off*

(٤) علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج1(بيروت ١٩٦٨) ص.٦٠.

(٥) المصدر السابق ٥٤/١

وهو طابع البلد الذي كتب فيه، فمادة تلمود فلسطين ثلث ما يحتويه تلمود بابل. كما أن تلمود فلسطين ينقصه العمق المنطقي والشمول الجامع الذين يمتاز بهما تلمود بابل. ويرجع هذا إلى أن تلمود بابل ألف في فترة استغرقت قرناً من الزمان، في سلم وأمن. أما تلمود فلسطين فجمع على عجل، وفي ظروف غير معاونة بسبب اضطهاد الرومان.

وتلمود فلسطين يختلف كذلك في لغته، فلسنته عبرية تخللها عبارات بالأramaية الغربية. أما تلمود بابل فأكثره بالأramaية الشرقية^(١).

ويعتبر المؤرخ العبراني يوسف فلافيوس (عاش ما بين ٣٧-١٠٠ م) من المؤرخين الذين اهتموا ببلاد العرب، فقد روى معلومات ثمينة عن بلاد العرب وروايات مفصلة عن الأنبياء أغفلتها المصادر الأخرى وكان قد عاصر الأنبياء ورغم ذلك فهو لم يذكر عن الأنبياء إلا علاقتهم بالعبرانيين. ولم تكن بلاد العرب عنده إلا مملكة الأنبياء^(٢).

أما التفاسير والشروح المكتوبة عن التوراة والتلمود فهي تغيب في فهم تاريخ العرب قبل الإسلام. وفي شرح بعض المصطلحات الصعبة، والتي ترد في النصوص العربية، لأنها نفسها ويتسمياتها ترد عند العبرانيين في المعاني التي وضعهاعرب قبل الإسلام لها.

٣- النقوش والكتابات : وتعد هذه المصادر ذات شأن كبير لأنها الشاهد الحي البالق عن تاريخ العرب قبل الإسلام وتقسم إلى قسمين رئيسيين :

١- نقوش وكتابات غير عربية، تطرقت إلى ذكر العرب كبعض النصوص الآشورية أو البابلية.

٢- نصوص وكتابات عربية كتبت في العربية الجنوبيّة وتلك التي عثر عليها في

Hasting , Dictionary of the Bible , p.891.

(١)

وانظر خان ، ظهر الإسلام ، التلمود (تاريخه وتعاليمه) بيروت ١٩٧١ ص ٣٨-٣٩.

(٢) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ١/٥٥.

مصر أو الحبشة، أو بعض جُزر اليونان، ومنها ما عثر عليه في مناطق أخرى من جزيرة العرب.

تزودنا النقوش والكتابات العربية الجنوبية بمعلومات عن حالة العرب السياسية والاجتماعية والعلمية، إضافة إلى الأمور الشخصية مثل إنشاء بيت أو معبد أو بناء سور وأسماء عدد من الملوك^(١).

وتجاهه الباحث عدة صعوبات عند اعتماده على هذه المصادر لأن الباحث سيكون في حيرة من أمره في ضبط الزمن الذي دون فيه النص. ولم يكن هناك تقويم ثابت يستعمله عرب ما قبل الإسلام مدة طويلة في جزيرة العرب. فقد أرّخوا بحکم الملوك فكانوا يشيرون إلى الحادث بأنه حدث في أيام الملك فلان أو السنة كذا من حكم الملك فلان. وأرّخوا بأيام أرباب الأسر وسادات القبائل وهي طريقة استعملها العرب الجنوبيون كالمعينيين والسبئيين. والتاريخ على هذه الشاكلة يكون قليل الفائدة إذ لا يمكن ضبط الحادث والمعلومات عن الملك أو رب الأسرة مجهولة. وترد في كتابات تواريخ بأعوام الرجال أسماء شهود، ولكن لا يمكن الجزم بأن هذه الشهور كانت ثابتة لا تتبدل بتبدل الرجال. ويظهر أنهم استعملوا تقويمًا يستند إلى السنين المالية أي سني جبایة الفراتب. ويختلف أسماء شهور هذا التقويم عن أسماء شهور التقويم التي تورخ باسماء الرجال.

واستعمل عرب الجنوب التقويم القمري والتقويم النجمي الذي يستند على حركات النجوم، كما استعملوا التقويم الشمسي في الزراعة^(٢).

والكتابات العربية الشمالية المؤرخة قليلة معدودة وأقدمها شاهد قبر امرئه القيس الذي أرّخ في سنة ٣٢٨ م في يوم (٧ بكسول من سنة ٢٢٣) وهذه السنة من سني تقويم بصرى الذي أرّخ به أهل الشام وحوران وما يليها، وبدأ بدخول بصرى في حوزة الروم سنة ١٠٥^(٣).

(١) المصدر نفسه ٤٤/٤٦.

(٢) المصدر نفسه ٤٦/٤٨.

(٣) مجلد سوم ، المجلد الثالث ، ١٣١/١ (بغداد ، ١٩٤٧).

وعثر على كتابة يونانية في حران مؤرخة بسنة ٤٦٣ من الأندقسطية الأولى وهي تقابل سنة ٥٦٨ م، والأندقسطية هي دائرة ثمانية سنين عدا الرومان وكانت تستعمل في تصحيح السنة^(١). وأرخ نص عربي آخر بسنة ٤٦٣ م بعد مفسدة خبيث بعام وتعني مفسدة خبيث بعام غزوة أحد أمراءبني غسان لخبيث^(٢). وهذا الأمر يشير إلى أن عرب الشمال كانوا قد استعملوا التوارييخ المحلية في ضبط الأحداث التاريخية إضافة إلى تورييختهم بالحوادث الشهيرة التي تقع بينهم.

ويوضح الطبرى والمسعودى الطرق التى أرخ بها عرب ما قبل الإسلام وهى تتفق مع ما عثر عليه فى كتابات عرب ما قبل الإسلام المؤرخة قال الطبرى: "إن قريشاً كانوا يؤرخون قبل الإسلام بعام الفيل وكان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المذكورة، كتارىخهم بيوم جبلة وبالكلاب الأول والكلاب الثاني"^(٣). وقال المسعودى: "... فاما حمير .. فإنهم كان يؤرخون بملوکهم السالفة من التابعة وغيرهم"^(٤).

وعلى رأى المشتغلين بالتقاويم وبحلول السينين أن عام الفيل يصادف سنة ٥٧٠ أو ٥٧١ م^(٥).

٤- المصادر النصرانية: وقد كتبت هذه المصادر باليونانية والسريانية وهى ذات أهمية كبيرة في تدوين تاريخ العرب قبل الإسلام لأنها عند عرضها للحوادث تربطها بتاريخ ثابت مثل المجامع الكنسية أو توارييخ القديسين والمحروbes.

تركز هذه المصادر على انتشار النصرانية بين القبائل العربية وعلاقة العرب باليونان والفرس. ومن أهم هذه المصادر ايسابيوس القيصري *Eusebius of Caesarea* والذي يسمى بأبى التارييخ الكنسى. وله مؤلفات منها: التارييخ الكنسى

(١) أولفنسون ، تاريخ اللغات السامية (بيروت ، ١٩٨٠) ص ١٩٢ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) تاريخ الطبرى ، ١٩٣/١ ، (القاهرة) طبعة دار المعارف.

(٤) التبيه والإشراف (القاهرة ، ١٩٣٨) ، ص ١٧٢ .

(٥) علي جواد ، ٥٣ / ١ .

وشهداء فلسطين^(١). وروى لنا سقراط في ثنايا كتابه أخباراً ومعلومات مهمة عن بلاد العرب. وقد أورد سوزمان (*sozomen*) معلومات مهمة عن العرب وكيفية تقسيم النصرانية فيما بينهم^(٢). وقد سجلت شمعون الارشامي في كتابه رسائل الشهداء معلومات مهمة عن تعذيب ذي نواس للنصارى في نجران وقد جمع أخبارهم على ما يدعوه من بلاط ملك الحيرة^(٣).

وهناك مؤرخين نصارى اهتموا بالعرب منهم زكريا (*zachariah*)^(٤) (ت حوالي ٥٦٨ م). وقد ركز على نصارى الجزيرة الفراتية وتجمعاتهم وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية والساسانية، وكيفية انتشار النصرانية بينهم. وقد أورد ثيوفاونس *Theophanes*^(٥) وايليا النصيبي^(٦) ويعنا الافسي^(٧) وميخائيل السوري^(٨) وابن العربي^(٩) معلومات مفصلة عن عرب ما قبل الإسلام مؤثقة بالتاريخ اليونانية والميلادية لكن الطابع الكنسي هو الغالب عليها. والأساطير والتبيّنات تطغى على معظمها ومع ذلك فهي تورد أموراً مهمة عن تاريخ العرب قبل الإسلام.

- المصادر العربية الإسلامية : يعد القرآن الكريم في طليعة هذه المصادر. فقد نزل كتاباً عربياً، بلغة أهل الحجاز ووصف حالة عرب قبل الإسلام، وعوائدهم وأراءهم، وتجارتهم وسياستهم ونصح العرب وذكر بالشعوب العربية البايدة. ولأجل استكمال الفائدة من القرآن كمصدر لهذا الموضوع، ينصح بالرجوع إلى التفاسير إذ تحوي معلومات مهمة عن تاريخ العرب قبل الإسلام إذا تفصل ما جاء مختصراً في

The Ecclesiastical History , trans .k .lake (London , 1926).

(١)

The Ecclesiastical History .(London , 1846)

(٢)

Moberg ,A , the book of Himyarites (London , 1924)

(٣)

The chronicle of zachariah of mitylene , trons f.j Homilton and E.W brooks (London,1899).

(٤)

The ophanes , chronographia ,(bonn,1939).

(٥)

(٦) تاريخ ايليا النصيبي ، ترجمة يوسف صبي (بغداد ١٩٧٥)

John of Ephesus ,Ecclesiastical History ed .j p. Margoliouth , (leiden , 1909)

(٧)

Michael (the Syrian chronique de michel le Syrian , ed j. B . chabot ,(paris ,1899- 1901)

(٨)

Bar - Hebraeus , the chronography , trons w.Budyé (London,1932)

(٩)

القرآن وتحكى ما سمعه المفسرون وما دعوه عن القبائل العربية التي وردت لها ذكر مقتضب في القرآن وما ورد عند عرب قبل الإسلام من معتقدات وأراء. ولكتب الحديث وشرحها أهمية بالغة في تدوين تاريخ العرب قبل الإسلام، فهي تحوي معلومات غنية عن تاريخ العرب قبل الإسلام إذ تروي أموراً مهمة عن هذا التاريخ لا نجد لها في الموارد الأخرى.

والشعر العربي مصدر آخر من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام، فهو يساهم في الوقوف على تاريخ العرب قبل الإسلام، وقد يملاً قيل فيه الشعر ديوان العرب وخزانه حكمتهم. وإلى الشعر العربي قبل الإسلام يعود فضل بقاء الكثير من الأخبار المتعلقة بتاريخ عرب قبل الإسلام، وقد اختفت الكثير من الأخبار لاختفاء الشعر الذي قيل في مناسباتها، وقد أصبح الشعر سبباً لتخليد الأخبار لسهولة حفظه واضطرار راويه إلى قص المناسبة التي قيل فيها^(١).

وتطرقت كتب السير والمغازي إلى التاريخ العربي قبل الإسلام بقدر ما كان لهذا التاريخ من صلة بتاريخ الرسول. وقد تعرض لذلك كتب الجغرافية والأنساب والأدب والكتب التي ألفت في أخبار المعمرين وفي أيام العرب.

وتلخص كتب الأدب ثروة تاريخية مهمة لوجود الكثير من المعلومات المنتشرة في صفحاتها عن تاريخ عرب قبل الإسلام، لا نجد لها مثيلاً في كتب التاريخ. فقد روت كتب الأدب عن ملوك غسان والحيرة وملوك كندة وأخبار القبائل العربية أكثر بكثير مما جاء في المصادر التاريخية بل أكثر دقة^(٢).

ويمكن الاعتماد على روایات المؤرخين المسلمين فيما يخص تاريخ العرب قبل الإسلام عن فترة تاريخية في حدود القرن السادس أو الخامس للميلاد، وما دون ذلك فهو غير مقبول، لأنه لم يرد به سند قدر ولم يؤخذ من نص مكتوب وإنما أخذ مشافهة من أفواه الرجال. ولا يمكن أن نطمئن على محافظة الذاكرة على صفاء الرواية. ومع ذلك فهناك أخبار واردة عن ملوك الحيرة أو صلات العرب بالفرس

(١) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية ، مادة تاريخ)

(٢) علي جواد المصدر السابق ، ٧٣/١ .

قريبة إلى منطقة التاريخ يمكن أن تستعين بها في تدوين تاريخ الحيرة وعلاقة الساسانيين مع العرب، وذلك لاعتماد الرواية على موارد معينة أو شهود عاشوا الأحداث وكلها أحداث قرية من الإسلام وقد وقع بعضها أيام الرسول^(١).

ويُعد هشام بن محمد بن السائب الكلبي الراوي الوحيد الذي اختص بأخبار أهل الحيرة وعلاقتهم بالفرس. وعن طريق رواياته عند أهل الحيرة زود الباحثين بمعلومات مفصلة عن الغساسنة أنداد المناذر، في الحيرة ولذا فإنها لم تكن إلى جانبهم.

يُعد عبد بن شربة و وهب بن منه و محمد بن السائب الكلبي وهشام بن محمد بن السائب الكلبي في طليعة من اشتغل برواية تاريخ العرب قبل الإسلام. فاما عبد فقد كان من أهل اليمن وقد استقدمه معاوية ليحدثه بأخبار الماضيين وقصصهم^(٢) وله كتب عديدة منها:

كتاب الملوك. وكتاب الأمثال. وكتاب التيجان في ملوك حمير.

وكان وهب بن منه من أصل يهودي وترجع إليه الكثير من الإسرائييليات المنتشرة في المؤلفات العربية. ويُزعم أنه يحسن قراءة الكتابات القديمة الصعبة التي يصعب على الآخرين قراءتها^(٣) لكنه كان قصاصاً لم يصل إلى درجة الإخباريين.

أما هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) فله فضل في دراسات تاريخ العرب قبل الإسلام، لأنّه رجع في رواياته إلى الأصول واعتمد على المراجع التاريخية، وبهذا يكون قد قرب من طريقه المؤرخين في تدوين التاريخ^(٤). لكنه انهم بالوضع وسرعة التصديق ورواية الخبر على علاقة. ولعل حرصه على الظهور بمظهر العالم المحيط بكل أخبار الماضيين هو الذي حمله على الوضع ليتفوق بذلك على أقرانه وخصومه.

وقد وردت في كتابات الأصممي والشريقي بن القطامي وكثير من اشتغل

(١) الطبرى ، المصدر السابق ٦٢٨/١ و ٣٧/٢ ، لسان العرب ، ١٤٢/٣ . تاج العروس ٧٠/٢

(٢) ابن النديم ، الفهرست (طبعة لايدن) ص ١٣٨

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، طبعة عبد الرحمن محمد ، ١٥١/١ .

(٤) علي جواد ، المصدر السابق ، ٨٨/١ .

بالأدب معلومات تاريخية قيمة عن تاريخ العرب قبل الإسلام ترد في المصادر التاريخية^(١).

وقد أنجبت اليمن عالمين ألفا في تاريخ اليمن القديم وساعدنا في توسيع معارف الباحثين بالأماكن الأثرية في اليمن. فقد أشار إلى أسماء أبنية ومواضع وشخصيات أماكن لم يرد لها ذكر في المصادر الأخرى أحدهما الهمданى وهو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف (ت ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م). والثانى هو نشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م). سلك الأول سبيلاً جديداً في البحث إذ استعمل طريقة البحث الميداني فذهب إلى الأماكن الأثرية ووصفها كما شاهدتها. وحاول أن يقرأ المسند ويترجمه إلى العربية. وبذا فهو يستحق التقدير والثناء. وأما محمد بن نشوان بن سعيد الحميري فقد اعتمد على الهمدانى إذ لم يزد في شروحه لأسماء الأعيان والقبائل والمعامات والأمكنة على ما أورده الهمدانى أو سائر علماء التاريخ وأهل الائحة وأخطأ في الأغلاط نفسها التي وقع فيها الهمدانى^(٢).

٦- المصادر الحبشية : كانت بعض القبائل العربية قد نزحت إلى الحبشة في قرون عديدة بعيد الميلاد، وأسست لها مستوطنات هناك ووضعت اللبنات الأولى لدولة أقسم^(٣)، ولذا فإن المصادر الحبشية تتطرق إلى نشاط هذه القبائل بقدر ما له علاقة بتاريخ الحبشة. وورد في كتب الأدب الحبشية معلومات تاريخية مهمة عن تاريخ هذه القبائل من الفترة المحصورة بين القرون العيلادية ومجيء الإسلام^(٤).

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٣٢ .

(٢) علي جواد ، ١٠٦/١

(٣) البكر منذر ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (بصرة - ١٩٨٠) ص ٤٢

(٤) ويتفن نلسن ، تاريخ العرب القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين ، (القاهرة ، ١٩٥٨) ص ٣١

٢ - الموقع والسطح والأقسام الطبيعية

يطلق الجغرافيون العرب على شبه جزيرة العرب اسم (جزيرة العرب) تجاوزاً^(١)، إذ تحيط بها المياه من ثلاث جهات. يحدها من الشرق الخليج العربي المعروف عند قدماء أهل العراق بـ(البحر الجنوبي) وـ(البحر الأسفل) وـ(البحر التحتاني)^(٢) وـ(البحر المالح) وـ(بحر الشروق) وـ(البحر المر)^(٣).

ويشكل البحر الأحمر حد بلاد العرب الغربي، ويسمى بحر القلزم في المصادر العربية.^(٤) ويظهر البحر الأحمر وكأنه خط متند من الشمال إلى الجنوب على هبة ثعبان ذي قرنين وكان هذا الثعبان أرضًا خسفت في الزمن الجيولوجي الثالث^(٥) وبذلك ابتدعت جزيرة العرب عن أفريقيا إلا من ناحية الشمال، وكان الناس قبل وقوع هذه الخسفة والانفصال يتلقون برأ وكان أفريقيا وجزيرة العرب قطعة أرض واحدة ومن هنا كانت الهجرات^(٦).

أما القرنان اللذان يشكلان رأس الثعبان فهما خليج العقبة الذي عرف بـ(خليج ايله) وـ(خليج الايلابين) في الكتب الكلاسيكية نسبة إلى مدينة إيلات. وأما الرأس الثاني فهو خليج السويس عند اليونان واللاتينيين^(٧).

وقد تعرضت سواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية لهزات عديدة فخشفت في مواضع عديدة مثل عدن ومثل الخليج العربي^(٨).

ولم تكن الملاحة سهلة على سواحل البحر الأحمر العربية لوجود الصخور

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب (القاهرة ، ١٩٥٣) ص ٤٧

Georges , Roux . *Ancient Iraq* , (London , 1964) p.29

Ibid p.247

(٢)

(٣)

(٤) التوريقي ، بلغ الأربع (طبعة دار الكتب ، القاهرة) ١٨٤/١ .

(٥) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ١/١٠ .

(٦) علي جواد ، المصدر السابق ، ١/١٤٢ .

Smith , *Adictionary of the Bible* , vol .I .p 1009.

(٧)

(٨) علي ، جواد ، المصدر نفسه ، ١/١٤٣ .

المرجانية التي تعيق سير السفن وتقلل مجال الاستفادة من الإبحار بالبحر. ويحد بلاد العرب من الجنوب المحيط الهندي. وسمى بطليموس الماء المحصور بين عمان وحضرموت، خليج سنماليه. وسمى القسم الغربي الباقي بحر برم أي البحر الأحمر^(١).

ويحد جزيرة العرب من الشمال خط وهما يمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي. ومن الناحية التاريخية فإن هذا الخط الوهمي هو وهم وخطأ فقد سكن العرب في شماله قبل الميلاد بعشرات السنين^(٢).

وأرض جزيرة العرب مرتفعة من الغرب تسيطر على السواحل الضيقة وتشكل سلاسل من المرتفعات متصل بعضًا بالبعض، متعددة من الشام إلى اليمن. وتسمى هذه المرتفعات (السراة)^(٣) وهي تحاذى البحر الأحمر وتقترب من في أماكن عديدة. وبلغ متوسط ارتفاعها حوالي ٥٠٠ قدم في حين يبلغ أقصى ارتفاعها ١٢٣٢٦ قدم. وهو في اليمن^(٤). وهناك أرض ضيقة محصورة بين هذه السلسلة وساحل البحر.

وتحدر جزيرة العرب انحداراً تدريجياً نحو البحر العربي والخليج العربي. وتوجد في وسط جزيرة العرب هضبة واسعة تسمى هضبة نجد وتقع إلى جنوب جزيرة العرب سلاسل من الجبال تسيطر على السواحل. وتتصل هذه السلاسل بسلسلة جبال اليمن. وتكثر فيها الأودية التي تفصل بين السلاسل وتجه من الشمال الشرقي أو من الشمال الغربي إلى سواحل البحر حيث يبلغ ارتفاع الجبل الأخضر زهاء ٤٠٠٠ قدم^(٥).

تغلب على جزيرة العرب البوادي والسهول ويفغلب عليها المناخ الصحراوي. وهناك أرضون صالحون للزراعة زرعت لوجود المياه فيها وأرضون آخر تقدمت

(١) علي جواد المصدر نفسه ، ١٤٣/١ - ١٤٤/١ .

O'leary , Arabia before Muhammad (London , 1927) p.5.

(٢)

(٣) الزبيدي ، تاج العروس ١٧٤/١٠ ، معجم البلدان ٥٩/٥

(٤) علي جواد ، المصدر نفسه ١٤٤/١ .

(٥)

المجموعات الصحراوية وهي :

١- الحرار أو الأرض البركانية : وتكثر في الأقسام الغربية من شبه جزيرة العرب، وتمتد حتى تصل الشام. وتوجد الحرار في منطقة حوران والمناطق الوسطى ومناطق متفرقة أخرى^(١).

٢- الدهناء : وهي أرض تعلوها رمال حمر وتمتد من التفود في الشمال إلى حضرموت ومهره في الجنوب واليمن في الغرب وعمان في الشرق.^(٢) ويسمى الجغرافيون المحدثون الأقسام الجنوبيّة من الدهناء الربع الخالي لخلوها من الناس وكانت تعرف بمقازة صيهد^(٣).

ويسمى القسم الغربي من الدهناء (الأحقاف).

٣- التفود : وهي صحراء واسعة ذات رمال بيضاء أو حمر تذروها الرياح فتكون كثباناً رملية تبدأ من واحة تيماء وتمتد ٤٥٠ كم شرقاً^(٤) وتحول التفود إلى أرض خضراء مزينة بالزهور والشقائقن وتختلف الأعشاب الصحراوية عند سقوط المطر عليها^(٥). ولكن خضرتها مؤقتة لمدة عدة أسابيع إذ يحل الجفاف وتهب السمايات فتنقضي على كل ما نبت في هذه الباية فتبعد عابسة^(٦).

٤- الدارات : مفردها دارة، وهي جويبة بين جبال في حزن كان ذلك أو سهل أو رمل مستدير في وسطه فجوة^(٧) وتثبت فيها الأعشاب والنباتات الصحراوية وبلغ عددها ١١٠ دارة^(٨).

(١) الحموي ، معجم البلدان ٢٥٩/٢ .

(٢) الحموي ، المصدر السابق ١٥/٤ .

(٣) الحموي ، المصدر السابق ٤١٩/٥ .

(٤) الحموي ، المصدر السابق ، ٩٦/٦ .

(٥) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ١٥٣/١ .

(٦)

Hand book of Arabia , vol I . p . 12.

(٧) ياقوت الحموي ، المصدر السابق ١٤/٤ .

(٨) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

٣- المناخ والنباتات الطبيعية

تمتاز بعض قمم سلسلة جبال السراة بالارتفاع ولذا فقد تساقط عليها الثلوج كجبل دباغ الذي يرتفع ٢٢٠٠ م عن سطح البحر وجبل ونر وجبل شيبان. أما السواحل المحصورة بين هذه الجبال والبحر الأحمر فهي حارة رطبة في الغالب وغير صحية في بعض الأماكن. وتمتنع هذه السلالس الأ卜خرة المتضاعدة من البحر الأحمر والبحر العربي فتمتنع سقوط الأمطار في أواسط الجزيرة العربية وفيما وراء السفوح الشرقية للسراة والسفوح الشمالية للسلالس الجبلية الجنوبية ولذا فقد كثرت الأودية القصيرة التي تسيل فيها المياه في هذه المناطق^(١).

وتمتاز جزيرة العرب بالجفاف وقلة سقوط المطر ولذا فقد أصبحت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان. ومع ذلك فقد كانت الحياة في الجزيرة مقبولة. ونسمع عن صحابة الرسول أنهم أثناء الفتوحات خارج الجزيرة، كانوا يعودون أدراجهم إلى حياة الصحراء التي يحبونها. ولم يكن البدو أسوأ حالاً من الماضي بل كانوا أفضل حالاً بسبب ما يستفيدونه من ازدهار مكة المستمر^(٢).

أنهار شبه جزيرة العرب

تخلو جزيرة العرب من الأنهر الطويلة. وفيها أنهاراً صغيرة ولذا فهي من الأراضي التي تقل فيها الأنهر والبحيرات. غير أنها كثيرة الوديان التي تطفى عليها سيل الأمطار. وتمتاز هذه السيل بأنها تسير باتجاه ميل الأرض. وهناك أودية تصب في البحر الأحمر أو في البحر العربي ولكنها قصيرة بعض الشيء^(٣). ويرى بعض الباحثين أن الكثير من هذه الأودية كانت أنهاراً في يوم ما

(١) علي جواد ، المصدر نفسه ، ١٥٧/١

(٢) وات مونتغمري ، محمد في مكة ، بيروت ص ٢٠

(٣) يراجع الأزرقي ، أخبار مكة ، أخبار السيل ، وتاريخ الطبرى عن أخبار السيل أيضاً.

واستدلوا بذلك بوجود تربسات في هذه الأودية هي من نوع التربسات التي تكون في العادة في قيعان الأنهر، ومن عشر السياح على آثار سكن على جانبي الأودية^(١). ومن هذه الأودية وادي الحمض ووادي الرمة ووادي العقيق ووادي حنيفة.

ولقلة الأمطار فقد اقتصرت الزراعة في شبه جزيرة العرب على الأماكن التي تسقط عليها الأمطار مثل العربية الجنوبية، وفي الأماكن التي ظهرت فيها العيون والينابيع، مثل وادي القرى في الحجاز والاحساء على الخليج العربي. وفي الأودية التي تكثر فيها المياه الباطنية. والزراعة في هذه الأماكن عدا العربية الجنوبية هي زراعة محدودة وإنماجها قليل لا يكفي لاعادة كل السكان^(٢).

أقسام بلاد العرب

١- التقسيم اليوناني الروماني : تقسّم بلاد العرب سياسياً إلى ثلث أقسام :

١- العربية السعيدة *Arabia Felix*.

٢- العربية الحجرية *Arabia petereae*.

٣- العربية الصحراوية *Arabia Deserta*.

العربية السعيدة أكبر الأقسام مساحة وتشمل المناطق التي تسمى جزيرة العرب في المصادر العربية ولم تكن حدودها الشمالية ثابتة إذ كانت تتغير وتبدل حسب الأوضاع السياسية. وعلى رأي معظم الكتاب اليونان والرومان فإن هذه الحدود تبدأ من مدينة هيروبوليس على مقربة من مدينة السويس الحالية ثم تسير بمحاذاة حدود العربية الحجرية الجنوبية ثم تمتد حتى تصل بشط العرب في الخليج العربي^(٣).

وأما العربية الحجرية فهي أراضي الأنباط، ويطلق هذا الاسم على جزيرة سيناء

(١) علي جواد ، المصدر السابق ، ١ / ١٥٨ .

(٢) نفس المصدر السابق والجزء من ١٦٢

(٣) البكر منذر عبد الكرييم ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (البصرة ، ١٩٨٠) ص ٦٨

وعلى المملكة النبطية وقد توسيع حدودها الشمالية في حدود ٩ ق. م - ٤٠ م حتى مدينة دمشق^(١).

ولم يعين حدود العربية الصحراوية تعيناً دقيقاً ولكن يفهم من المصادر أنها تشمل الأراضي الواسعة الفاصلة بين العراق والشام أي بادية الشام. ويكون نهر الفرات حدودها الشرقية إلى ملتقى الحدود العربية السعيدة. وحدودها الشمالية غير ثابتة لتبدلها حسب الأوضاع السياسية. ويمكن أن يقال أن حدودها الغربية تصاقب الأراضي الزراعية لبلاد الشام. وقد سكن العرب في هذه المنطقة في الألف الثاني قبل الميلاد^(٢).

- التقسيم العربي الإسلامي :

يرجع الرواية روایاتهم في أقسام جزيرة العرب إلى عبد الله بن عباس الذي يقسمها إلى تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمين^(٣).

٣- تهامة : وتمتد من غرب جبال السراة إلى البحر الأحمر. تشكل العقبة حدودها الشمالية وعدن حدودها الجنوبية. وسميت تهامة لرکود ريحها وارتفاع درجة حرارتها^(٤). والكلمة من أصل سامي وتعني الأرض المنخفضة.^(٥)

٤- الحجاز : وسمي الحجاز بهذا الاسم لحجزه بين تهامة والشام وبين الباذية^(٦). أو لحجزه بين تهامة ونجد. وعلى رأي أكثر الجغرافيين المسلمين فإن الحجاز تمتد من تخوم صنعاء من العباء وتبالغ إلى تخوم الشام^(٧) تضم الحجاز

(١) علي جواد ، المصدر السابق ، ١/١٦٣-١٦٤ .

(٢) علي جواد ، المصدر السابق ، ١/١٦٤-١٦٥ .

(٣) الهمданی ، صفة جزيرة العرب ، ص٤

(٤) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، تحقيق ديبلان (باريس ١٨٤٠) ص ٧٨ الحموي ، المصدر السابق ٦٣-٦٤ (دار صادر)

(٥) Lewis , Bernard , the Arab in history (London , 1966) , p.22

(٦) بيليابيف ، العرب والإسلام والخلافة العربية ، ترجمة : دزائيس فريحة (بيروت ١٩٧٣) ص ٦٠ ، الحموي ، المصدر السابق ، ٢١٨/٢

(٧) الحموي ، المصدر السابق ، ٢١٩/٢

عدهاً كبيراً من الواحات الخصبة والمراعي الجيدة والقرى التجارية^(١).

٢- نجد : وهي المنطقة المحصورة ما بين شرقى الحجاز والدهناء في الشرق^(٢). تشتهر نجد بمراعيها التي تربى عليها الخيول العربية الجيدة وقد وصفها الألوسي بأنها من أحسن أنقطار العرب مanaxاً وأعندها ماءً وأخصبها أرضاً وازدهاراً ونباتاً. وأطبيها هواء^(٣). ويقسم الجغرافيون العرب نجد إلى : نجد العالية ونجد السافلة، وأما السافلة فما ولـي العراق وأما العالية فـما ولـي الحجاز وتهامة^(٤) وتتألف نجد من الوجهة الطبيعية من منطقة وادي الرمة والمنطقة الوسطى ذات التربة الطباشيرية المتموجة، والمنطقة الجنوبيـة ذات المنحدرات الممتدة بالتدريج من جبل طويق ومرتفعات المنطقة الوسطى إلى الصحاري جنوباً^(٥).

٤- العروض واليـمة : وقد سميت العروض بهذا الاسم لاعتراضها ما بين نجد واليمـن^(٦). وتقع جنوبـي نجد وشمال الربع الخالي ويدخل ضمنها البحرين^(٧). وعلى رأـي ابن الكلبي فإن العروض تشمل اليـمة والبحرين وما ولاها^(٨). ومن أقسام العروض شـبه جزيرة قطر، والاحـسـاء والكـوـيـت والـبـهـرـين والـقطـيف^(٩).

٥- الـيـمـن : وسميت بـالـيـمـن لـوقـوعـها عـلـى يـمـينـ الكـعـبة وـسـماـها الـقـدـماء بـلـادـ العـربـ السـعـيـدةـ وـالـيـمـنـ الـخـضـراءـ^(١٠). وقد اختلفـ الجـغـرـافـيـونـ العـربـ فيـ تعـيـينـ حدـودـ الـيـمـنـ فقدـ حـدـدـهاـ الأـصـمـعـيـ بـقولـهـ: (ـيـمـنـ وـمـاـ اـشـتـملـ عـلـيـهـ حدـودـهاـ بـيـنـ عـمـانـ إـلـىـ نـجـرانـ ثـمـ يـلـتـويـ عـلـىـ بـحـرـ العـربـ إـلـىـ عـدـنـ إـلـىـ الشـحـرـ حـتـىـ يـجـتـازـ عـمـانـ).

(١) الألوسي ، بلوغ الأرض ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٨/١ - ١٩٤ .

(٢) فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب (القاهرة ، ١٩٣٣) ، ص ٣٢ .

(٣) تاريخ نجد ، (القاهرة ، ١٣٤٧هـ) ، ص ٩ .

(٤) الألوسي ، تاريخ نجد ، ص ٨ .

(٥) علي جواد ، المصدر السابق ، ١٨١/١ - ١٨٢ .

(٦) الحموي ، المصدر السابق ، ١١٢/٤ .

(٧) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٧٩ .

(٨) الحموي ، المصدر السابق ، ١١٢/٤ .

(٩) البكر ، المصدر السابق ، ص ٧٥-٧٤ .

(١٠) الهمداني ، المصدر السابق ص ٥١ .

فينقطع من بينونه، وبينونه بين عمان والبحرين، فليست بينونه من اليمن^(١) وعنت النصوص العربية الجنوبية باليمن منطقة صغيرة ذكرت في نص يعود إلى عهد الملك شمريرعش بعد حضرموت في الترتيب^(٢). وحددها الباحث النمساوي كلاسرا بأنها تمتد من عسير إلى المحيط الهندي ومن البحر الأحمر إلى الخليج العربي^(٣)، أي جعلها تشمل كل رقعة جنوب الجزيرة العربية.

٤- الساميون وطبقات وأنساب العرب:

١- أصلهم. ٢- موطنهم. ٣- الهجرة السامية. ٤- طبقات العرب.

مما لا شك فيه أن اللغة العربية أكثر اللغات السامية الباقة احتفاظاً بخصائص اللسان السامي الأصلي. وأن العرب هم الشعب السامي الوحيد الذي احتفظ أكثر من غيره بالخصائص العقلية والطبيعية للشعوب السامية. ولعل ذلك يعود إلى عزلتهم في شبه الجزيرة العربية وإلى أن موجات الهجرة كانت تخرج منها. ولم ينبع الأجنبي في توسيع نفوذه فيها. وكان لبيتها المقتدرة أثر في منع آية هجرة إليها أو الاختلاط بأهلها. وعاشت منذ أوائل التاريخ في المنطقة التي عاش فيها العرب، شعوب تتشابه في خصائصها تشابهاً ملحوظاً هي الشعوب التي تسمى الشعوب السامية^(٤) تعلم بلغات تسمى اللغات السامية.

وعلى كل حال فإن هذه الأقوام تمثل أولئك الذين كان موطنهم الأصلي شبه جزيرة العرب وهم يملكون أمّة واحدة هي العرب.

وهناك ميزات ثابتة مشتركة بين اللغات العربية القديمة السامية حالت دون ابتعادها عن بعضها خلال آلاف السنين وهي :

١- اعتمادها على الحروف وحدها، معتبرة الحركات أمراً ثانوياً. ويرى الباحث أن غالبية التغير في اللغات بعدها الحركات وليس الحروف، فالحروف ثابتة

(١) العموري ، المصدر السابق ١٣٥/٢ ،

(٢) علي جواد ، المصدر نفسه ، ١٧١/١

(٣) فيليب حتى ، تاريخ العرب المطلول ، (بيروت ١٩٦٥) ١٠/١

(٤) البكر ، منذر ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (البصرة ، ١٩٨٠) ص ٩٩

والأصوات في تبدل مستمر ثم إن الساميين عبروا عن الحركات بعلامات يضعونها فوق الحروف أو تحتها بينما اعتبرها الآريون حروفاً متميزاً.

٢- ترجع غالبية الكلمات إلى الفعل الثلاثي المجرد : ومن هنا نشأ عند العرب القدماء (الساميين) عقلية فعلية في حين تدور الأسماء والضمائر والحراف حوله. لذا بقي الفعل محوراً في كل اللغات العربية القديمة (السامية).

٣- يتم اشتاقاق الأفعال وغالبية الأسماء حسب أوزان قياسية ثابتة مشابهة في اللغات العربية القديمة (السامية) فكان لها ذلك مبعث خصوبية وغنى عظيمين^(١).

٤- العلاقة المعكوسية بين العدد والمعدد من حيث التذكير والتأنيث من الثلاثة إلى العشرة.

٥- وجود جنسين فقط هما المذكر والمؤنث^(٢). وعلى كل حال فإن اللغات العربية القديمة (السامية) تطور كل منها في موقعه وظروفه وليس التباين الموجود بينهما الآن إلا نتيجة تطور كل منهما بمفرده عن الأخرى.

وتشترك اللغات العربية القديمة (السامية) وتتقارب في أمور أصلية وأساسية مثل جذور الأفعال وأصول التصريف وفي زمني الفعل الرئيسين وهما الثام والناقص، أو الماضي والمستقبل. وفي أصول المفردات والأسماء والضمائر وبعض أسماء أعضاء الجسم الرئيسية^(٣). وفي المصطلحات الدالة على الدولة ومؤسساتها

(١) ولفسون، تاريخ اللغات السامية، ص ١٤.

ويعرض د. سامي سعيد الأحمد على تسمية اللغات السامية ويسميها اللغات الجزرية لأنه يرى أن نسبة الساميين لا تستند على أساس رصين من الواقع التاريخي ولا تدعها المصادر المعتمدة والأدلة المستندة على التمييز الموضوعي والدققة العلمية. ولما كانت لهذه المجموعات البشرية قد اندرفت من شبه الجزيرة العربية سواه من شمالها الغربي (منطقة الجزيرة الفراتية) أو من أجزاءها الأخرى فيستحسن إطلاق لفظة الجزريون (سكان الموارخين العرب - بغداد ١٩٨١ ص ٣).

(٢) المصدر السابق ص ١٠.

Hasting , encyclopaedia of religion and ethics vol -2-(19 34) p-378

(٣)

والمجتمع والدين.^(١) وأمور أخرى. وهذا يعني وجود وحدة مشتركة كانت تجمع متكلمي هذه اللغات مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين والفينيقيين والأراميين والعرب ويسمى هذا الأصل أو الوحدة (الرس السامي) أو (الجنس السامي) أو (الأصل السامي) أو (السامية). وسميت اللغات التي تكلمت بها الشعوب المارة الذكر اللغات العربية القديمة (السامية).^(٢)

يُعد سام بن نوح جد هذه الشعوب الأكبر كما جاء في التوراة^(٣). وقد عرف العرب المسلمين سام بن نوح. وقد بحثوا عن أولاد نوح لعلاقة ذلك بما جاء عن نوح في القرآن الكريم وعن الطوفان. روى الطبرى أن الرسول ﷺ قال: سام أبو العرب وبأخت أبو الروم وحام أبو الحبس. وقد روى الطبرى مجموعة أحاديث في هذا المعنى^(٤).

وفي منتصف القرن التاسع عشر ألف المستشرق الفرنسي رينان كتاباً عن أديان الساميين أكد فيه على أن العرب الساميين جنس منحدر من أصل واحد مشترك يتميز أفراده بتشابه اللغة وبنتركيب عقليتهم وبنظرتهم الجزئية للأشياء وبنتأثرهم بالغبيات وميلهم إلى البساطة في التفكير والوحدانية في الدين. وأكد أن هذه الميزات التي تتصف بها العقلية السامية ترجع إلى عوامل بيولوجية ووراثية في الجنس، وأنهم يختلفون بذلك أساسياً عن الآرين. لكن رينان كان متأثراً بالنزعة القومية المتطرفة التي سادت أوروبا آنذاك والتي دفعته إلى الاعتقاد بأن العرب (الساميين) يختلفون في التركيب البيولوجي عن الغربيين وأنهم أحاط من الغربيين في العقلية^(٥). وإنما يكون رينان قد خالف العقل وجانب الانصاف.

والانتقادات التي توجه إلى نظرية رينان هي أنه لا يوجد شعب نقي الدم، وأن

(١) Ency , britanica , vol -20 .p -315 . وانظر ولفسون ، تاريخ اللغات السامية ، ص ١٤ .

(٢) Ency , britanica , vol -20 .p -314 .

(٣) سفر التكوين الإصلاح العاشر / الآية ١ . ٢١، ١ .

(٤) تاريخ الطبرى ، ١ / ٢٠٩ .

(٥) العلي ، أحمد صالح ، محاضرات في تاريخ العرب ، (الموصل ١٩٨١) ص ٨ ولفسون ، المصدر السابق من ١٣

اختلاف طرق تفكير الشعوب لا يرجع إلى اختلاف نقاء أبنائهما بل إلى الظروف الجغرافية والاجتماعية التي أدت بعضها أن تعمل بالشكل الذي تعمل فيه. يضاف إلى ذلك فإن تقسيم الشعوب يستند على أسس حضارية أكثر مما يستند على أسس بيولوجية.

لم يتفق الباحثون على موطن العرب (الساميين) الأول لعدم امتدادهم إلى دليل مادي يشير إلى ذلك الوطن أو يؤيد نظرية وجود مثل هذا الوطن لأن بحوثهم قامت على نظريات لغوية وأراء مستمدة من الروايات الواردة في التوراة عن أصل البشر وأبناء نوح.

فقد رأى فون كريمران إقليم بابل هو الموطن الأصلي للعرب (الساميين) وذلك لوجود الفاظ عديدة لمصطلحات زراعية وحياتية تشتراك فيها اللغات العربية القديمة السامية وهي مسميات لأمور هي من صميم حياة هذا الإقليم^(١). ويرى كوري نفس ما رأه فون كريمر فقد درس الكلمات المألوفة في جميع اللغات العربية القديمة (السامية) عن العمارة والنبات ونواحي الحياة الأخرى. لكنه اختلف عن كريمر حيث جعل بحر قزوين موطنهم الأول ثم ارتحلوا منه إلى بابل^(٢).

ويرى هومل البحاثة الألماني المتخصص في الدراسات اللغوية أن موطن العرب الساميين الأصلي هو شمال العراق، ثم عاد فقال أن بابل هو موطنهم الأصلي.

وقد وجهت انتقادات عنيفة إلى الآراء السالفة الذكر منها هو أن القول بذلك يستدعي انتقال العرب الساميين من أرض زراعية خصبة ذات حياة إلى أرض صحراوية فاصلة ومثل هذا التصور يخالف العقل والمنطق.

وعلى رأي شبرنكر فإن الموطن الأصلي للعرب (الساميين) هو أواسط جزيرة العرب ولا سيما نجد، ومن هذا الموطن خرج العرب الساميون إلى الهلال الخصيب، ومنه انتشروا إلى أماكن أخرى.^(٣) وقد أيد هذا الرأي كثير من

(١) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٢٣٠ / ١ .

(٢) ولفسون ، المصدر السابق ، ص ٥

(٣) علي جواد ، المصدر السابق ، ص ٢٤١

المستشرقين منهم كينغ^(١) وجون ماير^(٢) وكول^(٣).

ويذهب نفر آخر من الباحثين أن العروض ولا سيما البحرين والسوائل المقابلة لها هي موطن العرب الساميين الأوائل^(٤).

ويرى فلبي أن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للعرب الساميين، ومنها هاجروا للحلول الجفاف بها، هاجروا على شكل موجات متالية سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت إلى المناطق التي استقرت بها^(٥). ويؤكد فلبي وجماعة آخرين من المستشرقين أن اليمن هي مهد العرب الساميين وهي في نظر بعض المستشرقين مصنع الأبطال لأنها أمدت الجزيرة بعدد كبير من القبائل قبل الإسلام وفي الإسلام^(٦).

وتري فتة أخرى من المستشرقين أن أفريقيا هي المكان المناسب لأن يكون الوطن الأول للعرب (الساميين) ومن هؤلاء بلكرييف الذي لاحظ تشابهاً في الملامح والخصائص الجنسية وصلات لغوية بين الأحباش والعرب والبربر^(٧).

ويرى جيرلند *Gerland* نفس رأي بلكرييف معتمداً على الدراسات الفيزيولوجية مثل تكوين الجمامجم، والبحوث اللغوية. واعتقد أن شمال أفريقيا هي الموطن الأصلي للعرب الساميين. وأن العرب الساميين والحاميين من أصل واحد وتفرعت منه عدة فروع منها الفرع العربي السامي الذي اتجه نحو الشرق^(٨) وقد أيد هذه النظرية كثير من المستشرقين، منهم نولذك^(٩).

(١) L.W . king , history of sumer and akkad ,(London ,1915) p-119

(٢) John I-meyers , in cambridge ancient history .(Cambridge ,1993-1923) vol .I-p38

(٣) S-A cook ,In Cambridge ancient history , vol -I-p-192

(٤) علي جواد ، المصدر السابق ، ٢٣٢ / ١ ،

(٥) Philby , the back ground of Islam (aleyandria 1949) p.9

(٦) Montgomery , Arabia and the Bible (Philadelphia 1934) p-126-philby , op.,cit.,p-

9

(٧) علي جواد ، المصدر السابق ، ٢٣٥-٢٣٤ / ١ .

(٨) Ency .of Relegion and Eithices , vol - II -p.386

(٩) اللغات السامية ، ترجمة ، رمضان عبد التواب (القاهرة ، ١٩٦٣) ص ١٣

وقد درس بارتولد اللغات العربية السامية وقارنها بالحامية فوجدها تشتراك في بعض الكلمات والصيغ فقال أن العرب الساميين والحاميين كانوا من أصل واحد نفرعا منه. ويرى أن أنسب منطقة صالحة لسكنى الأصل هي شرق إفريقيا في منطقة الصومال وأرتيريا حيث يسهل عبور العرب الساميين إلى بلاد العرب من باب المندب والانتشار في إفريقيا^(١).

لكن التشابه في بعض الكلمات والقواعد بين العرب الساميين والحاميين لا يعني اشتراكهم في الأصل لأن الكلمات المشتركة قد يرجع أصلها إلى الاتصال التجاري إلا إلى الاشتراك في الجنس.

ويرى كايتاني وطائفة من الباحثين أن أصل العرب (الساميين) من جزيرة العرب. وهو يبني رأيه على الآثار المدروسة في جزيرة العربية. والتي تدل على وجود آثار الحياة والنباتات فيها. وقد عثر ببرتام توماس على بقايا بحيرة في الربع الخالي وأثار نباتات وحيوانات في جبل العترة. يضاف إلى ذلك فإن وادي الرمة لا يزال مليئاً بالصخور الرسوبية مما يدل على أنه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه. كما أن الفيلة كانت تعيش في الألف الثاني قبل الميلاد في شمال سوريا وكانت الأسود كثيرة في العراق. وقد أقرّ الجيولوجيون أن المناخ كان قد اختلف في العصور الجيولوجية عما هو عليه الآن وفي عصر الميوسين الجيولوجي كان مناخ الجزيرة العربية دافئاً كثیر الأودية وغير الأمطار مما ساعد على سكن البشر فيها فلما تغير المناخ تقلص السكان لحلول الجفاف، وتحولوا إلى حياة البداوة وهاجر قسم منهم إلى أطراف الجزيرة حيث المياه والعشب^(٢).

ويختلف الأحمد عن هذا الرأي إذ يقول: «ويصعب أن تكون منطقة الربع الخالي محل الملائم لانطلاق أي من الجماعات الجزيرية عبر التاريخ فهذه المنطقة بالذات لم يتبدل مذاها منذ العصور الحجرية الحديثة»^(٣).

(١) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ١٠

(٢) انظر التفاصيل في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١/٤٠-٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٤-٥ .

وهناك آراء مختلفة ترى أن المهد الأصلي (للساميين) هو أرض أرمينية او اودية او بلاد الشام او أرض فققاسي^(١)، او أسفل نهر الفرات.^(٢)

ومن ذلك يتبيّن أنه من الصعب الحزم برأي في المهد الأصلي للعرب (للساميين) والذي يمكن الإيمان به هو أن أغلب العرب الساميين الذين وصلت أخبارهم، وأسمائهم كانوا من نزوح جموع عربية (سامية) من الجزيرة العربية إلى بلدان المعمورة الدانية والفاصلة في أزمان مختلفة، فقد اتجهت أول هجرة عربية سامية من الجزيرة العربية إلى بابل وكذلك هاجر الكلتعانيون والأراميون تاركين الجزيرة العربية إلى بلاد الشام ووادي الراشدين.

وقد وصلت بعض الهجرات العربية (السامية) إلى بلاد وادي النيل ويسقط سلطتها على مصر. وكانت الهجرة العربية بعد ظهور الإسلام إلى جميع أطراف العالم آخر موجة سامية عظيمة غمرت وجه الأرض وهزت العالم بأسره وغيرته أحوال الأمر في آسيا وإفريقيا وأوروبا.

العربية (السامية) :

جرت هجرات عديدة من الجزيرة العربية إلى أطرافها. وكانت لهذه الهجرات أما موسمية أو محدودة كهجرة الرعاة المتجلولين وراء المراعي، إذ كانوا يدخلون العراق وسوريا لمدة مؤقتة في الصيف والربيع خاصة. ثم يعودون إلى جزيرتهم. وفي أحيان أخرى ينتشرون في أطراف الهلال الخصيب. أو هي هجرات واسعة تحمل أعداداً كبيرة من الناس إلى الهلال الخصيب. وأهم هذه الهجرات :

١- في حدود الألف الرابع ق. م هاجر قوم من الجنس السامي إلى مصر عن طريق سيناء أو إفريقيا الشرقية^(٣).

٢- الهجرة الأكرية التي بدأت قبل عام ٣٥٠٠ ق. م وقد أسس الأكريون الدولة الأكريّة التي وحدت العراق أيام سرجون الأول ومدت نفوذها إلى أعلى دجلة.

(١) علي جواد ، المصدر السابق ، ٢٣٨-٢٣٩ / ١ .

(٢) البكر ، متذر ، المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٣) البكر ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

- ٣- الهجرة الأمورية إلى العراق والكنعانية والفينيقية إلى سوريا حوالي سنة ٢٢٠٠ ق. م.
- ٤- الهجرة الآرامية التي شملت سوريا وفلسطين وشمال العراق حوالي سنة ١٥٠٠ ق. م.^(١)
- ٥- هجرة الكلدانين الذين نرحو من جنوب جزيرة العرب في وقت يصعب معرفته واتبعوا طريق ساحل البحر العربي الذي طغوا عليه بحيث تسمى باسمهم (البحر الكلداني) ثم دخلوا العراق خلال الألف الأول ق. م^(٢) ثم خرجت في وقت لاحق من جنوب غرب جزيرة العرب (اليمن) أيضاً جماعات سكنت بلاد الرافدين عرفوا بالمناذرة والغساسنة.
- ٦- هجرة الأنباط والتدمرين في منتصف الألف الأولى ق. م.^(٣)
- طبقات العرب :** يقسم الرواة العرب من حيث القدم إلى طبقات ثلاث هي : العرب الباشدة، والعرب العارية، والعرب المستعرية أو عرب عارية وعرب متعرية وعرب مستعرية. ويقسمون العرب من حيث النسب إلى قسمين : قحطانية ومتنازلهم الأولى في اليمن. وعدنانية ومتنازلهم الأولى في الحجاز^(٤).
- ويتفق النسابون على أن القحطانيين هم عرب منذ أن خلقهم الله وعلى هذا النحو من العربية التي نفهمها وهم الأصل والعدنانيون فرع منهم وعنهم أخذوا العربية ويلسانهم تكلم أبناء اسماعيل بعد هجرتهم إلى الحجاز فتكلموا بالعربية بعد أن كانوا يتكلمون بالأرامية أو الكلدانية أو العبرانية على بعض الآراء^(٥).

(١) العلي ، المصدر السابق ، ص ١٢

(٢) الأحمد - سامي سعيد ، المصدر السابق ، ص ٥

(٣) ويرى سامي سعيد الأحمد أن المروجة الأكديّة والفينيقية... باحتمال هجرتها من شمال غربي الجزيرة العربية أو المنطقة المعروفة بالجزيرة الفراتية في شمال غربي نهر دجلة في العراق - شمال غرب سوريا وجنوب تركيا ، المصدر نفسه ص ٦-٧ .

(٤) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٦/١ ، الزبيدي تاج العروس ٣٣٣/٣ .

(٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ٢٦٢/١ ، التویری ، نهاية الأربع ، ٢٩٢/٢ .

ويظهر أن تقسيم العرب إلى طبقات من ناحية القدم تقسيم لا يوجد له ذكر في التوراة ولا في الموارد اللاتينية أو اليونانية أو السريانية ويبدو أنه تقسيم عربي إسلامي نشأ من الجمع بين العرب الذين ذكر أنهم بادروا قبل الإسلام فلم تبق منهم غير ذكريات، وبين العرب الباقيين وهم إما من عدنان وإما من قحطان^(١).

وأما العرب البائدة فهم عاد وثمود وطسم وجidis وجاسم وعبد ضخم وجرهم الأولى والعمالقة وعييل^(٢). وقد ألف بعض الإخباريين كتاباً في بعض العرب البائدة ومنهم عبيد بن شربة الجرمي وابن الكلبي ووهب بن منبه. ويغلب الطابع الأسطوري على هذه الكتب^(٣).

والعرب العاربة هم الطبقة الثانية من العرب وهم من أبناء قحطان وأسلاف القحطانيين المنافسين للعرب العدنانيين الذين هم العرب المستعربة في عرف النساين^(٤).

ويكون العرب المستعربة الطبقة الثالثة على رأي أهل الأخبار ويقال لهم العدنانيون أو النزاريون أو المعديون وهم من صلب إسماعيل بن إبراهيم^(٥) وسموا بالمستعربة لأنهم أخذوا العربية من العرب العاربة. وموطنهم الأول مكة وهي المهد الأول لهم^(٦). ويرى العدنانيون أن عدنان جدهم الأعلى كما أن القحطانيين يرون أن قحطان جدهم الأعلى^(٧).

(١) علي جواد ، المصدر السابق ، ٢٩٥/١ .

(٢) الطبرى ، تاريخ ، ١٠٣/١ .

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص (١٤٧ و ١٥٢) .

(٤) علي جواد ، المصدر السابق ، ٣٥٤/١ .

(٥) ابن هشام ، السيرة ، ٣/١ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ١٦١/١ .

(٦) المصادر المذكورة أعلاه .

(٧) الزيدي ، تاج العروس ، ٢٧٥/٦ .

الفصل الثاني

الدول العربية القديمة

أقام عرب ما قبل الإسلام عدّة دول لعبت دوراً مهماً في تاريخ العالم. ويمكن تقسيم هذه الدول جغرافياً إلى الدول العربية الجنوبيّة والدول العربية الشماليّة. وفي هذا الفصل سندرس الدول العربية الجنوبيّة. وسندرس الدول العربية الشماليّة في الفصل الذي يليه.

١- الدول العربية الجنوبيّة :

قامت هذه الدول في اليمن الواقعة في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية. يتكون سطح اليمن من سلسلتين جبليتين تمتدان من الشمال إلى الجنوب وتحضران بينهما هضبة عريضة. يمتاز سطح اليمن بالانحدار الشديد نحو البحر. وهناك سهلاً ساحلياً ضيقاً يفصل اليمن عن البحر. أمطار اليمن صيفية غزيرة تأتي بها الرياح الموسمية من شرق إفريقيا مكونة نهيرات صغيرة وسيولاً. وقد استفاد أهل اليمن من مياه هذه الأنهر والسيول في الزراعة، فاستقرت الناس وأنشأت المدن.

أهم منتجات اليمن البخور والعطور والكافيات التي كانت تستعمل في المعابد والطقس الدينية وفي الأطعمة. وكانت اليمن وحضرموت تزرعان أهم أنواع العطور والكافيات. وتعتبران أكبر مصدر لها في العالم القديم، مما أدى إلى ازدهار تجارة اليمن مع البلدان الأخرى وخاصة بلدان البحر المتوسط والهلال الخصيب. إن وقوع اليمن على طريق الهند التجاري جعلها مركزاً مهماً لتجارة المرور

وأدى إلى سيطرة بحارتها على الملاحة في البحر العربي والبحر الأحمر. وكان الملحون اليمانيون يعرفون سرهبوب الرياح الموسمية من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي في الصيف ثم تسير بالعكس في فصل الشتاء. وظل اليمانيون يحتكرون هذه المعرفة حتى القرن الثاني ق. م وقد أدت هذه الأحوال إلى الاستقرار في اليمن ونشوء المدن وتطور المدينة، فظهرت بها دول لعبت دوراً كبيراً في التاريخ. وأقدم هذه الدول الدولة المعينية التي تشكلت في الجوف وكانت عاصمتها معين^(١).

الدولة المعينية

عاشت الدولة المعينية وازدهرت بين ١٣٠٠ - ٦٣٠ ق. م وعرفتها المصادر الإسلامية على أنها محفر من محافظ اليمن وحضرن ومدينة^(٢)، وقد ظهرت هذه الدولة في الجوف، والجوف منطقة سهلة بين نجران وحضرموت، أرضها خصبة منبسطة ذات مياه تسقيه مياه نهر الخارج كما تساقط عليه الأمطار وتحيطها الجبال من ثلاث جهات^(٣).

كان نظام الحكم ملكياً استشارياً. يستشير الملوك أقرباءهم ورجال الدين وسادات القبائل ورجال المدن ويصدرون أحكامهم على شكل أوامر ومراسيم تفتح بأسماء آلهة معين ثم يذكر اسم الملك.

وقد كان للمدن حكومات، لكل مدينة حكومة صغيرة ولها أطمة خاصة تسمى بها ومجتمع يسمى مجتمع الأمة أو مجتمع القوم. ولكل مدينة مجلس استشاري يدير شؤونها الحربية والسياسية.

ولرؤساء القبائل مجالس يجتمعون فيها للبت في الأمور وحل الخصومات التي تحصل بين أتباعهم وتسمى هذه المجالس مزاود مفردتها مزاود. ويمكن تشبيه المزاود

(١) العلي ، المصدر السابق ، ص ١٦٧-١٦٨

(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٧-١٦٨

(٣) ابن عنان ، زيد ، تاريخ اليمن القديم ، ص ٩٥

بدار الندوة عند أهل مكة.

ت تكون مملكة معين من عدة مقاطعات يدير كل مقاطعة مثل للملك يعرف عندهم بـ (الكبير) وهو لا يتدخل إلا في السياسة التي تخص المسائل الكبرى المتعلقة بحقوق وشعب معين.

ويأتي الإيراد المالي للدولة المعينة من الضرائب وواردات الأرض الحكومية التي تؤجرها للناس. وضرائب التجارة والزراعة والضرائب الأخرى التي يدفعها مختلف الناس. وللمعابد مواردها الخاصة من أراضيها ومن الهدايا والذور التي تقدم إلى الآلهة.

يجي الضرائب الحكومية الكبيرة وسادات القبائل والحكام عادة كما يتعهدون بإنشاء الأبنية العامة وإحكام أسوار المدن وبناء الحصون والأبراج والمعابد وما شاكل ذلك.

وكانت طرق التعامل الاقتصادي بين الناس تتم بالمقاييس وبالمواد العينية وبها أيضاً دفعت أجور العمال والموظفين والمستخدمين والزارع. ثم ظهرت النقود وأخذت حكومة معين تضرب النقود ومنها دراهماً أي الدرهم، عليها صورة ملك جالس على عرشه، وقد وضع رجليه على عتبة^(١).

ثم توسيع المعينيون فمروا نفوذهم خارج اليمن ولا سيما موضع العلا التي تقع بين أعلى الحجاز والأردن وجنوب فلسطين وقد وصل تجارهم إلى بلاد الشام والبحر المتوسط ومصر.^(٢) وقد باع التجار المعينيون البخور في مصر.

وكانت العلا على رأي بعض الباحثين جزءاً من دولة المعينيين وأن ملوك معين كانوا يعينون عليها حكامًا باسمهم^(٣). وقد وصل المعينيون الجزر اليونانيين وأقاموا بها.

(١) علي جواد ، المصدر السابق ، ١٠٨-١٠٩ / ٢ .

Philby ,op.cit.,p.42

(٢)

(٣) علي جواد ، المصدر السابق ، ١٢١ / ٢ .

ومن المحتمل أن مملكة معين أقصيت عن الحكم حوالي عام ٦٣٠ ق. م من قبل المكرب السباني يعتمر بين ودخلت كلياً ضمن الدولة السبانية حوالي سنة ٦١٠ ق. م^(١).

قتبان

يظهر أن القبانيين سكنا الجهة الجنوبية الغربية من اليمن إلى جنوب السبايين وعلى أطراف حضرموت. يؤيد وجهة النظر هذه ياقوت الحموي إذ يذكر أن قتبان موضع في نواحي عدن^(٢). وتشير المصادر المتوفرة في الوقت الحاضر إلى أخبار مهمة عن قتبان وكانت عاصمتهم تمنع أو تمنا في وادي بيحان، وهي قرية من باب المندب وتسمى حالياً باسم كحلان^(٣).

اختلف الباحثون في تحديد بداية تكوين دولة قتبان كما اختلفوا في تحديد نهايتها. فيرى فلبي أن أقدم مكارب قتبان يرجع إلى حدود ٥٦٨ ق. م وأنها اندمجت بسبأ نهائياً سنة ٥٤٠ ق. م^(٤). في حين يعتقد جلاسر أنها قامت فيما بين عامي ٢٤٠ - ٢٠٠ ق. م واستناداً إلى جهود بعثة وندل قيلبس يمكن القول بأن المدن القتبانية كانت آهلة بالسكان في الألف الثاني قبل الميلاد^(٥).

وهذا التاريخ يشير إلى أن الدولة قتبان كانت قد عاصرت دولة المعينيين ودولة السبايين، وشهدت الفترة ما بين القرن السابع والخامس ازدهاراً لحكم المكربين. وفي هذه الفترة التاريخية هاجم المكرب أب ذبيان، سباً واستولى على بعض أملاكها. وتذكر المصادر أن هناك فترة تاريخية تمتد من ٣٥٠ ق. م إلى ٢٥٠ ق. م تولت فيها أسرة ثانية حكم قتبان حيث تغير لقب حاكم قتبان من لقب مكرب وهو

(١) البكر ، متن ، المصدر السابق ، ص ١٧٦

(٢) معجم البلدان ٤/٣١٠ .

(٣) السالم ، السيد عبد العزيز ، دراسات في تاريخ العرب ، ١٤٩/١ القاهرة ، ١٩٦٧ .

(٤) Op.,cit.,p.61-63

(٥) نسبة الخازن ، من الساميين إلى العرب القديم ص ١٨٥ .

لقب ديني يعني الكاهن إلى لقب ملك وهو لقب دينوي وبذلًا فقد انتهت فترة حكم المكروريين في قتبان وبدأت مرحلة جديدة في نظام الحكم عندهم وهو النظام الملكي ومن بين ملوك هذه الأسرة شهريكل الذي أصبح ملكاً على قتبان عام ٣٠٠ ق. م تقريبًا. ويلي هذا العصر عصرًا آخر حكمت فيه أسرة قتبانية أخرى استمرت من سنة ١٠٠ ق. م إلى ٢٥ ق. م ثم تعرضت عاصمة القتبانيين تمنع إلى هجوم أجنبي عجل بسقوط دولة القتبانيين^(١).

وكان عصر الأسرة القتبانية الثانية أزهى فترة تاريخية في حياة القتبانيين فقد عثر على نقوش تعود إلى هذه الفترة التاريخية تشير إلى أن قتبان كانت في هذه المرحلة أهم دول بلاد العرب الجنوبية حيث أنها أخضعت لها دولة معين وسبأ.

اشتغل القتبانيون بالتجارة وحصلوا منها أرباحاً طائلة وقد عثر على عملات هيلينية ورومانية مما يدل على تطور تجارتهم وانتقالها إلى العالم الخارجي.^(٢) وكانت نظم إدارتهم تشبه النظم المعينة^(٣).

دولة سبأ

اسم سبأ هو اسم قوم من الأقوام العربية الجنوبية. واسم لمملكتهم وهي أشهر الممالك العربية القديمة التي ظهرت في الجنوب الغربي من بلاد العرب. وقد ورد ذكر دولة السبئيين في أخبار آشور بقبرميدة للملك سرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥ ق. م) إذ ذكر فيها الأمم التي تؤدي إليه الجزية وفي جملتها سمية ملك العرب وفرعون ملك مصر ويشعر السبئي، فيدل ذلك على وجود السبئيين في بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد^(٤). وورد في حلوليات تجلات بلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م) أن سياتي (السبئيين) أرسلوا له الجزية من الذهب والجمال والتوابيل سنة ٧٣٣ ق.

(١) فؤاد حسين ، استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٢٨٧-٢٨٨ .

(٢) علي ، جواد ، المفصل ، ط ٢ .

(٣) العلي ، المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٤) زيدان ، جرجي ، العرب قبل الإسلام ، (بيروت ١٩٦٦) ص ١٥٩-١٦٠ .

(١) في حين يرى البعض أن معلوماتنا عن سباً تعود إلى تاريخ أقدم من ذلك، إلى الألف الثالث ق.م حيث عثر على نقوش تعود إلى عهد لجيش (تلوا الحالية) في حوالي ٢٥٠٠ ق.م.^(٢).

وقد تدرج السبأيون من الكهانة إلى الملك الواسع القائم على التجارة لا الحرب، لأن الحرب لا نجد لها ذكراً في آثار السبأيين إلا القليل خلافاً لمعارضيهم من الآشوريين والمصريين. ولم يصل لنا من السبأيين غير قولهم : نين ووقفت، ورحمت، وإنما يراد بسعة نفوذ السبأيين نشره فيما جاروهم من المحافظات أو المخالفين^(٣).

كانت سباً تسطير على الطريق التجاري الرئيسي الذي يربط جنوب الجزيرة العربية بسوريا ومصر. وكان هناك حكام سبأيون مقيمون في الواحات الشمالية التي تقع على الطرق التجارية بالإضافة إلى حاميات عسكرية تظن إبقاء هذه المحطات التجارية في دائرة النفوذ والسيطرة.

وكان مركز السبأيين واحة ديدان (العلا) ومدينة الحجر وفيما مارست سباً نفوذها على شمال البلاد العربية. فقد اتخذ الحاكم السبأي الملقب يكبر مقره في ديدان. وكانت هناك واحات أخرى إلى جانب ديدان تخضع للنفوذ السبأي مثل واحة تيماء وقunan.

وهناك مجموعة من العوامل جعلت السبأيين على درجة كبيرة من الثراء كخصوصية الأرض ووقوع بلادهم على طريق الهند والبحر الأحمر من جهة وسيطرتهم على الطرق التجارية البرية التي تربط الجنوب بالشمال. وقد أشار القرآن الكريم إلى ثراء سباً فقال: **﴿لَئِنْ كَانَ لِسَبَأً فِي مَسْكِنِهِمْ مَائِةً جَنَّاتٍ عَنْ بَيْنِ وَشَائِلٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَنْكِرُوا لَهُمْ بَلَدَةً طَيْبَةً وَرَبُّ عَمُورٍ﴾** [سبا: ١٥].

(١) موصل، شمال العجائز ، ترجمة د. عبد المحسن الحسن (الإسكندرية ١٩٥٨) ص ٨٥

(٢) البكر ، المصدر السابق ، ص ٢١٤

(٣) زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٦٠

كان موطن السبئيين الأصلي في الجوف في بلاد العرب الشمالية. ثم هاجروا في القرن الثامن قبل الميلاد إلى جنوب جزيرة العرب. فاتخذوا صرواح عاصمة لهم، ثم بدلوها بمارب. وعلى رأي هومل أنهم كانوا يقيمون في المواقع التي عرفت عند الآشوريين بـ عرببي أو آريبي وفي التوراة باسم يارب. ولما استقر في اليمن بناوا عاصمة لهم وسموها مارب التي اشتقت اسمها من آريبي وبمارب^(١).

ويرى أحد الباحثين أن سمه علي هو أول مكرب سبئي أسس دولة سبائية في صرواح حوالي ٨٠٠ ق. م والذى قدم مع حشود من أبناء شعبه من شمال جزيرة العرب وأخضع بلاد معين والحضارة والقبانيين^(٢).

وقد من السبئيون باربعة أطوار تميز باللقب ملوكها، فكان ملکهم في الطور الأول يسمى مكرب سبا ثم ملك سبا ثم ملك سبا وريدان ثم ملك سبا وريدان وحضرموت، وأعرابها في الجبال وتهامة^(٣). ويسمى المؤرخون العرب الدورين الثالث والرابع باسم الدور الحميري.

الطور الأول :

مكرب سبا أي المقرب من الآلهة أي واسطة بين الناس والآلهة. وكانت صرواح هي العاصمة ويمتد هذا الطور من سنة ٨٠٠ ق. م إلى ٦٥٠ ق. م وأول مكرب سمه علي والذي أسس دولة سبا. وقد خلفه مكاربة آخرون اهتموا بتأسيس المعابد المخصصة لعبادة الإله القمر. واهتموا بالزراعة فقد أعطوا الأرضي لل فلاحين لاستصلاحها واستغلالها في الزراعة وإنشاء السداد ومنها سد رحيم الذي أنشأ سمه علي نيف بن ذمر سنة ٦٥٠ ق. م. وقد أنشأ هذا السد على فم وادي المدقة بمارب يعرف باسم سد رحيم أو رحاب وذلك لاحتجاز مياه الأمطار والسيول والافادة منها في ري مساحات كبيرة من الأراضي. ثم قام يشع أمر بن سمه علي نيف وخليفته ببناء السد الأعظم المعروف باسم مبایض وزاد في طول وعرض سد

(١) علي جواد ، المصدر السابق ، ١٦٠/١ .

(٢) المصدر السابق ، ٢٨٩/٢ .

(٣) زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٦١

رحب^(١). وقد حول هذان السدان مأرب البلدة الطيبة في القرآن الكريم إلى جنتين عن يمين وشمال. وهناك سدواً آخر بنيت في زمن يشع منها سد مقرآن وسد يشن وسد منهيت وسد كهلم^(٢). وكان آخر مكاربه للسباين هو كرب ال وتر الذي قضى على الدولة المعينة وانتصر على الدولة القتبانية^(٣) ثم نبذ لقب مكرب وتسمى بملك سبا. وربما كانت انتصاراته السابقة الذكر هي التي جعلته يغير لقبه من مكرب إلى ملك ويجهل بعض الباحثين سبب هذا التغيير في اللقب^(٤).

الطور الثاني :

ملوك سبا : لا يتفق الباحثون حول تاريخ بداية ونهاية هذا الطور. فيرى هومل أن بدايته كانت سنة ٦٥٠ ق. م ونهايته عام ١١٥ ق. م غير أن نكتش جعل بداية لهذا الطور عام ٥٠٠ ق. م وحدد ركمانس سنة ١٠٥ ق. م نهاية له. في حين يرى بيستون أن نهايته كانت حوالي ٣٠ ق. م^(٥) كما حدث تغير في هذا الطور فبينما كانت صرواح هي العاصمة في عهد المكربيين أصبحت مأرب هي العاصمة الجديدة في هذا الدور.

وقد سمي هذا الطور بطور ملوك سبا تمييزاً له عن العهد الذي سبقة أو العهد الذي تلاه إذ تحررت الملكية في هذا الطور عن الكهنوت.

وفي عهد ملوك سبا استمر الصراع بين مملكتي سبا وقطبان وهو صراع يرجع تاريخه إلى أيام مكارب سبا ولم يتنهي إلا بعد أن تم القضاء على استقلال قتبان.

وقد حدث تطور كبير في حكومة سبا وتنبئير هام في السياسة وفي النظم الاجتماعية والمدنية. فقد ظهرت آلهة جديدة لم يسمع عنها من قبل مثل ذو السماء أو ذو سماوي، وظهرت أسر قوية لعبت دوراً خطيراً في سياسة بلاد العرب الجنوبية

Philby , op. cit., p-39

(١)

(٢) علي جواد المصدر السابق ، ٢ / ١٣٠

(٣)

Philby , op. cit., pp-40 - 41

(٤) البكر ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ ، وراجع زيدان ، المصدر السابق من ١٦٢ - ١٦٣

ومن هذه الأسر أسرة همدانية اغتصبت العرش من ملوك سبا^(١).

وقد نهج ملوك سبا سياسة قومية وحدوية فقد أرادوا دمج الإمارات في مملكة واحدة ولكن هذه السياسة القومية اصطدمت بالصالح الإقطاعي التي عز عليها أن تتنازل عن استقلالها، فقامت اضطرابات عنيفة وثورات داخلية أثرت بالوضع السياسي والاقتصادي لملكة سبا وتمكن الدول الأجنبية من التدخل في شؤونها^(٢).

وفي حوالي سنة ٢٠٠ ق. م تأسست أسرة سبانية ملكية أخرى وهي من همدان^(٣). ثم بدأت بوادر الضعف تظهر على ملوك سبا وذلك لاحتياط البطالة في مصر التجارية الشرقية وقيام النزاع بين أبناء الأسرة الهمدانية مما فسح المجال لأصحاب زيدان أن يتمكنوا من انتزاع العرش وتأسيس أسرة جديدة لقب ملوكها بلقب ملوك سبا وزيدان وهم الحميريون الذين نقلوا العاصمة السبانية إلى ظفار^(٤).

وقد ذكر جرجي زيدان أسباب انهيار دولة ملوك سبا في الطور الثاني فقال: (إن دولة السبانيين ذهبت تدريجياً بذهاب أسباب قوتها لأنها خلفت المعينين في نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق حتى أصبحت في القرون الأولى قبل الميلاد وأكير وسائل الاتصال بين تلك الأمم هناك. فكانت السلع والأطیاف تأتي من الهند والحبشة إلى شواطئ جزيرة العرب، فينقلها السبانيون على قواقلهم إلى مصر والشام والعراق، ولم يكن عالم التجارة يستغني عنهم، فزهدت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتدت سلطتهم إلى أطراف الجزيرة شمالاً وشرقاً واحتفروا الترع وبنوا السدود وحولوا الرمال إلى تربة خصبة، وبنوا القصور والهياكل، وتغتنوا في تزيينها وزخرفها، وشادوا حولها الأسوار واغترسوا الحدائق حتى صارت الباية التي يهلك سالكها من العطش الآن جنة آهلة عامرة. وما زالوا في عز وثروة، وإذا تصدع السد رعوه، حتى أخذت طرق التجارة تحول من البر إلى البحر فأخذت

(١) سالم ، السيد عبد العزيز ، المصدر نفسه ، ص ١٦٦

(٢) علي جواد ، المصدر السابق ، ١٧٧ / ٢

(٣) فؤاد حسين ، المصدر السابق ، ص ٢٩٣

(٤) زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، العلي ، المصدر السابق ، ص ٢٤

في الضعف. وكان أصحاب ريدان وهي أقرب إلى البحر جنوباً. وقد اشتد سعادتهم وهم من حمير فرع من السبئيين، فغلبوا على مدinetهم أو اتحدوا دولة واحدة^(١) كان يقيم ملوكها تارة في مارب وطوراً في ريدان ظفار على التوالي.
ويبدو أن الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة سبا هي^(٢):

١- إن نهاية القرن الثاني للميلاد قد شهدت تحولاً من الداخل ومن الخارج، فقد بدأ الحميريون زحفهم الطويل الذي انتهى بهم فيما بعد إلى إقامة حضارتهم الجديدة ظفار في المرتفعات الجنوبية الغربية، وكان ذلك على أية حال بداية الصراع الذي لم يضعف أبداً قروناً.

وفي الخارج أخذ النشاط البطالي في البحر الأحمر يزداد وبدأت الرحلات البحريّة من مصر إلى الهند مباشرةً.

٢- محاولة الرومان غزو اليمن: وكان هدف حملة الرومان محاولة احتلال بلاد العرب التي اشتهر أهلها بالغنى. أو اكتساب صداقتهم، فقد حمل ليوس غالوس جنوده من مصر بحراً وبعد مصاعب شتى وبعد أن فقد أعداداً كبيرة من جنوده وصل اليمن وكانت أول مدينة يمانية تعرضت لهجومه هي نجراناً ولعلها نجران. ويبدو أن السبئيين تصدوا للمعتدي بكل شجاعة وكانت الحملة فاشلةً منذ اللحظة الأولى لأن قائدتها يجهل كل شيء عن طبيعة الأرض التي أخذ على عاته مهمة غزوها.

ويجعل زيد بن علي عنان أهم الأسباب وراء سقوط دولة سبا هو «تصدع سد مارب وذلك أنهم كفروا بنعم الله فأرسل عليهم سيل العرم»^(٣).

قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ يَسْبِلُ فِي مَسْكِينِهِمْ أَيَّهَا جَنَّتَيْنِ عَنْ يَمِينِ وَشَمَائِلِ كُلُّهُمْ مِنْ يَرْزُقْ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَمْ بَلَّهُ طَيْبَةً وَرَبِّ غَفُورٍ»^(٤) فاغرّشوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلتهم بمسكينهم جنتَيْنِ ذوقَ أَكْثَلِ حَطَرٍ وَأَقْلَى وَسْقَوْ مِنْ يَسْبِلِ قَلِيلٍ^(٥) [سبا: ١٦، ١٥].

(١) المصدر السابق ص ١٦٤-١٦٣

(٢) محمد عبد القادر ، تاريخ اليمن القديم ، (بيروت ١٩٧٣)، ص ٨٢-٨٤

(٣) تاريخ حضارة اليمن القديم/ القاهرة بدون تاريخ المطبعة السلفية ص ٨٩

الطور الثالث

ملوك سباً وذو ريدان : وتشير هذه التسمية إلى ضم ريدان إلى سباً وظل هذا اللقب مستعملاً حتى أيام الملك شميريرعش ملك سباً وذي ريدان ثم قرر أن يبدل لقبه إلى لقب سباً وذي ريدان حضرموت ويمنت دلالة لمن توسع رقعة سباً مرة أخرى فدخلت بذلك حكومة سباً في عهد ملكي جديد^(١).

وامتاز تاريخ هذا العهد بالفوضى والنزاعات على العرش والحروب الأهلية المستمرة حتى كادت الحروب تصير هواية. أما الخاسر فيها فهو الشعب إذ كان يساق من حرب إلى حرب فيسمع وبطبيع لعدم وجود قوة له تمكنه من الإقناع، والمتشاركون البارزون في هذه الحرب هم سادات همدان وسادات حمير، أصحاب ريدان وسادات حضرموت وقبان واقيل واذواه وأصحاب أطماع وطموح الذين أرادوا اقتناص الفرص لتوسيع نفوذهم وتنمية مصالحهم. وقد أصاب هذا التزاع وال Herb العربية الجنوبية بأسوا النتائج فهدمت مدنهم وخربت مزارعهم وتأثر اقتصادهم بسبب استمرار الحروب فتوقفت الأعمال مما شجع الأجانب (الرومان والأحباش) على شن الحملات على العربية السعيدة لكتهم فشلوا في احتلال اليمن وقد لعبت العوامل الطبيعية دورها في إفشال عملية احتلال اليمن السعيدة. إذ لاقى الرومان من الحر والعطش والجوع ما جعلهم يقررون التراجع والعودة إلى بلادهم فهلك أكثرهم من العوامل المذكورة لكن الأحباش تمكنوا من التوغل في داخل العربية الجنوبية والتدخل في أمورها الداخلية وقد ساعدهم الرومان في ذلك لأنهم كانوا تحت تأثير نفوذهم^(٢).

وتسمى مملكة السبايين في هذا الطور بدولة حمير. وهي تختلف عن دولة سباً إذ تبع بين ملوكها قواد فتحوا الممالك وحاربوا الفرس والأحباش وغيرهم. ولقب ملوكها في المرحلة الأولى بلقب ملوك سباً وريدان وهم ملوك الطبقة الأولى من حمير وتنتهي هذه المرحلة بضم حضرموت إلى القابهم وبضمها تبدأ المرحلة الثانية

(١) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤١٦

(٢) المصدر السابق ، ٤٢٠-٤٢١ / ٢ .

إذ سمي الملوك ملوك سباً وريدان وحضرموت. وهم ملوك حمير من الطبقة الثانية. وأول من لقب بهذا اللقب شمر برعش فهو آخر ملوك الطبعة الأولى وأول ملوك الطبعة الثانية من حمير^(١).

وقد أطلق الأجناديون لقب تبع، على كل ملك من ملوك حمير حكم اليمن، ومعناه أن الناس يتبعونها أو من التابع، بعضهم بعضاً^(٢)، إلى آخره من التفسيرات الأخرى^(٣). وقد أشار القرآن الكريم إلى تبع^(٤). وكان أول ملك حميري لقب بلقب تبع هو الحارث بن ذي شمر^(٥).

وتمكن الحميريون من تكوين أنفسهم وسيادتهم السياسية في جنوب الجزيرة العربية واستدلوا على مناطق واسعة من ساحل البحر الأحمر والبحر العربي حتى حضرموت وامتد نفوذهم إلى أفريقيا وبنوا لهم علاقات حسنة مع الروم. وكان أحد ملوكهم (كرب أيل) يتبادل معهم الهدايا^(٦).

وفي عهد الدولة الحميرية بدأت النصرانية بالانتشار في اليمن على يد المبشرين القادمين من الجبالة، وقد أنشأوا لهم كنائس في ظفار نجران، وكذلك جاءت النصرانية عن طريق الحيرة وسورية. وقد نجح المبشرون بتغيير اعداداً من أهل اليمن. ثم بدأ الأحباش الاستعدادات لغزو اليمن. وتختلف المصادر عن أسباب هذا الغزو. فبعضها تسب ذلك إلى اضطهاد اليهود للنصارى إذ كانت اليهودية قد دخلت اليمن على يد أحد ملوك حمير ورحب الناس بها واعتنقوها. وكانت دولة الروم قد تصررت. وأمضت الأمور في اليمن إلى ذنواس الذي كان شديد التعصب لليهودية فجمع أهل نجران النصارى وعرض عليهم اليهود بعد أن حفر لهم الأخاديد،

(١) زيدان المصدر السابق ، ص ١٦٥

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى (القاهرة ، ١٩١٣) ٢٠/٥ .

(٣) حمزة الأصفهاني ، تاريخ ملوك الأرض (بيروت) ص ١٠٦ إذ يقول سمي ملك اليمن تبع لأنهم اجتمعوا عليه وتبعدوه

(٤) الدخان / ٣٧ ، ق / ١٤

(٥) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ٩٤/٢

(٦) البكر ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨

فامتنعوا فأحرقهم في النار وحرق الانجيل والكتاب المقدس لذا فقد حرض امبراطور الروم ملك العبشة على غزو اليمن. فأرسل ملك العبشة جيشاً كبيراً بقيادة أبرهة ونفع الأحباش باحتلال اليمن في سنة ٥٢٥ م^(١).

إن من سجايا العربي وطبانه التسامح في الاختلاف في الرأي، وبغض التقاتل والتخاصل على خلافات لا تؤدي الشرف ولا تخدش مكانة الإنسان في مجتمعه. ولذا، فقد هضم المجتمع العربي قبل الإسلام اليهودية والنصرانية ومختلف أنواع الوثنية إضافة إلى عقائد أخرى كان أتباعها قلة. ولكن أصحابها عاشوا مع ذلك في أخاء وتوأم مع المخالفين لهم في عقيدتهم، وكأنهم أكثرية لا فرق بينهم وبين غيرهم في شيء. وما ذُكر عن اضطهاد نصارى نجران أو يهود يثرب، لم يكن من فعل العرب بل من صنع وعمل التعصب السياسي العالمي والذي دخل جزيرة العرب من الروم والفرس، وكانوا قد تباروا في اضطهاد الأقليات، وتقولوا عدوى مرضهم هذا إلى جزيرة العرب لعوامل سياسية ستطرط إليها في الفصول القادمة بالتفصيل.

أما الرواة اليونان فيعزون ذلك إلى سبب تجاري ومالى وهو عجز اليمنيين عن حماية التجارة وخروج مقاليد التجارة عنهم، فأراد الرومان فرض نفوذهم على المنطقة حماية لمصالحهم التجارية واستمرارها من تعذيبات اليمنيين الذين نهبو تجارة الروم وقتلوا جماعة منهم مما عرقل حركة التجارة^(٢).

و عمل الأحباش في أثناء حكمهم على نشر النصرانية في اليمن، فبني أبرهة كنيسة في صنعاء سماها القليس، وبالغ في تزيينها فتقشها بالذهب والفضة والزجاج والسيفساء وصنف الجوهر ولوتها بأصباغ مختلفة^(٣).

الطور الرابع

ملوك سباً وذريدان وحضرموت ويمنت : وهذه الإضافة الجزيرة على لقب ملوك سباً وذريدان دخلت حوالي سنة ٣٠٠ ق. م وهي تدل على أن ملوك سباً وذريدان قد عدوا حضرموت منذ ذلك التاريخ أرضاً تابعة لهم وخاضعة حكمهم.

(١) زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٧٣-١٧٤

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٤-١٧٥

(٣) الحموي ، المصدر السابق

وتعني كلمة يمنت الأرضين في القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب من باب المندب حتى حضرموت^(١).

وأول ملك حمل لقب ملك سباً وذي ريدان وحضرموت ويمنت هو الملك شمريرعش. وقد اهتم هذا الملك بتشريع القوانين لشعبه، فقد أصدر قوانين نظمت البيع بالمواشي والرقيق، فقد حدد المدة التي يعد فيها البيع تماماً، وهي شهر واحد، والمدة التي يجوز فيها رد البيع إلى البائع وهي بين عشرة أيام وعشرين يوماً. واهتم بالتوسيع والفتح، فقد سير حملة إلى جملة قبائل في عسير وتهامة حتى ساحل البحر. وطرد الأحباش الذين كانوا يحكمون ساحل تهامة^(٢). وذكروا أنه وطئ أرض العجم وفارس وخراسان وافتتح مداňتها وخرب مدينة الصغر وراء جيحون فقال العرب شمركننادي شمرخرب. وبنى مدينة هناك سميت باسمه وعربها العرب فصارت شمرقند وقال بعضهم أنه ملك بلاد الروم^(٣). ومثل هذه الروايات تحتاج إلى إعادة نظر لأن تواريخ الأمم المعاصرة لا تروي ما يؤدي ذلك لأن مثل هذه الفتوح لو وضعت لا يعقل أن يهملها ملوك الترك وخراسان والعراق.

ومهما قيل في انتصارات شمريرعش فإنه من الثابت أنه وحد أرض العرب وحرر العراق من المحتلين وطردهم إلى ما خلف حدود الأرض العربية.

وروى ابن خلدون أن ملك سباً وريدان وحضرموت ويمنت أسعد كرب الذي وصل نفوذه إلى ملوك الهند الذين هادونوه. وأنه جاز الصين ووجد أخاه حساناً قد سبّه إليها وبعثه ابنه يغفر إلى القسطنطينية فتلقوه بالجزية والأتاوة وسار إلى روما وحاصرها ثم رجع إلى اليمن وقد ترك في الصين قوماً من حمير^(٤).

وروى الطبرى أن أسعد هذا كان قد قدم بجيشه الأنبار وأسكن من قومه الأنبار والجيرة ثم رجع إلى اليمن^(٥).

وبنذا يكون أسعد كرب قد قام بتوحيد أرض العرب وتكون دولة عربية موحدة قبل الإسلام.

(١) علي جواد ، المصدر السابق ، ٥٣٠/٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٢/٥٤٠-٥٤٢ . (٣) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ٥٢/٢ .

(٤) المصدر السابق ، ١/٦١٢ . (٥) المصدر السابق ، ٢/٥٣ .

وقال الأخبار يرون أن حساناً كان قد حكم بعد أبيه أسد أبو كرب وقام باكساء الكعبة وأطعم الناس وأدب اليهود في يشرب وعاقبهم بسبب شكاية من الأوس والخزرج . وأنه وجه ابنه حساناً إلى السندي وشعر إلى خراسان^(١) .

ومن ملوك هذه المرحلة ملكاً اسمه عبد كلال وكان مؤمناً بالنصرانية فأمن بالنبي قبل بعثته^(٢) . ومن ملوك حمير الملك ذو نواس وهو زرעה ذي نواس^(٣) وكان متحالماً جداً على النصارى والنصرانية حتى أنه أرسل ملك الحيرة لكي يؤثر عليه فيحمله على أن يفعل بنصاري مملكته ما يفعله هو بهم ولعله يريد بذلك أن يكون حلفاً سياسياً مع ملوك الحيرة ، ومن وراءهم الفرس لمقاومة الجيش الذين كانوا قد وطروا سواحل اليمن . وأقاموا لهم قواعد فيها لمقاومة معاهدات مع الأمراء المنافسين لملوك حمير .

ثم جرد أبرهة حملة للاستيلاء على مكة وفشلت الحملة ومات أبرهة وقد ذكر القرآن ذلك . ولم يرض الحميريون على سلطة الأحباش فقررروا الثورة ضدتهم وقادهم سيف بن ذي يزن في هذه الثورة وتمكنوا من طرد الأحباش ، وتحرير بلادهم من المحتلين الأجانب .

لقد تبلور موقف المقاومة العربية من الوجود الحبيسي في اليمن في شخصية سيف بن ذي يزن التي كثر الحديث عنها وذاع صيتها في القصص الشعبي ، إذ تقاطرت عليه وفود العرب من مختلف أنحاء الجزيرة العربية يهنتونه بنجاحه في طرد الأحباش . ومن ذلك ما قاله عبد المطلب بن هاشم : (وأنت أيها الملك رأس العرب الذي إليه تنقاد)^(٤) .

وبعد اغتيال سيف بن ذي يزن لم يتم على الحميريين ملك حتى ظهر الإسلام فدخل أهل اليمن في حوزة المسلمين .

٤- الدول العربية التجارية :

كان للنشاط التجاري في اليمن والحجاج أثر كبير في قيام دولات عربية على

(١) المصدر السابق ، ٦٣٢ / ١ . (٢) حمزة الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٨٧

(٣) الطبري ، المصدر السابق ، ١٠٣ / ٢ (المطبعة الحسينية) ابن قتيبة المعاشر ص ٣١١

(٤) الألوسي ، المصدر السابق ٢٦٦ / ٢ .

تخوم الشام والعراق قبل الإسلام إذ كانت بادية الشام وجنوب فلسطين مركزاً للهجرات المتابعة من جنوب الجزيرة العربية منذ أوائل التاريخ المسيحي مثل قبيلة تخوخ وقبيلة بني سليع وأل جفنة.

إلا أن استقرار القبائل العربية في بادية الشام قديماً جداً لأن البدوية والهلال الخصيب امتداد لأرض جزيرة العرب والهجرة بين هذه المواقع قديمة قدم ظهور هذه المواقع إلى الوجود ومن أقدم الموجات العربية التي استقرت في جنوب فلسطين هم الأنبياط الذين أنشأوا دولتهم.

١- دولة الأنبياط :

قبل العيلاد في المكان الذي عرف باسم العربية الحجرية *Arabia Petraea* عند اليونان والرومان^(١).

وهناك عوامل اقتصادية لعبت دورها الفعال في قيام دولة الأنبياط فقد تمكنا من استغلال الموقع التجاري لبلادهم المسيطر على شرايين التجارة بين العربية الجنوبية وبلاد الشام ففرضوا الضرائب على التجارة وقاموا بالوساطة في نقل التجارة من الشام ومصر ومواضع من جزيرة العرب فأصبحوا بذلك أغنياء بالنسبة لمن كانوا يسكنون البوادي.

وكان ميناء غزة ميناً الأنبياط المنفصل على البحر المتوسط فقد كانت ترفاً إليه تجارة العرب. وقد استفادوا منه كثيراً لقربه من الأنبياط، إذ صاروا يشترون ما يريد عليه من بضائع على البحر المتوسط ثم يحملونها إلى بلادهم فيبيعونها للتجار العرب القادمين إليها من الحجاز والعربية الجنوبية، ثم يشترون ما يحمله التجار العرب ثم يحملونها إلى ذلك الميناء ليبعها في أسواقه^(٢).

وكان أصل الأنبياط من جزيرة العرب، نزحوا من البوادي إلى أعلى الحجاز فأقاموا فيها، ثم استقروا وامتهنوا الزراعة، وأقاموا المستوطنات الزراعية واستقروا في القرى والمدن وامتهنوا التجارة والاشتغال بالقوافل التجارية. ويرى بعض

(١) علي جواد ، المصدر السابق ، ٦/٣ .

(٢) المصدر السابق ، ٦-٥ / ٣ .

الباحثين أن أصلهم من اليمن وإن عرقهم هذا هو الذي جعلهم يشتغلون بالزراعة والحرف والعمارة والتي كانت مألهفة عند العرب الجنوبيين^(١).

وتوسعت مملكة الأنباط إذ ضمت دمشق وسهل البقاع والأقسام الجنوبية الشرقية من فلسطين وحوران ومدين إلى ريدان (العلا) وسواحل البحر الأحمر. وقد سكنت جماعة منهم في الأقسام الشرقية من دلتا النيل^(٢).

والأنباط قوم يحبون الحرية ويقدسونها ويرفضون الخضوع للأجنبي وقد احتاطوا لهذا الأمر فحفروا آباراً مخفية وكهاريز أغلقت فتحاتها فلا يعلم أحد بها سواهم، يستعملونها متى شاءوا وبهذه الطريقة لم يتمكن الآشوريون أو الفرس أو المقدونيون من استعبادهم رغم الجيوش القوية التي أرسلوها لفتح بلادهم^(٣).

وكانت عاصمتهم تعرف بـ(البتراء) أي الصخرة. وتعرف البتراء في المصادر العربية باسم الرقيم^(٤). وفي العصر الإسلامي نزل الأمويون أطلالها ودمتهم يزيد بن عبد الملك وقد وصف الأصطخري بناء هذه المدينة فقال : (وأما رقيم فإنها مدينة بغرب البلقاء وهي صخرة منحوتة بيotta كلها وجدرانها من صخر كأنها حجر واحد)^(٥). وتعرف البتراء اليوم بـ(وادي موسى).

وحاول ايتمانوس حاكم سوريا اليوناني الاستيلاء على البتراء ففاجيء المدينة وذلك لكي يرغّبهم على التحالف معه لموالاتهم لبطليموس ، في منتصف الليل في غياب شبابها ، وتمكن من دخولها ونهب ما فيها ثم انسحب. لكن شباب المدينة تبعوه واستولوا على جيشه وأرسلوا إلى حاكم سوريا رسالة اعتذار فتظاهر بالرضا عنهم. وأعلن صداقته لهم في حين أنه كان في الباطن يعد العدة لغزو جديد ضد المدينة. فانتهى به الأمر أخيراً إلى الرحيل عنها بعد أن اقتنع بما تلقاه من هدايا الأنباط^(٦).

(١) المصدر السابق ، والجزء من ١٠ .

(٢) سالم ، السيد عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦

(٣) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ١٦/٣ وقد ورد ذكر الأنباط في الحوليات الآشورية.

(٤) الحموي ، المصدر السابق ، ٦/٣ .

(٥) المسالك والممالك (لابدن ، ١٢٢٧ م) ص ٦٤

(٦) سالم ، عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

ويبدو أن سبب رغبة السلوقيين في الاستيلاء على البتراء هو تفاقم التناقضات الاقتصادية بين السلوقيين والبطالمة، وهذا مما دفعهم إلى ضرب الأناباط^(١) لغرض الاستحواذ عليها لأنها تدر أموالاً طائلة لوقوعها على الطرق التجارية.

وتعرض الأناباط إلى منافسة البطالسة في مصر، فقد عملوا على احتكار التجارة البحرية والسيطرة على البحر الأحمر عن طريق إنشاء محطات وموانئ على سواحله، وأقاموا علاقات مع عرب الجنوب الذين يشتغلون بالتجارة في البحر الأحمر. ولذا فقد أدرك الأناباط مدى الخطر الذي يهددهم كما أدركوا الأضرار الفادحة التي يمكن أن تصيب مصالحهم التجارية بسبب ذلك^(٢). فاضطروا إلى التمرش بسفن البطالسة ومحاجمة السفن التي تتجه نحو مصر ويأخذوا ما فيها. فاضطر بطليموس الثاني ٢٨٥ - ٢٤٦ ق. م إلى إنشاء قوة بحرية لحماية السفن التجارية. وقد ألمحت هذه القرة خسائر فادحة بأسطول الأناباط^(٣). فتوقفوا عن ذلك حتى انشغل خسائر بطليموس بالحرب مع سلوقي سوريا فعادوا إلى مهاجمة سفن البطالسة الذهابة أو الآتية في مصر^(٤).

وفي سنة ٢١٨ ق. م. تحالف القبائل العربية في شرق الأردن مع أنطيوخوس الثالث ضد بطليموس الرابع. وعند انتصار أنطيوخوس على أعدائه تحررت تجارة الأناباط من البطالمة وعادت سيطرتهم على طريق النجور وذلك لأن التناقض الاقتصادي بين السلوقيين والأناباط من جهة وبين البطالمة من جهة أخرى وحد المصالح التجارية السلوقية والبطلية.^(٥)

وأول ملوك الأناباط هو الملك اريتاس الأول (الحارث الأول) ١٦٩ - ١٤٦ ق. م وعاصره ملك السلوقين انطيوخوس الرابع وبطليموس فيلوماتر ملك مصر^(٦).

(١) البكر ، المصدر السابق ، ص ٣٩٧ .

(٢) علي جواد ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢١-٢٠ . العلي ، صالح .

strop, op. cit ., vol. III . p. 204.

(٣)

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٥) البكر ، المصدر السابق ، ص ٣٩٨ .

(٦) علي جواد ، المصدر السابق ، ٢٢/٣ فما بعد .

وتولى ملك الأنباط الحارث الثاني فيما بين ١١٠ ق. م و ٩٦ ق. م وفي عهده طلب ملك يهودا من الأنباط مساعدته ضد أعدائه وهذا يدل على أن علاقتهم بالمكابيين (اليهود) كانت حسنة وإن الأنباط كانوا على درجة كبيرة من القوة^(١). وتبينت علاقة الصداقة بين المكابيين (اليهود) والأنباط إلى علاقة عداء، فقد اكتشف الأنباط أن سياسة المكابيين (اليهود) لم تكن مقتصرة على التحرر والاستقلال بل كانت تتطوّي على التوسيع والاستيلاء على مناطق خاصة للأنباط كالأردن والتغلب داخل مناطق الأنباط وإنشاء حكومة قوية تزاحم حكومة الأنباط فرأوا أن يتركوا هذه المساعدة للمكابيين (اليهود) وأن يقاوموا أن اجتاج الأمر إلى مقاومة^(٢).

وحاصر المكابيون (اليهود) غزة فسارع الحارث الثاني لمساعدتها سنة ٩٦ ق. م^(٣) تمكن عبادة الأول الأنبطي من طرد المكابيين (اليهود) في سنة ٩٠ ق. م وعاد المكابيون (اليهود) منهزمين إلى بيت المقدس واضطرب ملوكهم استندر جينوس المكابي أن يتنازل للأنباط عن بعض ممتلكات دولته للعرب ليضمن صداقتهم ورضاهما عنه^(٤).

ويعتبر الحارث الثالث من أشهر ملوك الأنباط وقد طلب منه أهل دمشق الانضمام إلى دولة الأنباط فكان لهم ما أرادوا. وضم إلى دولة الأنباط سهل البقاع بعد انتصاره على السلوقيين وغزا أرض يهود وانهار الجيش اليهودي أمامه، فطلب اليهود الصلح فأجابهم إلى طلبهم^(٥).

ثم دب الانشقاق في مملكة يهودا، وانقسم الناس شيئاً وأحزاناً قسم يؤيد أرسسطو بولس. وأخر يؤيد أخيه هرفانوس فاستنصر هرفانوس بالأنباط. فوافق

(١) سالم ، عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(٢) علي جواد ، المصدر السابق ، ٢٦/٣ .

(٣) حتى ، فيليب ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ٤١٩/١ .

(٤) علي جواد ، المصدر السابق ، ٢٧/٣ ، سالم ، عبد العزيز المصدر السابق ٢٣١ .

(٥) حتى فيليب ، المصدر السابق ، ٤١٩/١ .

الحارث على ذلك لغرض توسيع مملكته على حساب مملكة يهودا -وليستغل الانقسام في مملكة يهودا ليقضي عليها. فأرسل جيشاً حاصراً عاصمة اليهود وكانت يفتحها لكن الرومان تدخلوا وأرسلوا حملة لإرغام الحارث على رفع الحصار عن المدينة، وقد استجاب الحارث إلى ذلك رغبة في إقامة علاقات حسنة مع الرومان ولكن أسطو بولس اغتنم الفرصة وهاجم الحارث في موضع يعرف باسم بابرون وتمكن من احراز النصر عليه^(١). وزحف القائد الروماني اسكاوروس إلى البتار للاستيلاء عليها فأسكنه الأنباط بهدايهم.

وتمكن القائد الروماني بومبي من احتلال دمشق سنة ١٤ ق. م. ولكن مدة تبعيتها له قصيرة^(٢).

وتولى بعد الحارث ابنه عبادة الثاني (٦٢ - ٤٧ ق. م) وقد امتد نفوذ الرومان في أيامه فاستولوا على آسيا الصغرى وسورية ومصر واستولى على ما كان الحارث الاستيلاء عليه في الشام ونظرأً لقوه الرومان في الشرق اضطر الأنباط إلى مصانعتهم ومحالفتهم، فاشتركوا في عهد مالك الأول بفرقة من الفرسان في حملة بوليوس قيسار على الاسكندرية سنة ٤٧ ق. م^(٣).

وفي عهد مالك الأول تمكن الرومان، ويمثلهم انطونيوس الذي عهدوا إليه بشؤون الشرق، من اسقاط الأسرة المكانية (اليهودية) في بيت المقدس ووضعوا بدلها الأسرة الهايرودية نسبة إلى مؤسسها هيرودس بن انتيباتر الذي كان الحاكم الفعلي في يهودا^(٤)، وقد أصبح هيرودس أداة طبيعية بيد الرومان تحارب العرب الذين رفضوا دفع الجزية للرومان.

وأعطى انطونيوس قسماً من بلاد العرب ومن بينها مملكة الأنباط إلى صديقه كليوباترة ملكة مصر. فرفض مالك الأول ذلك فطلبت من أنطونيوس معاقبته. وعهد

Cambridge , Ancient History , vol. IX , p. 402 .

(١)

(٢) حتى فيليب ، المصدر السابق ، ٤٢٠ / ١

(٣) زيدان ، جرجي ، المصدر السابق ص ٨٨ ، حتى فيليب ، المصدر السابق ، ٤٢٠ / ١

(٤) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٣٥ / ٣ وتسمى أيضاً بالأسرة الحشمية.

بهذه المهمة إلى هيردوس اليهودي وقامت الحرب بين العرب واليهود وانتهت لصالح هيردوس وكانت قوة الرومان التي تديرها عقول إدارية ذكية وراء هذا الانتصار^(١).

ومن ملوك الأنباط عباده الثالث (٣٠ ق. م - ٩ ق. م) وفي عهده اشترك الأنباط في حملة الرومان على اليمن. وارغم صالح وزير عبادة إرشاد الجيش الروماني إلى الطريق التي يسلكها في بلاد العرب. ولكن صالحًا أعطى معلومات غير صحيحة لقائد الحملة، فقد سار بالجيش في مناطق وعراة جافة فمات عددًا كبيراً من الرومان. فانتهت الحملة بکوارث تعرض لها الجيش الروماني فأخفق الرومان في الاستيلاء على اليمن^(٢).

وكان عهد الحارث الرابع (٩ ق. م - ٤٠ م) عهد الذروة لدولة الأنباط لأن عهده عهد سلام ورخاء - ثم حدثت الحرب مع دولة يهودا انتصر فيها الحارث الرابع لكن الرومان أرادوا أن يكون الانتصار لليهود فشرعوا في الزحف على البتراء ولكن هذا لم يتم لوفاة الإمبراطور البيزنطي طيباريوس في سنة ٣٧ ق. م . ثم تحالف الأنباط مع الروم، فقد اشترك ملكهم مالك الثاني (٤٠ - ٧١ م) بفرقة من جيشه في الحملة التي سيرها الإمبراطور الروماني طيبوس سنة ٦٧ م إلى بيت المقدس^(٣).

وكان آخر ملوك الأنباط هو مالك الثالث (١٠١ - ١٠٦ م) وفي عهده قضى الإمبراطور الروماني تراجان على مملكة الأنباط - فقد أرسل سنة ١٠٦ م حملة بقيادة كورنيليوس باتا نائب تراجان في سوريا إلى البتراء وعلى يده سقطت مملكة الأنباط، ويرى كاسكل «أن الحروب التي دارت بين روما وفارس بسبب

(١) حتى فيليب ، المصدر السابق ، ٣٠٠ / ١ ، علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٣٧ / ٣ .

(٢) حتى فيليب ، المصدر السابق ، ٤٢٠ / ١ .

(٣) حتى فيليب ، المصدر السابق ، ٤٢٣ / ١ .

مصلحةهما في تأمين التجارة أدى إلى انهيار البتراء عاصمة الأنباط وتدمير^(١) ومع ذلك فقد ظلت البتراء في العصر الروماني مركزاً اقتصادياً هاماً. ثم انتشرت النصرانية فيها وأصبحت مركزاً اسقفيّاً. وظلت ما هوله بالسكان حتى بداية العصر الإسلامي وللأنباط مدن مهمة أشهرها البتراء (بطرا) وهي عاصمتهم القديمة وتقع على بعد خمسين ميلاً جنوب البحر الميت. وذكرها الحموي باسم سلع فقال:

(وسلع أيضاً حصن بوادي موسى . . بغرب بيت المقدس)^(٢)، ومن آثارها المهمة الأثر المعروف باسم خزانة فرعون^(٣). وقوس النصر وقبور وهياكل عدّة بعضها على الطراز النبطي القديم وببعضها متأثر بالفن الآشوري والمصري^(٤). وقد وصف سترايوس المدينة فقال (وهي موضع غني بالماء كثير البساتين بالنسبة إلى من يأتي إليها من البوادي الفاحلة الجرداء)^(٥) وقد سكنها أجانب من بينهم الروم والفرس.^(٦)

وتعد الجمر من مدن الأنباط المهمة ويقع على خط التجارة العالمي القديم. وكانت من مواضع الأنباط المهمة. وذكر علماء اللغة أن الحجر هي ديار ثمود ناحية الشام عند وادي القرى وهم قوم صالح النبي وقد ذكر الموضوع في القرآن الكريم «وَلَئِنْ كَذَّبَ أَهْنَثُ لَمَغِيرَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾» [الحجر: ٨٠] وقللت أهميتها في تركها أهلها. وقد عثر المنقبون فيها على آثار حصن قديم وببعض بقايا أبراج وأثار سور كما عثر على بقايا تيجان أعمدة قديمة، وعلى نقوش يرجع عهدها إلى العصر الرابع. وقد بنيت أساس دورها بالحجارة وحيطانها باللبن^(٧).

وهناك مدن دخلت في حوزة الأنباط، ومنها بصرى وأدرع وعمان وجرش

(١) الدور السياسي للبدو في التاريخ العربي، ترجمة د. منذر البكر، مكتوب على الآلة الكاتبة.

(٢) المصدر السابق ١٠٦/٥.

(٣) علي جواد ، المصدر السابق ، ٥٤/٣ .

(٤) فامونس ، الكتاب المقدس ، ٥٢٩/١ .

(٥) علي جواد ، المصدر السابق ، ٥٤/٣ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) علي جواد ، المصدر السابق ، ٥٦/٣ .

والكرك والشوبك وأبلة والعلا وحبران وصلحد ومأدبا وامتان والوادي المكتب في سناء^(١).

وللأنباط نقوش خاصة بهم ومن أمثلة نقوذهم : نقد الحارث الثالث الذي نقش على وجهه صورة رأس متوجهاً نحو البعين ، وعلى الوجه الآخر ، صورة امرأة ترمز إلى النصر . وهناك نقد لعبادة الثاني وقد نقش على وجهه الأيسر رأس وعلى وجهه الأيمن صورة نسر أمامه نقش بال Brittanic معناه (الملك عبادة) ووراء ، (ملك الأنباط) وعلى الرأس السنة الثانية . وهناك نقش أيضاً لمالك الأول وقد نقش على أحد وجهيه رأسان وعلى الآخر نسر وعليه كتابة معناها (الملك مالك ملك الأنباط)^(٢) .

أما لغة الأنباط فكانوا يتفاهمون بالعربية ولا عبرة بما وجد منقوشاً على آثارهم باللغة الآرامية فإنها لغة الكتابة في ذلك الزمن . فقد أصبح من حكم الثابت أن المخاطبات السياسية الرسمية واللغة التجارية التي كانت تتميز بها الأمم الحية في القرون الأولى قبل الميلاد في بابل وأشور وفارس ومصر وفلسطين هي اللغة الآرامية وفي جملة ذلك (بطراء)^(٣) هي آرامية وأما لغة الكلام فكانت عربية ، والاثنان مرتبنان بأمهما القديمة لغة بدو الآراميين^(٤) .

- تدمر :

تقع آثار تدمر بالقرب من حمص ، وعلى مسافة تبعد نحو ١٥٠ كم إلى الشمال الشرقي من دمشق ، وعلى منتصف الطريق بين دمشق والفرات^(٥) وشكل المدينة منبسط ، تحيط بها جبال تفصلها عن الbadia وهي عبارة عن طرف بادية الشام من الشمال فكل ما وراءها نحو الجنوب رمال قاحلة لاماء فيها ولا نبات . وكأن تلك الbadia مثلت رأسه تدمر في الشمال وساقاه حدود العراق في الشرق ومشارف الشام

(١) المصدر السابق والجزء من ٦٠-٥٩ .

(٢) زيدان ، جرجي ، المصدر السابق ، من ١٠٤-١٠٣ .

(٣) المصدر السابق ، من ١٠٦-١٠٧ ، الأحمد - سامي سعيد المصدر السابق ، من ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، من ١٠٨ .

في الغرب وقاعدته شمال جزيرة العرب. والبادية المشار، إليها أقرب الطرق بين الشام والعراق، لكن جفافها ووعورة مسالكها جعلت المرور فيها شاقاً فأصبحت القوافل المسافرة من الحيرة مثلاً إلى دمشق تجعل طريقها شمالاً غربياً على حدود الفرات، حتى تأتي تدمر فستريح هناك وتزود، ثم تنعطف جنوباً إلى دمشق. ذلك كان شأن القوافل التجارية أو الحملات العسكرية إذ لا بد للمسافر من الشام أو فلسطين إلى العراق أو فارس أو خليج العرب من المرور بتدمير فأصبحت بسبب ذلك عظيمة الأهمية مسكنها الناس قديماً.

ولا يعرف اسم بانيها. فقيل أن سليمان بناها على المنطقة البعيدة عن حدود بني إسرائيل^(١). ومن الأخباريين من ينسب بناءها إلى تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع بن يزيد بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح^(٢).

وكان أهل تدمر خليطاً من تجار ومزارعين. وسكن الأعراب والرعاة على أطرافها وحولها. وكانت فيها جاليات يونانية ورومانية، أقامت بين أهل المدينة حتى صارت من سكانها^(٣). وكانت تدمر مدينة تجارية. وصار لتجارها وأرباب القوافل والزعماء القوافل فيها شأن خطير في الحياة الاجتماعية فيها.

ونظراً لغنى تدمر فقد طمع فيها الآشوريون والفرس واليونان والرومان والبيزنطيون. ولذا فقد سيطر تجلاً بلاسر الآشوري عليها ثم أخضعتها الإسكندر له. وعند موت الإسكندر صارت ضمن دائرة النفوذ السلوقي. ثم خضعت للروم سنة ٤١ ق. م^(٤) وهذا لا يعني أنها خضعت للروم خضوعاً تماماً وأن السيطرة عليها كانت بيد الروم، لأن سيطرة روما كانت عامة، أما الإدارة فقد كانت بيد أهلها^(٥). ولم يتدخل الرومان في حكمها تدخلاً مباشراً وفعلياً. وقد سمحوا لها بابقاء حامية

(١) زيدان ، جرجي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٢) الحموي ، المصدر السابق ٣٦٩ / ٢ .

(٣) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٨٣ / ٣ .

(٤)

Ency Britanica , vol. 17. p. 162

(٥)

عسكرية خاصة بها في الخارج^(١).

وزارها الامبراطور الروماني هدريانوس (١١٧ - ١٣٨ م) سنة ١٣٠ م . وقد عثر فيها على كتابة مدونة بالأramaية واليونانية يرجع تاريخها إلى سنة ١٣٧ م جاءت فيها أمور تخص التجارة والضرائب وكيفية الجباية^(٢). وقد اعنى هدريانوس بالمدينة وطرقها التجارية البرية التي تصلها بنهر الفرات الذي كان شرياناً مهماً من شرائين التجارة العالمية آنذاك.

وقد منحت تدمر درجة ولادة رومانية فاكتسبت بذلك حق الاعفاء من الخراج وحق الامتلاك والحرية التامة في إدارة شؤونها^(٣). وبذلك وسعت تجارتها وزادت في عدد قواقلها وحصلت على ثروة طائلة.

للمدينة مجلس شيخوخ له سلطة القانون والتشریع وله رئيس وكاتب وجملة أعضاء. ويشرف على السلطة الإجرائية شيخان وديوان يتألف من عشرة حكام. وينظر في السلطة القضائية بعض الوكلاء وغيرهم من العمال^(٤).

وكون الرومان فرقاً من الجنود التدمريين الذين التحقوا بالجيش الروماني فاستفادوا منهم في قتال القبائل الغازية خاصة. كما ساعدتهم هؤلاء في قتال الفرس. وقد اشتهر التدمريون في فن الرماية. فقد كانوا ذوي خبرة في رمي السهام والرماح^(٥). واشتهر التدمريون بفرسانهم، فقد ألف أذينة قوة من القوات الراكبة لمحاربة الأعداء، جهزها بأسلحة راقية من دروع وصفائح من المعدن يرتديها الفارس ليغطي معظم جسمه من أعلى رأسه إلى أسفل قدمه. ودرعت الجمال والخيول بصفائح واقية أيضاً^(٦).

(١) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٨٦/٣ - ٨٧.

(٢) مجلة الشرق ، السنة الأولى ١٢ (بيروت ، ١٨٩٨) ص ٥٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، والمجلد والسنة ص ٥٨٩ .

(٤) المصدر السابق والمجلد والسنة ص ٥٤٨ .

(٥)

Ency Britannica , vol. 17. p. 163 .

(٦) علي ، جواد ، المصدر نفسه ، ٨٣/٣ .

وتولت رئاسة تدمر مجموعة أسر منها أسرة أذينة، تلك الأسرة القديمة المعروفة. وقد تمكنت هذه الأسرة بفضل مساعدتها للروماني من الحصول على استقلالها. ولم يتعرض الرومان لحكم أفراد هذه المدينة طالما كانت حكمها لا تعارض أحکام روما ولا تصطدم بها^(١).

ومع ذلك فقد سعى أذينة إلى التخلص من آية تبعية للروم، ولما اكتشف الروم عزمه قتلوه في أواسط القرن الثالث للميلاد وفرقوا رجاله وخلفه ولديه : خيران وأذينة وهو الأصغر ولكنه كان أشد نقاً على الروم فقسم على الانتقام لأبيه، فهجر المدينة وسكن الجبال حتى أصبح شديد العضل قوي العزيمة. واجتذب قلوب البدو المخيمين حول تدمر وأطاعهم على سره فعاهدوه على المناصرة والتأييد. ثم عاد إلى تدمر وهو يخفى غرضه.

واستغل أذينة الحرب الفارسية البيزنطية في حدود ٢٥٨ م. وتمكن من أن يصبح سيد المشرق إذ امتدت سلطته على سوريا وما يليها. وحرر الجزيرة العربية من الفرس وفتح نصبي وحران^(٢). ولقب نفسه ملك الملوك. ووصل نفوذه إلى آسيا الرومانية. وفي سنة ٢٦٤ م صار حاكماً عاماً على سوريا ودخل صراعاً ضد الفرس لطردهم عن بلاده. وكانت امرأته زنوجية توب عنه عندما يخرج لصد الأعداء^(٣).

وقتل أذينة في حمص فخلفه ابنه وهب اللات وكان صغيراً فتولت أمه الوصاية عليه^(٤). وقامت بتربيتها وتاديبيه بأدب الملوك حتى بلغ سن الرشد فعلمته اللاتينية والفارسية. وسعت لبسن نفوذها على أماكن واسعة لم تكن خاضعة لتدمير لذلك كان لابد من حدوث احتكاك وتصادم بينها وبين الرومان وقد أظهرت مقدرة في إدارة شؤون الملك فخافها الرومان ولذا فقد عزم غاليانوس بتحريض من شيخ روما على القضاء عليها قبل استفحال أمرها.

فأرسل جيشاً إلى الشرق تظاهر أنه يريد من إرساله محاربة الفرس غير أنه كان

(١) المصدر السابق ، ٩٠/٣ .

(٢) المصدر السابق ، ٩٥/٣ .

(٣) زيدان ، جرجي ، المصدر السابق ، ص ١١٤-١١٥ .

(٤) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ٤٨ .

يريد في الواقع مهاجمة تدمر وإخضاع المملكة لكن الزياء عرفت نوايا الجيش فاستعدت لمقابله والتحمت معه بمعركة حامية ثم انتصرت عليه انتصاراً باهراً وولي الجيش الروماني هارباً وترك قائدته قتيلاً^(١).

وحذرت الزياء من الفرس أيضاً فقوت حدود مملكتها إذا أنشأت حصنًا سمي حصن زنوبيا على نهر الفرات^(٢).

ثم وجهت قتل الزياء أنظارها إلى مصر فوضعت الخطط للاستيلاء عليها واستغلت قتل القيصر غاليانوس سنة ٢٦٨ م فوجدت الجو صالحًا للتدخل إذ كان الألمان قد هاجموا حدود الإمبراطورية الرومانية في مطلع هذا العام. وكان القوط قد أربكوا الدولة وكان أثر الخسارة التي ألحقتها بالجيش الروماني ومقتل قائد هرقليانوس بالغاً في نفوس الرومان ينجلب ذلك في مطالبة مجلس الشيوخ في أثناء مبايعة القيصر الجديد أغاثنا من التدمريين^(٣). وما شجع الزياء هو أن قائد المصريين الوطنيين كان مبغضاً للرومان وكان قد كتب إلى الزياء يحضها على تحرير مصر من حكم روما وتولي الحكم فيها. وكذلك عمل أثرياء مصر فجاء جيشها إلى مصر^(٤) وفتحوها وقد ساعد عرب مصر جيش الزياء مساعدة كبيرة ولا سيما فيما جرى من قتال حول حصن بابلون.

ثم توصلت إلى اتفاق مع الرومان يقضي بموافقتهم بوجود جيش تدمرى في مصر مع اعتراف زنوبيا بسيادة الرومان على وادي النيل.

وتقررت الزياء إلى القبائل العربية ونجحت في تحشيدهم إلى جانبها ضد الأجانب من فرس وروم. وقد عملت على تكوين دولة عربية قوية موحدة تحت زعامتها ولكن الرومان كانوا أسرع منها فقضوا عليها قبل أن تتحقق فاستولوا على تدمر وأزالوا مملكة الشرق^(٥).

(١) المشرق السنة الأولى م ١٨ ، ص ٨٢٤

(٢) علي جواد ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٣) المشرق السنة الأولى م ١٨ ص ٨٢٥

(٤) المشرق ، المصدر السابق والمجلد والسنة ص ٨٢٦ .

(٥) علي جواد ، المصدر السابق ، ١١٣/٣ .

وعامل الرومان تدمر معاملة حسنة مستهدفين بذلك أن يجعلوها مركزاً أمامياً لمجابهة خطر الغزو الفارسي ، فاكتفوا بأن أبقوا فيها حاكماً رومانياً وحامية صغيرة وفرضوا عليها غرامات ، ولكن سرعان ما ثارت تدمر ضد الرومان فاضطر الامبراطور الروماني أورليان إلى أن يعود ثانية لفتحها ونهبها وأخذ زنوية أسيرة إلى روما حيث قضت بقية حياتها بالقرب منها^(١).

ثم انحطت تدمر بسبب الحروب الكثيرة وسيطرة الفرس على طرق التجارة الهندية وللذا فقد أصبحت مدينة مغمورة في التاريخ حتى التحرير العربي حيث مر بها خالد بن الوليد فدانت للعرب المسلمين بالطاعة.

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تدمر :

كانت تجارة العالم القديم بين الشرق والغرب تسلك طريقين ، الأول البحر الأحمر - مصر - الاسكندرية . والثاني الخليج العربي - بادية الشام - مصر - الاسكندرية . فهي كانت قبل الميلاد وبعيدة تسير بطريق بطراء ، فلما سقطت في أوائل القرن الثاني للميلاد تحولت إلى تدمر .

ونظراً لوقع تدمر على خطوط التجارة العالمية القديمة . فقد اشتغل أهلها بالتجارة . فكان التدمريون يحملون من جزيرة العرب الذهب والجزع واللبان والصمن والصبر واللبان وعود الند ويجلبون من العراق لآلية البحرين ويحملون من وادي السند أنواع المنسوجات . ويجلبون من أقصاصي الهند القرنفل والبهار والحرير الصيني . وكانت هذه الأصناف تأتيهم عن طريق البر .

أما تجارتهم التي تأتيهم عن طريق البحر فهي دون ذلك وكانت ينقلون هذه الحالصلات والمصنوعات إلى مصر والشام والعراق ورومة وبرونة^(٢) .

وكانت البضائع التجارية بين تدمر والشام تحمل على مركبات تسير في طرق مرصوفة . ولها محطات للراحة وقلاع فضلاً عن القواقل . وأما من جهة الفرات فلم يكن فيها شيء من ذلك . وللتدمريين فائدة مضاعفة من تلك التجارة لأنهم كانوا

(١) العلي ، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٢) زيدان ، جرجي ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ ، المشرق السنة الأولى من ٤٩٥ .

يكتسبون المرابحة بالبيع والشراء ويتقاضون على ما يمر بهم من ضريبة معينة^(١). كان دين التدمريين لا يختلف عن الأديان الشائعة في سوريا الشمالية وعند قبائل العرب في البايدية. فقد عبدوا مجموعة من الأصنام. ومن الأصنام التي ورد ذكرها في الكتابات التدمرية أصناماً بعضها معروفاً عند العرب وبعضها الآخر آرامي. وأعظم الهة تدمر هو الاله شمس والاله بعل وألت أي اللات واشترا أي عشتار. وبعل شمين أي بعل السماء.

وتعد آثار معبد بعل من أروع ما تختلف من بنايات تدمر فهو بحالة تدعو إلى الإعجاب. وقد شرع في بنائه في القرن الأول للميلاد ثم أجريت عليه تجديدات خلال القرنين الأول والثاني.

وكان قد أقيم على نسق المعابد الشرقية فهو يشمل على هيكل رئيس شامخ يتوسط بناء مربع الشكل طول كل ضلع فيه مائة متر ويحيط بالفناء المربع سور تحف به أروقة رائعة تطل عليه بواسطة صفين من الأعمدة ذات تيجان.^(٢) ومن آثار تدمر حمامات ودور خاصة مبلطة بالفسيفساء والرخام وأعمدة تذكارية وأثار قصر قصر آل الزياد وهو بناء ضخم تقدمه صنية وبعد آية من آيات النحت^(٣).

وعشر المنقبون في تدمر على آثار قنوات كانت محفورة في باطن الأرض وبقايا أحواض وخزانات في ظاهر المدينة.^(٤) وعلى بيوت أبدية التي أجاد أهل المدينة كل الإجاده باطلاقهم (بيت الأبدية على القبر) وقد ضمنت هذه المقابر رفات الآباء والأبناء إلى الأبد ببعضها على هيئة أبراج ذات غرف تودع فيها الموتى وبعض على هيئة بيوت ذات غرفة واحدة مزينة بالنقوش وأنواع الزخرفة كتبت عليها أسماء ساكنيها ورسمت صورهم عليها^(٥).

(١) زيدان ، جرجي ، المصدر نفسه ص ١٩١ .

(٢) البني ، عدنان ، حول المشروع التدمرى الاستنائى ، مجلة العوليات الأنثربولوجية السورية ، العدد ١٣ ، عام ١٩٦٣ م ص ١١٧-١١٨ .

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٤) سالم ، السيد عبد العزيز ، المصدر نفسه ، ٢٦٨/١ .

(٥) علي ، جواد ، المصدر نفسه ١٣٠/٣ .

ومن دراسة آثار التدميرين يظهر أنهم كانوا طبقتين مثل سائر سكان المدن في تلك العصور، طبقة الخاصة وطبقة العامة.

وكانت خاصتهم عبارة عن بيوت قليلة، هم أصحاب الثروة والثروة، يقيمون في القصور الضخمة وحولهم جمهور الأمة من الفقراء والعمال الذين يعيشون في أكواخ صغيرة.

ولدوله تدمر نقود عليها كتابة وصور، وقد عثر على نماذج منها نقد زنوجيا على أحدها بهيئة صورة، رأسها وكتفيها حول الصورة اسمها بالأحراف اليونانية، وعلى الوجه الآخر صورة أخرى. والنقد الآخر عليه صورة رأس وهب اللات واسمه ولقبه^(١).

٣- دول الأطراف

ملكة المناذرة في الحيرة

هاجرت القبائل العربية من جزيرة العرب إلى العراق والجزيرة الفراتية في عصور تاريخية مختلفة، قبل الميلاد وبعده. وكانت هذه القبائل تهاجر في الأوقات التي تضعف فيها الحكومات في العراق. وعلى هذا النحو أصبحت المنطقة المجاورة للفرات الجنوبي هدفاً لهجرة عربية في فترة الانتقال من سقوط الدولة الباريثية (٢٧٧ م) وقى الدولة السasanية ويتسبّب الأخباريون أحد هذه الهجرات إلى قبائل تنوخ وهي من القبائل العربية الجنوبية التي رحلت من اليمن ونزلت في باديء الأمر في البحرين واستقرت هناك وتنوخ ثم أخذت تتطلع إلى الاستقرار في مشارق العراق. وانتهت فرصة الحرب الأهلية في بلاد فارس في أواخر عصر الدولة الباريثية فهاجرت إلى منطقة الحيرة والأبار^(٢).

والحيرة مدينة قديمة لا يعرف تاريخ إنشائها. وأقدم كتابة تتضمن اسم الحيرة

(١) زيدان ، جرجي ، المصدر السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) سالم السيد عبد العزيز ، المصدر والجزء نفسه ، ص ٣٠٣ .

(حيرتا) نص يرجع إلى سنة ١٣٢ م ويستدل من هذا النص أن الحيرة أنشأت قبل العصر الساساني^(١) ويرجع بعض الاخبارين أنها من بناء تبع الأكبر^(٢).

وعلى رأي ديسو فإن الحيرة في أصلها كانت مستقرة على مقربة من نهر الفرات ويسمى حيرته، وقد حل محل قلعة (حطرة) التي بناها العرب وقد أصبح هذا المعسكر بعد قليل مدينة هامة هي الحيرة^(٣).

ويرى معظم المؤرخين العرب بأن أول ملك من تنوخ الذين استقروا في ما بين الأنبار والحيرة هو مالك بن فهم^(٤).

ويقسم الاخباريون أهل الحيرة إلى ثلاثة طبقات : تنوخ والعباد والأحلاف. وهؤلاء من قبائل متعددة منها من عدنان ومنها من قحطان أما تنوخ فهم قبائل سكنوا ببيوت الشعر والوير غربي الفرات بين الحيرة والأنبار. وأما العباد فهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتزوا بها فهم حضر مستقرون.^(٥) ويرى الباحثون أنهم كانوا على النصرانية. وأنهم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية والسبة اليهم عبادي^(٦). وأما الأحلاف فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها ولم يكونوا في الأصل لامن تنوخ ولا من العباد^(٧).

وكان بين أهل الحيرة جماعة من النبط^(٨) ، كما كانت بينهم جماعات من الفرس واليهود ، والنبط هم بقايا قدماء العراقيين وكان بعضهم يتكلّم العربية ببرطانة

(١) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ١٥٧/٣ .

(٢) الحموي ، المصدر السابق ، ٣٢٩/٢ .

(٣) العرب في سوريا قبل الإسلام (القاهرة ١٩٥٩) ص ٤٢ .

(٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ١٦٩/١ ، والطبرى ، ٧٥٠/١ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١١٧ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ٥٤٠/٢ .

(٥) حمزه الأصفهاني ، المصدر نفسه ص ٦٦ .

(٦) علي ، جاسم صكبان ، تصارى العراق في العصر الأموي ، أطروحة ماجستير مكتوبة بالألة الكاتبة (بغداد ١٩٧٤) .

(٧) حمزه الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٨) أبو الفرج الأصفهاني الأغاني ، ٦١/٨ .

ظاهرة فتأثر عرب الحيرة بهذه الرطانة^(١).

وكان للوثنيين من أهل الحيرة أصنام منها : اللات والعزى وسيد ونمرق^(٢). وانتشرت النصرانية في الحيرة في القرن الأول للميلاد. وعند انشقاق النصرانية تفشت النسطورية. وقد شجع الفرس هذا المذهب نكاشة بالروم. وكانت هناك جماعات تعرف باليعاقبة إلى اليمن وكان بعضهم على مذاهب أخرى. ومن الحيرة انتشرت النصرانية إلى اليمن والخليج العربي.

وخضعت ملوك الحيرة أراضي واسعة كانت تسع وتقلص سعتها بحسب قدرة ملك الحيرة ومكانته. فقد وصلوا في فترات قوتهم حدود نجران^(٣).

وقد عرف ملوك الحيرة بآل نصر، وبآل لخم، وبآل النعمان، وبآل المحرق، وبآل عدي.

روى حمزة الأصفهاني أن مالك بن فهم تملك تنوخ في زمان ملوك الطوائف، وحكم بعده عمر بن فهم على رواية وعلى رواية أخرى أن جذيمة الابرش هو الذي حكم بعده. وقد اهتم الأخباريون بجذيمة الابرش فقد تحدثوا عنه كثيراً ونسبوا إليه الغزوات وجعلوه من أفضل ملوك العرب رأياً وأظهروا حزماً وأول من استجمع له الملك بأرض العراق وضم إليه العرب وغزا بالجيوش^(٤). وروى المسعودي أنه أول من ملك الحيرة^(٥).

ومن جملة ما رواه عنه اتخذ صنماني يقال لهما الضيزنان وضعهما بالحيرة في مكان معروف وكان يستسقي ويستنصر بهما^(٦). ونسبوا إليه أنه أول من عمل المنجنيق وأول من حذيت له النعال وأول من رفع له بالشمع^(٧). وكان ملكه يمتد

(١) علي جواد ن المصدر السابق ، ١٧١/٣ - ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ١٧٢/٣ .

(٣) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ١٧٢/٣ .

(٤) الطبرى ، المصدر السابق ، ٩٢/٢ .

(٥) مروج الذهب ، ١٦/٢ .

(٦) الطبرى ، المصدر السابق ، ٢٩/٢ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١/١٦٩ .

(٧) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٨١ .

من ما بين الحيرة والأبار وحيت وناصيتها وعين التمر وأطراف البر وإلى القحطانة وما ولاها^(١). ويفهم من بعض الروايات أن حكمه امتد إلى اليمن^(٢). وقرقيسا^(٣).

وبعد موت جذيمة الأبرش انتقل الحكم إلى ابن أخيه عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مسعود بن مالك بن فها من تمارة بن لخم^(٤). ويعتبر عمرو هذا مؤسس إمارة اللخميين في الحيرة وهو أول من اتخذ الحيرة متولاً من ملوك العرب. وكان منفرداً بحكمه مستبداً برأيه وقد هابته الملوك وعظمته. وقد عاصره أردشير بن بايلك مؤسس دولة الساسانيين. وكان أردشير قد امتنع من استمرار نزوح العرب إلى العراق واستيطانهم في الحيرة فأخذ يضيق عليهم وحملهم كرهاً على قبول ما لا يريدونه فخرج قسم منهم ولحقوا بالشام^(٥).

وخلف عمرو بن عدي ابنه امرئ القيس. ومن بعد امرئ القيس خلفه ابنه عمرو. ثم انتقل الحكم إلى أوس بن غلام وهو من أسرة غير لخمية. ثم رجع الملك إلى بني لخم. وتولى الحكم امرئ القيس البدء الثاني بن عمرو بن امرئ القيس. وقد لقب امرئ القيس بن عمرو نفسه «ملك جميع العرب» وهي تدل على مظهر من مظاهر السلطان العربي، وقد كلل رأسه بالناتج عام ٣٢٨ م وكان يسمى «ذا الناتج» وإن هذا المصطلح شخص تقريباً لمملوك الحيرة، ولم يضع الفساستة الناتج على رؤوسهم إلا عام ٥٨٠ م وكان سلطان امرئ القيس يمتد على جميع عرب الحيرة، وأمتد على القبائل «المقيمة على تخوم الشام»، ويبدو أنه حارب شمر يرعش صاحب نجران في جنوب الجزيرة العربية وقد اعترف الرومان بسلطانه في النمارة ذلك الإقليم الروماني^(٦). ثم بعده ابنه النعمان الأول (٣٩٠ - ٤١٨ م) الذي بني

(١) الطبرى ، المصدر السابق ، ٢٩/٢ .

(٢) حمزه الأصفهانى ، المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٣) الحموي ، معجم البلدان ، ٣/٣٨٧ .

(٤) الطبرى ، المصدر السابق ، ٣٠/٣ .

(٥) الطبرى ، المصدر السابق ، ١/٨٢١-٨٢٢ القسم الثاني (طبعة لابدن). حمزه الأصفهانى ، المصدر السابق ، ص ٦٥-٦٦ ، الحموي ، معجم البلدان ، ٢/٣٣٠-٣٣١ .

(٦) المصدر السابق ص ٣٤-٣٦ .

الخورنق والسدير وكان يسمى بالنعمان السائع لأنَّه زهد في الدنيا في آخر عمره. فكان قد حظي بشهرة كبيرة بين ملوك الحيرة وبيدو أنه كان جديراً بهذه الشهرة، فقد وصفه الأخباريون بأنه كان صارماً حازماً ضابطاً لملكه وأنَّه اجتمع له من الأموال والأبناء والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة. وروى حمزة الأصفهاني أنه غزا الشام مراراً كثيرة وكانت عنده كتيبة عسكرية تسمى دوسن وهي لتوخ^(١) وكانت من القوة بحيث ضرب العرب بها المثل فقالوا (بطش من دوسن)^(٢).

وكان جيشه يتكون من خمسة كتائب :^(٣)

١- كتيبة فارسية لخدمته.

٢- كتيبة عربية لتوخ (دوسن).

٣- الرهائن : وكانوا خمسة رهينة لقبائل العرب المختلفة يقيمون على بابه سنة ثم يحل محلهم آخرون في فصل الرياح.

٤- الصنائع : وهم بنو تم اللات وبنو قيس كانوا من خاصته لا ييرحون بابه.

٥- الوضائع : وكانوا ألف رجل من الفرس نجدة لملوك العرب وهم يرابطون سنة ثم يأتي ألف بدلهم.

وقد اهتم النعمان بالبناء والمعمران إذ ينسب إليه الأخباريون بناء قصرى الخورنق والسدير^(٤). وكان متسامحاً مع رعاياه النصارى فقد تمعتوا بحرية دينية تامة^(٥).

ثم آلى ملك الحيرة إلى المندر بن النعمان بن هند بن زيد مناة بن زيد بن عمرو الفساني^(٦). وكان جيشه قوياً للدرجة أنه أثار الرعب في جيش البيزنطيين على ضفاف

(١) المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٢) الميداني ، مجمع الأمثال ، ط ١ ، (القاهرة ١٣٥٢) ص ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق ١٢٥/١ .

(٤) حمزة الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٥) Nicholson , *A literary History of the Arabs* (Cambridge) , 1953 (p. 41) .

(٦) حمزة الأصفهاني ، المصدر السابق ص ٦٩ ، الطبرى المصدر السابق ١/٨٢٢ .

الفرات عندما وقعت الحرب بين الروم والفرس. وأتاحت معاهدة الصلح المعقوفة بين الفرس والروم سنة ٤٢٢ م إصلاح ما سببه هذه الحرب من أضرار مختلفة. ثم تتابع على حكم الحيرة عدة ملوك من اللخميين فهم المنذر بن امرىء القيس المعروف بابن ماء السماء (٥١٥ - ٥٥٤ م) الذي تمكن في عهده الحارث بن عمرو بن حجر الكندي من اغتصاب ملك الحيرة فيما بين (٥٢٤ - ٥٢٨ م) بمساعدة الفرس. وذلك لأن المنذر كان ذو شخصية قوية أوقع الرعب في أرض الروم وأكره القيصر على إرسال وفداً لفك أسر قاثدين من قواه سقطاً أسيرين في يديه ولاقناعه بالانضمام إليه إن أمكن أو تأمين جانبه على الأقل.^(١) أما ملك فارس قباد فقد لاقى في ملكه مصائب جمة، فقد طرد من الملك وسجن وأريد أهلاكه.

لكنه هرب من سجنه وبعد جهد رجع إلى ملكه ثم حارب الروم وحاربته، ورجل مثل هذا لا بد أن يكون فلقاً يخشى منافسة الرجال الأقوياء وليس بمستبعد أن يكون حسب حساباً لتوسيع نفوذ المنذر والاحتمال اتصال الروم به لاقناعه بالانضمام إليه، فلما ظهر الحارث الكندي في العراق طاماً في ملك المنذر تركه وشأنه فتغلب الحارث عليه^(٢).

ويورد جوستاف ردتشتاين احتمالين يفسر بهما العوامل التي ساعدت الكنديين في السيطرة على الحيرة، وهي :

من خلال ميل قباد إلى المزدكية قامت في إيران اضطرابات أثرت حتى على العراق، مكنت الحارث من دخول العراق أو أنها سهلت دخوله .. والاحتمال الثاني انتصار كندة في سنة ٤٩٨ م و ٥٠٢ م على الروم. وعقد الروم معاهدة سلام مع الكنديين لعدم اطمئنان الروم للفرس. وإن استمرار ميل الحارث الحربية جعل الفرس يميلون إليه ويسترضونه أن يكون رئيساً للعرب^(٣).

(١) غنيمة، يوسف ، الحيرة (بغداد ١٩٣٦) ص ١٦٨ .

(٢) علي ، جواد المصدر السابق ٣ / ٢٢٠-٢٢٨ .

(٣) مجلة كلية التربية ، العدد الثامن ، السنة الرابعة (بصرة ١٩٩٨) ، ص ١٧٥ ، ترجمة الدكتور منذر البكر .
الفصل السابع من كتابة مملكة الحيرة ، ترجمة الدكتور منذر البكر .

ولقي المنذر خدمة في حربه مع الحارث الجفني الفساني بسبب تنازعهما على الضرائب التي كانت تجبي من عرب تدمر سنة ٥٥٤ م. وخلفه ابنه عمرو بن المنذر (٥٧٤ - ٥٥٤ م) ويسمى عمرو بن هند وقد أمضى حياته يحارب الروم والقبائل العربية المتمردة عليه. فقد غزا قبائل تميم وأغار على الشام سنة ٥٦٣ م وكان عليها الحارث بن جبلة الفساني، وعهد إليه أخيه قابوس بغزو ديار الغساسنة في سنة ٥٦٦ م وتأديب الروم الذين أساؤوا التصرف اتجاهه مبعوث عمرو الذي جاء لمحاوستهم على استحقاق دفع المال الذي كان الروم الذين يدفعونه سابقاً للمناذرة عند النزاع حول منطقة (Starta) وكان هذا سبباً لتجدد القتال ضد الروم، إذ أن ذلك يتعلق بمالخ من المال كان يدفعها جوستيان إلى المنذر الثالث^(١). وغزا قبائل طيء وتغلب^(٢). وتوسط بن بكر وتغلب ابني وائل فأصلح بينهما بعد حرب البسوس وأخذ رهائنأ من كل حي من الحيين مائة غلام من أشرافهم ليكف بعضهم عن بعض^(٣).

وأصبحت الحيرة في عهده مؤئل الشعراء فكانوا يحضرون إليه من أماكن نائية لانشاد شعرهم. ولنيل جوازه ولم تكن مجالسه خالية من منافسة الشعراء ببعضهم البعض ومن نقد شعر بعضهم لبعض^(٤).

ولقد كان لمثل هذه المنافسات أهمية كبيرة في ذلك المجتمع لما كان لها من أثر في نفوس القبائل. وطالما أدت إلى غضب القبائل وغضب الملك نفسه وغضب الشعراء على منافسيهم وعلى الملك. ومن أهم الشعراء الذين حضروا مجلسه : طرفة بن العبد والمسيب بن علي والحارث بن حلزة اليشكري.

وانتهت حياته بالقتل على يد الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي ، للذل الذي لحق بأمه ليلى. وخلفه في الحكم أخيه قابوس بن المنذر (٥٧٤ - ٥٧٨ م) الذي أغار

(١) علي جواد المصدر السابق ، ٢٣٩/٣ ، ٢٤١-٢٤٩ ، ٢٤٨-٢٥٠ .

(٢) مجلة كلية التربية ، العدد الثامن ، السنة الرابعة من ١٨٤ .

(٣) شيخور ، المصدر السابق ، ص ١٩٩ ، الأصفهاني ، الأغاني ، ٤٤/١١ .

(٤) شيخور ، شعراء النصرانية ، ص ٣٠٤-٣٠٥ .

على مملكة الفساستة ولكن المنذر بن الحارث أمير غسان تعقبه وتغلب عليه في موقعة دارت بالقرب من الحيرة في سنة ٥٧٨ م^(١). وخلفه ملوك آخرون من بينهم النعمان بن المنذر (٥٨٣ - ٦٠٥ م) وهو النعمان أكبر أبناء المنذر بن المنذر من سلمى بنت وائل بن عطية الصانع من أهل فدك ونسبها بعضها إلى كلب^(٢).

ووصل نفوذ النعمان بن المنذر إلى قرقيسيا^(٣)، وذهب على رأس جيش للبحرين وتعرضت الحيرة أثناء ذهابه للبحرين لغارة قام بها جفنة بن النعمان التغلبي^(٤).

وقد فتح أبواب قصره للشعراء أمثال النابغة الذبياني والمنخل اليشكري^(٥) وكان للنعمان كتاب يقاتل بها هي : الرهائن والوضائع والأشاهب والدوسر وقد اشتهرت هذه الكتبية بالشدة والبطش فقيل في أمثالهم أبطش من دوسر.^(٦) والصنائع جماعة كان يختارهم من العرب ليحارب بهم وكان يأخذهم منبني ثعلبة خاصة يتخدمهم كالحرس لا يبرحون بابه. وأما الوضائع فألف رجل من الفرس يخدمونه ويستبدلهم بألف آخرين كل سنة^(٧).

وكان أول عهده وثانياً يبعد العزى وينبذع الذبائح للأوثان ثم غير رأيه وتنصر وكذلك تنصر ولداته وهم الحسن والمنذر. وكان الحسن أشدهم تمسكاً بالنصرانية، وقد سبقته اخته هند ومارية.

وكان تنصر النعمان حوالي ٥٩٣ م وصار بعد ذلك من حماة المذهب النسطوري الذي انتشر في العراق ومن الحيرة انتقلت النصرانية إلى اليمن.

(١) السالم ، عبد العزيز ، المصدر السابق ص ٣٥٠ .

(٢) حمزه الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٧٤ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ٩٩/٢ .

(٣) حمزه الأصفهاني ، المصدر السابق ص ٧٣ .

(٤) حمزه الأصفهاني ، الأغاني ١/٢٧٥ ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، شيخو ، شعراء النصرانية ، قبل الإسلام ، ص ٦٤١ .

(٥) علي جواد ، المصدر السابق ، ٢٨٠/٣ .

(٦) الميداني ، مجمع الأمثال ١/٧٨ .

(٧) علي ، جواد ، المصدر السابق ٢٨٧/٣ .

وكان يعني بتربيه الخيول والابل والماشية، فكان يشتري خير فصائلها ويحجبها لنفسه ولا يسمح لأحد بالحصول عليها، وكانت وفود العرب تقدم عليه فيكرمها ويقضي حاجاتها^(١).

أخذ النعمان بن المنذر يشعر باضمحلال الامبراطورية الفارسية وتدهورها فأخذ يعمل على توثيق العلاقات مع زعماء القبائل العربية محاولة منه لإيجاد أسباب مشتركة مع القبائل القوية، روى ابن عبد ربه أن النعمان قال مخاطباً القبائل: (إنما أنا رجل منكم، وإنما ملكت وعزرت بمكانكم .. لعلم - كسرى - أن العرب على غير ما ظن أو حدث نفسه)^(٢). ولذا فقد قتله كسرى تخلصاً منه^(٣).

ويظهر أن أمراء لخم صاروا أكثر استقلالاً في موقفهم تجاه كسرى فقد قال كسرى، إنه إنما قتل النعمان لأن النعمان وأسرته وخدوا سياستهم وأهدافهم مع العرب^(٤). وكان لا بد للنعمان أن يشعر بتفوض الامبراطورية الفارسية وتزايد قوة القبائل العربية وكان لا بد أن يكون قد اخترت نفسه سياسة جديدة لا تنسجم والمصالح الفارسية ويبدو أن الأسرة اللخمية في نظر كسرى لم تعد أهلاً للثقة فلم يعد بمستطاعهم تأمين طرق التجارة وفشلوا في منع القبائل العربية من غزو ممتلكات الامبراطورية الفارسية^(٥).

إن سقوط السلالة اللخمية على يد الفرس يعود إلى نهجها الاستقلالي والذي اجترأت على إظهاره. إذ أن مثل هذا الخروج يشكل قاعدة يمكن أن تكون سبباً في التمهيد لهذا الانفجار وإن السبب الأساسي هو أن النعمان وأهل بيته قد واطئوا العرب وأعلموهم ضعف الامبراطورية السasanية وحرضوهم في الثورة ضدّها^(٦). وهناك أسباب أخرى ساعدت على سقوط مملكة اللخمين أوجزها كسترجنين

(١) الغالي ، ذيل الأماني والتواتر ، ص ١٨٥ ، ابن رشيق ، العدة ، ٢٢٠/٢ .

(٢) ابن عبد ربه الأندرسي ، العقد الفريد ، ١٦٩/١ (القاهرة ١٩٣٥).

(٣) كستر ، مرج ، العيرة ومكة وعلاقتها بالقبائل العربية ، ترجمة ، يحيى الجبوري ، (بغداد ١٩٧٦) ص ٤٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٢ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

(٦) رونشتاين ، المصدر السابق ، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

قال : (وكان للتغيرات المفاجئة في السياسة الفارسية نحو أمراء الحيرة أن زاد الشعور بعدم الاستقرار وكذلك تعظيمهم أسلوب التفريق والقوة كوسيلة للسيطرة على القبائل ، وال الحاجة والاكتفاء والثبات في دعم القبائل الموالية كل ذلك خلق شعوراً بالخيبة والمرارة . إن نجاح غارات الوحدات العشائرية ضد الحيرة قد فرض هيبة حكامها^(١) ، وكان انتصارات القبائل البدوية على قوات ملك الحيرة كانت دليلاً مقنعاً على ضعف الحيرة وتنذير سقوطها .

وانطلق ملك الحيرة بعد مقتل النعمان على يد كسرى إلى رجل غريب لم يكن من لخم اسمه اياس بن قبيصة الطائي.^(٢) وكان اياس قد حارب ضد الروم فهزمه . وأعظم الأحداث التي وقعت في عهد اياس وأشهرها على الاطلاق حادث يوم ذي قار . وذى قار ماء لبكر بن وائل يقع قريباً من الكوفة بينهما وبين واسط وبالقرب من هذا الموضع يقع جنو ذي قار على بعد ليلة من ذي قار^(٣) .

وسبب وقوع حرب ذي قار هو ما جره قتل النعمان بن المنذر لعدي بن زيد ، وُعد قتل كسرى للنعمان بن المنذر ومطالبة كسرى أبرويز هانيء بن مسعود الشيباني بتسلیم الوداع التي أودعها النعمان لدیه من الأسباب المباشرة للحرب فعندما أبى هانيء تسلیم ما اتمن عليه لغير أهله غضب كسرى فبعث إلى كبار قواد جيشه في العراق ومعهم الفيلة والاساوية ، فالتحقوا مع العرب بأرض ذي قار . وانهزمت الفرس وكسرت كسرة هائلة وقتل أكثرهم وفيهم قواد فارس . وانتصر العرب على الفرس انتصاراً عظيماً . وانتصف في هذا اليوم العرب من العجم .

وهناك أسباب غير مباشرة لوقوع الحرب وهي الصراع الدامي الطويل بين العرب والفرس والذي حرّك لدى القبائل الشعور والاحساس العربيين بوجودهم . ولم يكن ذي قار يوماً واحداً أو معركة واحدة وقعت في ذي قار بل كانت جملة معارك وقعت بين العرب والفرس قبلها ختمت بذى قار حيث كانت المعركة الفاصلة .

(١) كستر ، نفس المصدر السابق ، ص ٣٨-٣٩ .

(٢) حمزه الأصفهاني ، المصدر السابق ص ٧٤ ، شيخو ، المصدر السابق ص ١٣٥ .

(٣) علي جواد ، المصدر السابق ، ٣/٢٩٣ .

أما متى وقع يوم ذي قار فتقول أهل الاخبار أنه وقع بعد المبعث ورووا في ذلك حديثاً قالوا أن الرسول ﷺ لما بلغه من هزيمة ربيعة لجيش كسرى قال: (هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم، وبه نصروا)^(١). ومنهم من جعله في يوم ولادة الرسول و منهم من جعله بعد منصرة الرسول من موقعة بدر الكبرى^(٢).

ولمعركة ذي قار أهميتها في التاريخ العربي قبل الإسلام فقد كانت أول صدام مسلح مباشر بقوة منظمة من العرب والفرس وكان انتصار العرب فيها تحطيمياً لأنفة الفرس وقوتهم القاهرة التي تفتخر بها ملوك الفرس على مدى قرون، وقد شجع هذا الانتصار القبائل العربية على الاستهانة بالفرس والاغارة عليهم.

وقد أفقدت هذه المعركة الفرس الثقة بحلفائهم العرب كما أفقدتهم الثقة بأنفسهم وقوتهم. يدل على ذلك أن الفرس حكموا الحيرة حكماً مباشراً.

وقد بلغ الوعي القومي والمد العربي ذروته في هذه المعركة فقد تناست القبائل العربية خلافاتها أمام العدو المشترك وهذا ما يصون لنا مصير العرب المشترك في دفاعهم عن الهوية القومية أرضاً وشعباً.

وهنالك يوم ذي قار آخر انتصر فيه العرب على العجم وقد وقع قبل اليوم المذكور فعرف بيوم ذي قار الأول وكان سببه أن كسرى أراد إخراج بكر بن وائل ابن السواد فأبوا فقاتلهم فهزموه وانتصروا عليه^(٣).

وكان ملوك الحيرة يتراسلون مع رؤساء القبائل. وعمالهم بالبريد ويستعملون الخيل في هذا البريد، تنطلق الخيال في مراحل فإذا بلغ البريد المرحلة المعينة استراح ثم يتولى البريد شخص ثانٍ لنقل الرسائل وهكذا وبذلك تتم المراسلات^(٤). وكان في الحيرة أسرة متنفذة منهم أسرة العدسيين. وهم من كليب. وبنو الأوس بن قلام بن بطون بن جمهير بن لحيان^(٥).

(١) الطبرى ، المصدر السابق ، ١٩٣/٢ .

(٢) اليعقوبى ، المصدر السابق ، ١٨٤/١ .

(٣) البكري ، المصدر السابق ، ١٠٤٢/٣ .

(٤) العبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ٢٨٦/١ .

(٥) الأصفهانى ، الأغانى ، ١١٥/٢ .

وكان في الحيرة سوق معروف تقصده الاعراب لبيع تجاراتهم وشراء حاجياتهم من سلعة . وقد اشتهر بنوع خاص من السيف قيل لها السيف الحاربة كما عرفت بصناعة الأنماط وكذلك عرفت بالبسط والوشي^(١) .

واشتهرت الحيرة بقصورها مثل قصر الخورنق وقصر السدير وقد بناهما النعمان ابن المنذر . وهناك موضع بالحيرة يسمى الدوسر وهو من أبنية أحد أمراء الحيرة . أدى زوال أسرة المناذرة إلى تشجيع القبائل العربية على مهاجمة العراق وقد ساعدهم على ذلك الاضطراب الداخلي والحروب المتعددة والفتن والمنافسات على العرش الساساني .

وقد نجح المناذرة في تأسيس دولة لهم في البحرين وأحدوا من نفوذ الساسانيين في الجزيرة العربية . وظل المناذرة يحكمون البحرين إلى أن جاء الإسلام فانصاعت البحرين إلى الإسلام^(٢) .

ويمكن أن نختتم الكلام عن مملكة الحيرة برأي أوليري عن عرب الحيرة الذي يرى فيهم بأنهم كانوا يتميزون بكونهم ذوي حكومة قائمة بذاتها تحكم نفسها بنفسها ضمن حدود اختصاصاتها التجارية^(٣) .

الفساسنة

اشتق لفظ الفساسنة من اسم ماء يقال له غسان نزل عليه آل غسان ، وأصلهم من عرب الأرد . وكانوا قد نزحوا من أرض اليمن قبيل حادث سيل العرم أو بعده^(٤) . ويسمون بآل جفنة . ولانتسابهم إلى جد أعلى يدعونه جفنة بن عمرو . أو أن صفتهم قبيلة من غسان من اليمن^(٥) .

(١) البلاذري ، *فتح البلدان* ، ص ٢٤٥ ، المسعودي ، مروج ٩٠/٣ ، غنيمة ، يوسف ، الحيرة ، ص ١٢ .

(٢) العلي ، صالح أحمد ، المصدر السابق ، ص ٧٢

O. leary, Arabia before Muhammad , (London 1927) p. 156.

(٤) حمزه الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٥) لسان العرب ، مادة جفنه ، نولذك ، أمراء غسان ، ترجمة بلالي جوزي (بيروت ١٩٣٣) ص ٣ .

وكان قد سكن مشارف الشام قبل نزوح الأزد والغساسنة وقد غلبهم الغساسنة قوم يسمون الضجاعمة من قبائل بني سليح بن حلوان من قضاة^(١) وحلوا محلهم. وقد تلقب الأمراء الغساسنة يلقب بطريق *Patricus* ولقب عامل أو سيد قبيلة^(٢). ولقب «بطريق» من ألقاب الشرف الضخمة عند الروم، ولذلك فلم يكن يمنع إلا لعدد قليل من الخاصة. ولصاحب امتيازات ومنزلة في الدولة. حتى أن بعض الملوك كانوا يجدون الحصول على هذا اللقب من القاصر^(٣).

كان الحارث بن جبلة من أهم أمراء آل جفنة من الغساسنة وكان معاصرأ للإمبراطور الروماني جستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ومن الذين عاصرهم من الملك الفرس قياد (٤٤٨ - ٥٣١ م) وكسرى أتو شروان (٥٣١ - ٥٧٩ م). وكان معاصرأ ملك الحيرة، وقام بغزو المدينة المذكورة. وقد هزم جيش ابن النعمان وأدى ذلك إلى قيام الفرس بغزو شمال سوريا والجزيرة واستولوا على مدن كثيرة.

وفي سنة ٥٤١ م اشتراك الحارث في الحملة البيزنطية الموجهة لمحاربة الفرس تحت قيادة بيلزاريوس. ولم يكدد الحارث يعبر دجلة حتى ارتد إلى موقعه السابقة عن طريق آخر غير الطريق الذي سلكته معظم الجيوش. وقد أثار تصرفه هذا الشك لدى الروم^(٤).

ويبدو أن الحارث قد أُنْفَ من العمل تحت قيادة بيلزاريوس وأنه كان يعمل حسبما يميله عليه عقلة ولعله انسحب بسبب خلافه مع القائد البيزنطي لأنفته من أن يكون تابعاً للقائد البيزنطي بدليل أنه لم تمض ثلاثة سنوات على الحملة المذكورة حتى اشتباك الحارث في حرب عنيفة مع المنذر بن النعمان المعروف بابن ماء السماء في سنة ٥٤٤ م^(٥).

(١) المسعودي ، التبيه والإشراف ، ص ١٨٦ .

(٢) نولدهك ، المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٣) المشرق ، السنة الأولى (بيروت ١٨٩٨) ص ٤٨٥ .

(٤) نولدهك ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٥) المصدر نفسه .

ورحل الحارث إلى القسطنطينية لمقاومة البيزنطيين فيجد من يخلفه من أولاده في ولايته وما يمكن اتخاذه من خطط عسكرية لمواجهة ملك الحيرة عمرو بن المنذر (٥٥٤ - ٥٦٨ م). فقصدها سنة ٥٦٣ م. وأعجب بظاهر الحضارة هناك. ولم يلق استقبالاً حاراً لأنه كان جيئونفزيقياً أي من أصحاب الطبيعة الواحدة. وكان يتزعم أصحاب الطبيعة الواحدة لتخليصهم من البيزنطيين. وقد نجح في اقناع الامبراطورية ثيودورة في سنة ٥٤٢ - ٥٤٣ م لتعيين يعقوب البرادعي ورفيقه ثيودوروس استقرين في المقاطعات العربية في سوريا^(١). وقد سار ابنه المنذر من بعده على هذه السياسة.

رغم أن الغساسنة كانوا يحكمون الجابية من أرض الجولان فقد تمكنا من التأثير على جميع القبائل العربية في فلسطين وعرب سوريا الشمالية^(٢). ونظراً لتأييد الحارث للكنيسة الميتوفزيتة فقد أخذ الامبراطور يشك بولاه له. واستغل بطارقة القسطنطينية هذه النقطة لاثارة المشاعر هناك حوله^(٣).

توفي الحارث بن جبلة والذي يقال له أيضاً الحارث بن أبي شمر في آخر سنة ٥٦٩ م بعد أن قضى في امارته أطول مدة في عهود أمراء آل غسان وهي أربعين عاماً^(٤). وقد عرف أيضاً بالحارث الأعرج. والحارث الأكبر.^(٥)

وخلف الحارث ابنه المنذر سنة ٥٦٩ أو ٥٧٠ م وظل حتى سنة ٥٨١ م. وقد دخل حرباً مع أمراء الحيرة وانتصر عليهم في عدة مواضع^(٦). منها يوم أباغ وهذا المكان ليس بعيداً من الناحية الشرقية للحيرة وساقت علاقته مع القيصر البيزنطي إلى درجة القطيعة بين الاثنين. وقد أحسن المنذر أن القيصر قد دبر

(١) نولدكه ، المصدر السابق ص ٢٠-٢١ .

(٢)

R: chard , Bell , op. cit .., p. 23

(٣) نولدكه ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٣ .

(٥) علي جواد ، المصدر السابق ٤٠٣/٣ .

(٦) نولدكه ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

مؤامرة لاغياله فتمرد على الروم وأضحموا بالباديم. وقد أثبت الروم فشلهم في الدفاع عن الشام أمام أعدائهم، فاضطرر القيسير إلى مراسته والتودد إليه لاسترضائه فاقنعواه بترك موقعه والعودة إلى محله، وعقدوا معه معاهدة صلح في صيف ٥٧٨ م فعاد المنذر إلى أرضه ليدافع عن حدود الشام ضد أعدائه^(١).

وقد زار المنذر القسطنطينية سنة ٥٨٠ م مصطحبًا معه ابنيه من أبناءه وقد استقبله الامبراطور بكل ترحاب واحترام وتبجيل وأنعم عليه بالناج الذي لم يمنحه الروم لمن قبله. وأغدق عليه القيسير الهدايا الثمينة.

إلا أن القيسير أراد أن يجد من قوة الغساسنة وزعيمهم المنذر، فأصدر أمراً بـ القبض عليه. فألقى القبض عليه وأجبر على الاقامة في القسطنطينية. ثم نفي إلى صقيلة وقطعت عنه المعونة التي كان الروم يدفعونها سنويًا للغساسنة^(٢).

نذر أولاد المنذر الانتقام لأبيهم فانسحبوا بجيشهم إلى البادية ومن هناك بدأوا بمحاجمة أرض الروم. وقد فشل الروم في صدهم فالتجأوا إلى الحيلة التي تمكنا بها من القاء القبض على ابنه (النعمان) وأرسلوه فخوراً إلى العاصمة حيث حجروه هناك^(٣).

ثم أصبحت إمارة الغساسنة بالتصدع والتفكك وانقسم الأمراء على أنفسهم وذلك حوالي ٥٨٣ أو ٥٨٤ م على رأي نولدكه. وبذل فقد تفككت وحدة عرب سوريا إلى حد أن كل قبيلة اختارت لها أميراً وبدأت تغير على المناطق التي تجد فيها ضالتها المنشودة. ثم توحدت من جديد فتولى حكمها مجموعة من الأمراء ولكنهم كانوا ضعفاء وكانت مدة حكمهم قصيرة^(٤).

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٢٦ ، علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٤١٣/٣ - ٤١٤ .

(٢) نولدكه ، المصدر السابق ، ص ٣٠ ، علي ، جواد ، المصدر السابق ٤١٥/٣ - ٤١٦ .

(٣) نولدكه ، المصدر السابق ، ص ٢٢ ، علي ، جواد ، المصدر السابق ٤١٦/٣ .

(٤) سالم ، السيد عبد العزيز ، المصدر السابق ص ٢٩٠ .

وفي سنة ٦١٣ م دخل الفرس الشام وقضوا على إمارة الفساستة فتفرق الفساستة في الصحراء^(١).

ثم أعاد الفساستة حكمهم سنة ٦٢٩ م بعد أن طرد الفرس من الشام وقد حارب بعض الأمراء الفساستة بجانب الروم عندما جاء المحررون العرب إلى الشام. فقد قاتل جبلة بن الأبيه خالد بن الوليد في دومة الجندي واشترك مع الروم في اليرموك. وقد أرسل الرسول ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر أحد أمرائهم رسالة يدعوه فيها للإسلام^(٢).

ميسان :

نشأت عند مصب دجلة على الخليج العربي، وكان يحكمها العرب الواقدون من عمان سابقين في ذلك القبائل العربية التي وفدت فاستقرت في الحيرة غربى الفرات في نفس الوقت الذى قامت فيه الدولة الساسانية^(٣).

واستقلت هذه الامارة عندما ضعف السلوقيون في الشرق وكانت دولة تعرف بـ (ميسان) ووُجِدَت فيها جاليات من اليونان والتدمريين والأنباط والرومان. وكانت مركزاً للتجارة مع الهند وجنى أهلها الفوائد الكثيرة من وراء هذه التجارة. وسيطرة على تجارة الخليج العربي في العصر الروماني وهذا فقد قامت صلات دبلوماسية بينها وبين الرومان.

وتمتَّعت ميسان باستقلال فعلي وكانت تستقبل رسائل روما كما تستقبل وفود الصين. وضُرِبَت هذه الدولة عملة خاصة بها وسمحت باستعمال عملة البلدان الأخرى^(٤).

أنجبت هذه الدول عدة ملوك منهم *Hyspaosimes* مؤسس المملكة مباشرة بعد

(١) نولدكه ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٢) سيبحث ذلك بالتفصيل في الفصل الخاص بمراسلات الرسول .

(٣) كريستنس ، آرثر ، إيران في عهد الساسانيين ترجمة يحيى الخشاب ، (بيروت ١٩٨٢) ص ٧٥ .

(٤) البكر ، منذر ، المصدر السابق ، ص ٤١٣ .

وفاة الملك السلوقي الطيوخس الرابع سنة ١٦٤ ق. م.

وتمكن من ضم بابل سنة ١٢٧ ق. م وتمكن من الوصول إلى سلوقيا وبذا نجحت في تكوين دولة عربية في بلاد ما بين النهرين. وتوسعت إلى الشرق واحتلت علام سنة ١٢٩ ق. م. وضمت لها بابل^(١).

ومن مشاهير ملوك ميسان *Attambelus* الذي توسيع ميسان في عهده وأصبحت تضم أراضي واسعة وكان حكمه في حدود سنة ٩٨٠ م. وكذلك *Attambelus* صديق الامبراطور الروماني تراجان (ت ١١٧ م)، مما يدل على أهمية ميسان بين دول العالم القديم. وعلى أكثر احتمال فإن هذه الدولة ظلت طيلة الفترة الرومانية الفراتية ولم يتمكن أحد من احتلالها إلا بعد التغير الذي طرأ على المسرح السياسي آنذاك حيث ورث البيزنطيون الهيمنة على المسرح السياسي بعد الروم وتغير معظم التجارة وانتقلت إلى البحر الأحمر مما أضعف ميسان اقتصادياً وسهل على الفرس اضعافها سياسياً. وعلى كل حال فإنها من المحتمل تكون قد سقطت في القرن الثالث الميلادي، أي بحدود ٢٢٥ م^(٢).

اتبعت دولة نيسان سياسة الموازنة بين الدول الكبرى، ولذا فقد كانت على صلات دبلوماسية متكافئة معها. و يبدو أن أول اتصال لها مع الرومان كان في عهد الامبراطور جيرمانيكوس وطبقاً لهذه العلاقات فقد وصل إلى ميسان والخليج العربي تجار رومان وتبادل الامبراطور تراجان الهدايا مع أناميبيوس أحد ملوكها الهدايا، وكذلك تحسنت علاقاتها مع الدولة الغربية بعد عجز الأخيرة عن السيطرة عليها، ولها علاقات جيدة مع الصين فكثيراً ما كانت ميسان تستقبل وفوداً من الصين، وكانت لها علاقات متينة مع الدول العربية في تدمر، وكان التدمريون يملكون حوضاً لبناء السفن على سواحل مملكة ميسان، وقد سبق لدولة ميسان أن كانت لها صلات تجارية قوية مع دولة الأنباط العربية وعرب الجزيرة العربية^(٣).

(١) البكر ، منذر ، الجذور التاريخية لعروبة الاشوار قبل الاسلام (البصرة ١٩٨١) ص ١١-١٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٦-١٨ .

كتلة :

كندة قبيلة قحطانية في عرف النسابين. وتنسب إلى ثور بن عفیر ابن عدی بن الحارث بن مرة بن ادد بن زید بن يشجب بن عرب این زید بن كرملان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان^(١).

وقد عرفت كندة عند الاخباريين بـ(كندة الملوك)^(٢). لأنهم ملکوا أولادهم على القبائل وكانوا يعتزون بنسبيهم إلى كندة لأنهم كانوا ملوكاً^(٣) ويدرك الاخباريون أن موطن كندة الأصلية كان يجبل اليمن مما يلي حضرموت ويسمىها الهمданى بلد كندة من أرض حضرموت^(٤).

وكانت كندة تقول بالأصل بغمري ذي كندة، وبالبحرين والمشقر ونزلت إلى حضرموت^(٥) في زمن من الصعب تحديده. ولا يعرف عن كندة شيء قبل استقرارهم في غمر ذي كندة ولا عن كيفية انتقالها إلى حضرموت^(٦). وفي نقش مأرب الذي كتب عام ٥٤٣ م إشارة مفادها إن كندة وربما جماعة منها كانت تسكن حوالي ذلك الوقت حضرموت أو قريباً منها^(٧).

ويعود الفضل إلى (جامة) في نشره نقشاً لها صلة بكندة وببعض مواقفها في آياتها البعيدة. ورغم قلة هذه النصوص فإنها ذات شأن كبير لأنها تورد معلومات عن كندة لم يرد لها ذكر في الروايات العربية أو المصادر البيزنطية. أقدم هذه النقوش هو النقش المسمى *Ja 635 Ar*^(٨) فقد ورد فيه اسم ملك من ملوك سبا وهو شعيرم ذكر لكتنة وسكنها في ذلك الزمن البعيد. يذكر النقش أن الملك المذكور شن حملة

(١) المسعودي ، التبي والإشراف ص ٢٨٩ ، ابن خلدون ، تاريخ ٥٣٦-٥٣٧ / ٢ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ٣٢٥ / ٢ .

(٣) الطبرى ، المصدر السابق ، ١٣٩ / ٣ .

(٤) الهمدانى ، صفة جزيرة العرب ، ص ٨٥ .

(٥) المصدر نفسه والصفحة .

(٦) السالم ، السيد عبد العزيز ، المصدر نفسه ، ٤٠٢ / ١ .

(٧) أو لندر ، جونار ، ملوك كندة ، ترجمة د. عبد الجبار المطلبي (بغداد ١٩٧٣) ص ٦٤ .
Jamme , Sabaean Inscriptions Baltimore 1962, pp. 136-137.

(٨)

الرابعة على كندة والتحم في موكيت مع ربيعة آل ثور ملك كندة وقططان في حدود ٦٥ - ٥٥ ق. م في بلدة قرية. كاهل. ويعني اسم قحطان في هذا النتش اسم قبيلة وبلاط إلى الشمال الشرقي من جيزان.

واعتماداً على العسلمي يمكن أن نقول أن كندة كانت موجودة في شمال نجران^(١) هـ في أيام شعيرم أوتر.

وجاء في نقش *Ja 576*^(٢) وفي نقش آخر^(٣) أن حرباً وقعت بين الشرح يحضر وأخيه يا زل بين ملكي سباً وذي ريدان من جهة وبين مالك ملك كندة وشعب كندة. فاسر الشرح يحضر ملك كندة.

أما عاصمة الكنديين في هذه الفترة فعلى رأي *Glaser* لا بد أن تكون *Maokosmos Metropolis* وأنها لا بد أن تكون إلى الشمال الشرقي من نجران. ولعلها على مقربة من قرية نمرة أو سليل^(٤).

وورد في نقش يعود تاريخه إلى شمر يرعش ملك سباً ذو ريدان وحضرموت وسمنات في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي، أن كندة كانت أحدى التجمعات الثمانية التي تتألف منها مملكة سباً^(٥). وتحتل كندة بين هذه التجمعات المنزلة الثانية لما لها من قوة وعدد.

ثم نزحت كندة إلى نجد واستقرت بها. وللأخباريين آراء في أسباب هذا التزوح. فاليعقوبي يرى أن حرباً طال أمدها بين حضرموت وكندة أدت إلى أجلاها عن حضرموت.^(٦) ويرى ابن خلدون أن ثمة قراة بين تبع سيد كندة وبين حجر بن عمرو سيد حضرموت وكان سلطان تبع يؤمّن يشمل نجد والحجاز وغيرهما من بلاد

Kalid , south Arabia in the 5th and 6th centuries , St. Andrews , 1968, p.42.

(١)

Jammein , op., cit., pp. 67-68 .

(٢)

Asali , op., cit., p. 43 .

(٣)

Lbid . p. 45

(٤)

Jamme , op., cit .. pp.164-165 .

(٥)

العرب ، فولى حجر على القبائل المعدية كلها^(١). ويرى الحموي أن حرباً نشب بين حضرموت والسكنون وكنته انكسرت فيها كنته واضطررت إلى الانسحاب وقد أدى انسحابها وانكسارها إلى التفاafa حول ملك واحد^(٢). ويرى الدكتور العلي أن سبب هجورتهم قد يعود إلى تحول طرق التجارة إلى العراق والشام^(٣).

وبسطت كنته نفوذه على القبائل الموجودة في نجد بالمخالفات أو المصاeras أو بالقوة. وحاولت توحيد هذه القبائل ونشر السلم والأمن. وقد امتد حكمها فترة من الزمن إلى الحيرة. وظهر فيها من مشاهير الشعراء العرب قبل الإسلام هو أمريء القيس^(٤).

وأقدم ملك كندة ذكره الأخباريون بشيء من التفصيل والوضوح هو حجر الملقب بـ (أكل العرار). وهو ينسب إلى عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية على رواية^(٥). وإلى عمرو بن معاوية بن الحارث الأصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن كندة على رواية أخرى^(٦). وقد ولأه تبع بن كرب وولى بعده ابنه عمرو ثم ابنه الحارث المقصور^(٧).

وكان حجر قد وحد كندة وساسها سياسة حسنة وانتزع من اللخميين ما كان بأيديهم من أرض بكر بن وائل. وبقي حجر كذلك حتى مات^(٨). روى ابن الأثير أن حجراً نزل نجد، وكان اللخميون قد ملوكوا كثيراً من تلك البلاد ولا سيما بلاد بكر بن وائل فنهض بهم وحاصر اللخميين واستخلص أرض بكر منهم^(٩).

(١) تاريخ ابن خلدون ، ٢٦٩/٢ .

(٢) معجم البلدان ، ٢٧٢/١ .

(٣) محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٨٤ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٨٣ .

(٥) حمزة الأصفهاني المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٦) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ٢٧٣/٢ .

(٧) ابن خلدون ، المصدر السابق والجزء من ٢٧٦ .

(٨) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر (المطبعة الحسينية) ص ٧٤ .

(٩) المصدر السابق ، ٢٠٩/١ ، وانظر شرح القصائد العشر للزوزنبي ، ص ٦ .

وتزوج حجر ثلث زوجات، هند بنت سالم بن وهب، وأم اياس بنت عوف ابن محلم.^(١) الشيباني من بكر بن وائل^(٢) والزوجة الثالثة من حمير^(٣). ويغلب على الظن أن حجر تمكّن بهذه الزوجات من توسيع سلطانه في بلاد العرب، لأنّ عرب ما قبل الإسلام اتبّعوا قاعدة الزواج لمحالفة القبائل وكان هذا من أسباب تعدد الزوجات قبل الإسلام.

وصار عمرو بن حجر المعروف بالمقصوص ملكاً بعد أبيه، ولم يكن قريباً صاحب عزم وإرادة وقد اكتفى بما وقع له من أبيه فلم يسع في توسيعه وتقويمه ولم يكن حكمه طويلاً^(٤). وقد اقتصر حكمه على مناطق ربيعة ومعد في نجد إذ تخلّى عن اليمامة لأخيه الجون. ويبدو أنه لم يزد عن كونه عاملاً للتبابعة في كندة. فقد أشار الأخباريون إلى أنه كان يخدم حسان بن تبع فلما قتل عمرو بن تبع حساناً، اصططع عمر بن حجر، وزوجة ابنة أخيه حسان فولدت الحارث بن عمرو، فلما تبع ابن حسان ملك اليمن، وهابه حمير بعث ابن أخيه الحارث بن عمرو في جيش إلى العيرة^(٥).

وكانت علاقته بأمراء الحيرة جيدة قائمة على الصداقة واحترام حسن الجوار، وتوجّت هذه العلاقة بزواج الأسود بن المنذر ملك العيرة من أم الملك بنت عمرو بن المقصوص فأنجبت له النعمان بن الأسود^(٦). أما علاقته بالغساسنة فكانت على عكس ذلك ويبدو أنه كان يكثر من الاعتداء على حدود الغساسنة فتلقاء الحارث من أبي شمر الغساني في إحدى هذه الغارات وقتلها في سنة ٤٩٥ م تقريباً^(٧).

ثم خلفه ابنه الحارث الذي كان أقوى ملوك كندة على الاطلاق وأشدّهم باساً

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ١٥٩/٩ ، ٨٢/١٥٥ .

(٢) اوكتندر ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(٣) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٣٢٥/٣ .

(٤) المصدر السابق والجزء من ٣٢٨ .

(٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ٢٤٠/١ .

(٦) حمزه الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٧) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ١٧٧/١ .

وأكثرهم طموحاً. فقد تولى الملك علىبني معد بعد أن فرقتها حرب البوسوس التي دامت قرابة أربعين سنة وقد وسع ملوكه فصار ملكاً على كندة وبكر وعلى قبائل أخرى وأنه تمكّن بشخصيته من رفع شأن قبيلته^(١). وجمع الحارث إلى ملوكه ملك العيرة وأل لخم بمساعدة قباد الذي تبنى المزدكية وطلب من المنذر بن ماء السماء الدخول في هذا الدين، فامتنع عن ذلك مما أغاض قياد وانزعج منه ودعا الحارث بن عمرو إلى ذلك فأجابه فاستعمله على العيرة وطرد المنذر من مملكته فعظم سلطان الحارث. وتمكن بعد ذلك من تملك ولده على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد^(٢).

ويبدو أن السبب الرئيس في هذا التغيير هو ميل قباد للمزدكية، مما أدى إلى قيام اضطرابات في إيران ومكنت الحارث من دخول العيرة أو سهلت دخولها، وثمة سبب آخر وهو انشغال النعمان في حروبه ضد الروم عند الفرات وبعده عن العيرة مما مكن الحارث من السيطرة عليها، ولهذا فقد كانت العيرة مفتوحة أمام الحارث فغزاها دون أن يجد مقاومة حقيقة فيها^(٣).

أما المنذر فقد هرب من مملكته ومضى حتى نزل إلى الجرساء الكلبي وأقام عنده إلى أن تغير الحال بوفاة قياد وتبدل سياسة الفرس بتولي كسرى أنو شروان الملك فعاد إلى ملوكه وقهر الحارث وتغلب عليه واستعاد ما اغتصب منه^(٤).

واختلف في مصر الحارث بن عمرو، فحمزة الأصفهاني يذكر أنه هرب من العراق وتبعته خيل المنذر، فأدركوا أبناً له فجاء قتلوا ونجى^(٥) الحارث هارباً لا يخرج على شيء، فوقع عليه بنو كلب بمسحلان قتلوا وذكر ابن خلدون وابن الأثير أن كلب قتلتة^(٦). ويرى الدكتور جواد علي أنه قتل أثناء المعارك التي وقعت من

(١) علي ، جواد ن المصدر السابق ، ٣٣٢/٣

(٢) الطبرى ، المصدر السابق ، ٨٩/٢ ، حمزة الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٣) مجلة مكتبة التربية ، العدد الثامن من ١٧٥ ، ١٧٧ .

(٤) حمزة الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(٦) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ٢٧٦/٢ ، ابن الأثير المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

جراء تعقب المنذر بن ماء السماء له^(١).

وكانت علاقته جيدة مع البيزنطيين. وهذا أمر طبيعي لأن تدهور العلاقات مع اللخميين والحارث يترتب عليها تحسنها بين النساينة والحارث والبيزنطيين فاتصل الحارث بالبيزنطيين^(٢).

وكانت للحارث بنت اسمها هند. وقد تزوجها المنذر بن ماء السماء وهي والدة الملك عمرو بن هند وشقيقة قابوس وعمة الشاعر امرئ القيس^(٣).

وأشهر أبناءه حجر، وهو والد الشاعر الجاهلي المعروف امرئ القيس، وقد يعود الفضل إلى هذا الشاعر في ذيوع شهرة والده وانتشار خبره، وحفظ أخبار هذه الأسرة من كندة. وهو أكبر أولاد الحارث. وانتقلت إليه عامة كندة بعد وفاة والده^(٤).

وكان الحارث قد ولى حجراً علىأسد وكنانة المضريتين، أماأسد فكانت مواطنها في زمانه في جنوبى جبل طيء (أجا) وسلمى، الواقعين على جانبي وادي الرمة. ولم يكن حجراً يقيم في منازلأسد وكنانة، وإنما كان يقيم في نهامة. ويبدو أنه كان يدرك أنهم كانوا غير راضين عنه ويعلمون للتخلص من حكمه^(٥). وانتهز بنوأسد موت أبيه فعززوا على القضاة عليه، فقد طردوا رسلاه وضربوه، فسار اليهم بجند من ربعة بن قيس وكنانة، فاستباحهم وقتل أشرافهم وحبس آخرين من أشرافهم من بينهم الشاعر عبيدالأبرص. وقال عبيدالأبرص شعراً استعطفه فيه فأطلق سراحه وسراح بقية الأشراف. لكنهم تجمعوا مرة أخرى وهجموا عليه في قبه وقتلوه. وانضمت كنانة وقيس إلىأسد وهجموا على مسكنه ونهبوه^(٦). وبذلك تخلصتأسد من حكم كندة^(٧).

(١) المصدر السابق ، ٣٤٦/٣ .

(٢) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٣٤٣/٣ .

(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء /١ . ٥٠ .

(٤) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٣٤٩/٣ .

(٥) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ١٧٨/١ .

(٦) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ٢٧٣/٢ ابن الأثير ، المصدر السابق ، ٣٠٥-٣٠٧/١ ، الأغاني ٦/٨ .

(٧) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٣٥١/٣ .

ولما قتل الحارث بن عمرو تشتت أولاده وتفرق كل ملتهم وجمع كل واحد منهم لصاحبه الجيوش وحاربه. وقد لعب المنذر دوراً في اشعال الحرب بين الأخوة. فسار شرحبيل بيكر بن وايل ومن معه من قبائل حنظلة ومن أسيد عمرو وطوانف من بني عمرو. فنزلت الكلاب وهو ماء بين البصرة والكوفة. وأقبل أخوه سلمة في بني تغلب وبهراء والنمر وأحلافها وسعد بن زيد مناة من تميم ومن كان معهم من قبائل حنظلة، يrepidون الكلاب، وتلاقي الجماعان فاقتلا كثيراً وقتل شرحبيل^(١) وجزع سلمة على أخيه وندم على حربه مع أخيه إذ شعر أن المنذر أراد أن يقتل بعضهم بعضاً^(٢). ثم أصيب سلمة بالفالج فمات.

ولما بلغ معد يكرب بن الحارث نبا مصرع أخيه شرحبيل اشتد جزعه. وكان أبوه قد ولاه على قيس عilan. وفي عهد أبيه قام بغارات ضد الروم في فلسطين وأوغل في البلاد وأشاع الذعر في نفوس الروم وكان من نتائج هذه الغارات أن عقد الامبراطور الروماني اسطناسيوس صلحًا مع الحارث بن حجر والده^(٣).

وظل معد يكرب رئيساً على قيس عilan بعد موت أخيه سلمة ومقتل أخيه حجر وشرحبيل. ومات كمداً على مصير أخيه^(٤). وكان من نتائج ذلك أن خضعت اليمن للأحباش سنة ٥٢٥ م وولت ربيعة ومضر وجهها شطراً العحيرة. ولم تلبث أن انفصلت قبائل أخرى عربية عن اليمن مثل وطيء التي انطوت في سلك دولة اللخميين.

وظل جيل من أحفاد آكل الموار من آل معاوية الجون أخي عمرو المقصور، ظلوا يحتفظون بالرئاسة في حضرموت والبحرين وقد قاتلوا المسلمين في حروب الردة^(٥). ولا يمكن تعين زمن حياة معاوية الجون تعيناً دقيقاً ولا زمن مجيه إلى

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٢٦٩/٣ ، البكري ، معجم ما استجم ١١٣٢/٤ ،
اليعقوبي ، المصدر السابق ١٨٣/١

(٢) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ١٧٨/١ .

(٣) سالم ، عبد العزيز ، المصدر السابق ، ٤٢٣/١ .

(٤) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ٢٧٢/٢ .

(٥) المصدر السابق والجزء من ٢٧٧ .

الحكم، ولكنه يبدو في الأعم الأغلب جهد أن يقوى سلطانه كأخيه عمرو المقصور داخل منطقة صغيرة. وقد تكون في هذه الحال مدينة هجر على الخليج العربي، وكانت أمها أميرة حميرية اسمها شعبة، وكان قد نصب أميراً على اليمامة في عهد أبيه بينما أصبح أخوه عمرو المقصور ملكاً بعد أبيه^(١) وكان يقيم في دومة الجندي بطن من بطون كنده يعرف بالسكون وكان يتزعمهم في عهد النبي ﷺ أكيدر بن عبد الملك بن عبد الحي.

وكان امرؤ القيس مقيناً في حضرموت عندما قتل أبوه وكانت أمه اختاً للكليب بن وائل ومهلهل التغلبيين.^(٢) وكان أبوه قد طرده آنفة من قول الشعر الذي يتغزل فيه بالنساء غزاً بعيداً عن البراءة فأخذ يتتجول في بلاد العرب ويشرب الخمر على الغدران ويتصيد فأناه خبر قتل أبيه وهو في دمون من أرض اليمن فقال ضياعني صغيراً وحملني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر غداً اليوم خمر وغداً أمر.^(٣) ونزل إلىبني بكر وطلب مساعدتهم علىبني أسد فأجابوه ورحلوا إلى منازلبني كنانة ومنها رحلوا إلى مكان آخر فتابعهم وأوقع بالكثير من منهم فهربوا منه إلى اليمن ومل بنو بكر وتغلب وتحججوا بأنه أصحاب ثاره وكرهوا المضي في محاربةبني كنانة، وانصرفوا عنه فلما يشن من نصرتهم له رحل إلى اليمن، وحصل منها على جنود وأسلحة سار بها إلىبني أسد ونال مأربه. ويبدو أنبني أسد كانوا قد احتجوا بالمنذر بن ماء السماء. وانحاز المنذر ضده وألح في طلبه ونذر دمه فأخذ ينتقل بين القبائل يطلب معونتهم وعونهم فذهب إلى إياد وجديدة ونبهان وأتى المسحور آل الذي أشار عليه بالذهاب إلى الإمبراطور البيزنطيين^(٤).

قرر امرؤ القيس الذهاب إلى الإمبراطور البيزنطي فسلك طريق الشام ومر بحران وبعلبك وحمّة. ويدرك الرواية أن القيس أكرم امرئ القيس وصارت له منزلة عنده. وعند عودته إلى دياره، وفي أنفه اشتد عليه المرض فمات هناك^(٥) بين

(١) اوكتندر ، المصدر السابق والجزء من ١٨٣-١٨٢ .

(٢) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ١/٣٠٧ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٣٦٢/٣ ، العلي ، أحمد

(٥) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص ٤٧ ، (طبعة لأبden) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ن ٧١/٨ .

ستي ٥٣٠ - ٥٤٠ م^(١).

ويعلق أولندر على ذلك بقوله لا فليس لدينا دليل على ما له علاقة بموت امرأة القيس فطريقة ذلك ومكانه إنما هما من الأساطير، أما تاريخ وفاته فلا يمكن الحدس به إلا على وجه التقريب.^(٢)

ولا تشير المصادر السريانية إلى هذه الحوادث التي يرويها الأخباريون عن ذهاب امرأة القيس إلى القسطنطينية وطلبه نجدة القيصر البيزنطي وموته في أنقرة وما إلى ذلك مما يرويه الأخباريون.^(٣)

وكانت بعض عشائر كندة اندفعت نحو اليمن ولا سيما حضرموت واستوطنت فيها وكانت امارة كندية في حضرموت. وهذا لا يعني أن مجده كندة إلى العربية الجنوبية كان بعد سقوط حكمتهم، لأن وجود كندة في العربية الجنوبية كان قبل هذا العهد بزمن طويل.

ويحدد أولندر هجرة كندة إلى منازلها القديمة قائلاً ... لا بد أنها حدثت في نهاية القرن السادس وبين أن أسباب الهجرة هي «ما أصابها من شدائده في نجد واليمامة» جعلها تهمل «الإمكان عودتها ... إلى منازلها الأولى واستئناف علاقتها القديمة مع أفراد قبيلتها من سكان تلك المشارف»^(٤)

وقد لعبت كندة دوراً خطيراً في الأوضاع السياسية والعسكرية في أيام استيلاء الجيش على العربية الجنوبية فقد اشتراكوا مع قبائل مراد ومذحج والقبائل الأخرى في هجومها ضد الأحباش في مدينة ظفار وعلى المدن التي كانت تناصرهم. وعند ظهور الإسلام أرسلت كندة وفداً يمثلها لمعايدة الرسول ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة، وكان على رأس الوفد الأشعث بن قيس الكندي.^(٥)

(١) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٣٧٢/٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٣) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٤) المصدر السابق ص ٢٠٧ .

(٥) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٣٨٠/٣ ، الطيري المصدر السابق ، ١٣٨/٣ .

٤- حواضر الحجاز

أ- أهمية الحجاز :

كانت الحجاز جسراً يربط بين الشام وحوض البحر المتوسط باليمن، والصومال والجيشة، وسواحل المطلة على المحيط الهندي، مما أدى إلى قيام مدن تجارية فيها، تعد هذه المدن محطات تجارية واقعة على هذا الطريق البحري، وأدى إلى قيام ثغور تجارية تنقل منها السفن الرومية مختلف البضائع والمنتوجات الهندية^(١) ومن هذه المرافئ مرفاً مكة القديم الذي ظهرت أهميته التجارية قبل ظهور ثغر جده وتغير بناء مرفاً يثرب.

وتلاقت في الحجاز جميع الأديان الوثنية إلى جانب اليهودية والنصرانية وفيها ظهر الإسلام.

وقد أدرك الرومان أهمية بلاد الحجاز فأخذوا يتطلعون إلى السيطرة على الطريق التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر وذلك بالاستيلاء على اليمن مستغلين تبعية شمال الحجاز للأنباط فسيروا حملتهم بقيادة اليوس غالوس، واستعاناً فيها بفرقة من الأنباط عدتها ألف مقاتل أنباطي كما استعاناً بإحدى الشخصيات النبطية المهمة ليكون مرشدًا لهم ودليلًا عبر مفاوز الحجاز.^(٢) ومع أن البيزنطيين أثبتوا نجاحهم في السيطرة على الطريق البحري عبر البحر الأحمر بفضل حلفائهم الأجاش الذين استولوا على اليمن، فإنهم أخفقوا عندما حاولوا بسط نفوذهم على الحجاز عن طريق الأجاش كذلك، وفشل حملة أبرهة فشلاً ذريعاً^(٣). كما فشلت حملة إيليوس غالوس قبل ذلك بقرون.

ولم يبق الأجاش في اليمن طويلاً وحل محلهم الفرس. وتقلص نفوذ بيزنطية.

(١) الأزرقي ، أخبار مكة ، (مكة، ١٣٥٢ هـ) ص ١٠١

(٢) خليل يحيى ناصي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الثالث ، ١٩٣٥ ، ١٢/٣ ..

(٣) علي جواد المصدر السابق ، ١٦٥/٤ .

وأصبح مقتضراً على فلسطين واستعاد الطريقان البريان إلى الهند عبر الفرات ودجلة من جهة وعبر اليمن والشام عن طريق مكة من جهة ثانية مركزهما التجاري الأول.

وجنت العيرة في ظل المناذرة. ومكة في ظل بنى التفسير من وراء ذلك مكاسب مالية ضخمة. وكان طريق البحر عبر البحر الأحمر حالياً من سفن الروم ولم تنجع البحرية الحبسية في سد الفراغ فيه فأصبح ميدان لحركات القراءنة بالإضافة إلى صعوبة الملاحة فيه^(١).

وتمكن قريش بفضل جهود زعيمهها هاشم بن عبد مناف من احتكار تجارة الهند منذ نهاية القرن السادس الميلادي. وكان هاشم أول من سن رحلتي الشتاء إلى اليمن والحبشه وال العراق ورحلة الصيف إلى الشام^(٢) وكانت تجارة قريش في بادي الأمر لا تدعوا مكة إلى أن رحل هاشم إلى الشام واجتمع بقيصر ونجح في الحصول على كتاب منه يؤمنهم ويؤمن تجارتهم. وأخذ هاشم كلما مر بحي من العرب أخذ من أشرافهم. لإيلاف (أي العهد) أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم فأخذوا الإيلاف من مكة والشام^(٣).

وقد ألف هاشم بين القرشيين إذ قال لهم : (يا معشر قريش إن العز من الكثرة ، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالاً وأعزهم نفراً وأن هذا الاعتقاد قد أتى على الكثير منكم) ثم بسط لهم رأيه الذي قبلته قريش وذلك بأن يلحق بكل رجل غني وفقير ، فالفقير يعين الغني في رحلاته مع القوافل (ويعيش في ظله بفضل أمواله) وكان ذلك قطعاً للاعتقاد فألف هاشم بن الناس^(٤). وكان هاشم يرمي إلى أن يعطي الفقير

(١) أحمد إبراهيم شريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٤ .

(٢) اليعقوبي ، البلدان ، نشر دي غوريه مع كتاب الأعلاف النفسية (لبنان ١٨٩٢) ص ٢ ، ٢٠٢ ، كستر ، الم cedar السابق ، ص ٤٦ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ٢٠١ / ١ .

(٤) السيوطي ، الدر المنشور في التفسير بالتأثر بالتأثر ٦ / ٣٩٧ ، [سورة قريش : ١٠٦] (طهران ١٣١٤هـ) والاعتقاد هو أن أهل البيت فهم كانوا إذا خسروا أموالهم إلى الصماري فيضربون على أنفسهم الأجنحة ثم يتناوبون فيها حتى يموتون من قبل أن يعلم الناس بورطتهم .

بعض الحصص من الأرباح مكافأً لعمله أو من الراجح مقابل توظيف المبالغ الصغيرة للأقارب الفقراء. ويدو أن هاشماً قد وسع الاتجاه في العناية بالمحاجين حتى أصبح مبدعاً اجتماعياً فيذكر الديار بكر أن أهل مكة كانوا في حالة فقر حتى جمعهم هاشم بإرسال القوافل إلى سوريا واليمن. لقد درجوا على تقسيم أرباحهم بين الأغنياء والفقراء حتى أصبح الفقير مثل الغني^(١).

وتشير الروايات إلى أن القوافل قبل عمل هاشم للايلاف كانت تبعث من قبل الأفراد وكان في ذلك مخاطرة كبيرة فالتجار معرضون للخسارة في حالة هجوم قطاع الطرق أو القبائل المعاوية. والتاجر الذي استمر كل ماله ربما خسر كل شيء. فكان الايلاف هو الذي جعل الرحلات أمينة^(٢).

وأخذ هاشم لقريش عصماً (رخصه) من ملوك الشام فتجروا أمرين ثم أن أخاه عبد شمس أخذ لهم عصماً من صاحب الحبشة، وأخذ لهم المطلب بن عبد مناف عصماً من ملوك اليمن، وأخذ لهم نوقل بن عبد مناف، عصماً من ملوك العراق^(٣).

وكانت حروب فارس وبيزنطة المتواصلة قد ساعدت قريش على احتكار تجارة الهند والحبشة واليمن وهي حروب انتهت بتنقلب الفرس على الروم. وبإغلاق المسالك التجارية عبر آسيا الغربية.

وهكذا أصبحت الحجاز ملتقى القادمين لليمن والمجاوزين إلى الطائف أو المتوجهين إلى الشام والمشرق.

وساعد موقع الحجاز بين الشام واليمن على طريق التجارة بين الشمال والجنوب على قيام مدن تجارية ينزلها التجار ويحطون بها للراحة فازدهرت مكة ويشرب والطائف. ومن العوامل الأخرى التي أدت إلى ازدهارها قربها من الأسواق التجارية المشهورة التي كانت تعقد في الأشهر الحرم لتأمين الناس أثناءها على

(١) تاريخ الخميس ١٥٦/١ .

(٢) كستر ، المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٣) كستر ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

أموالهم وأنفسهم^(١) ، مثل سوق مجنة وكانت سوقاً بأسفل مكة لبني كنانة. سوق حباثة قرب بارق وكانت سوقاً للأزد ، وسوق عكاظ الذي كان يقام في بسيط من الأرض بين مكة والطائف وينزلها قريش وسائر العرب وأكثرهم من الحضر^(٢).

ولم يكن المكيون في الأصل سواء وسطاء وبائعي مفرد ولم يكونوا مستوردين أو متعمدين يقومون بتنظيم القوافل ، ولكنهم في نهاية القرن السادس الميلادي سيطروا على القسم الأكبر من التجارة بين اليمن وسوريا وهي طريق رئيسية كانت تمد الغرب بالسلع الهندية الشمينة وبحور جنوب الجزيرة. وكانت الطائف تنافس مكة في التجارة.

وكانت منتجات الشرق الأدنى تتدفق على مكة من دلتا الفرات عن طريق الخليج العربي واليمن. ومنتجات مصر والشام عن طريق الشام وكانت مكة على اتصال وثيق ببلاد الحبشة يدل على ذلك وجود طائفة من الصنائع والشذاذ تعرف بالأحابيش أو عيدان أهل مكة أو سودان مكة.^(٣) وكان للمكيين وكلاء عنهم في نجران وتبلة وجرش وغيرها من المدن التجارية في شرق الجزيرة، وقد أتاحت موقع مكة التجاري من جهة ثم جيدة قريش من جهة، لها الفرصة لتحقيق نجاح واسع النطاق في هذا المجال. وقد حرص البيزنطيين على الاستعانة بالقرشيين كوسطاء للتجارة الهندية. وقد سعت مكة إلى التفاوض مع الدول لبلاد العرب للحصول على الضمان لتأمين تجارتها. ونجح القرشيون في عقد المعاهدات التجارية مع حكومتي بيزنطة وطيفون وكان يمثل الإمبراطور البيزنطي عظيم بصرى. ويمثل فارس حرزيان البحرين^(٤).

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١٦٦/١ تحقيق مصطفى السقا .

(٢) الأزرقي ، أخبار مكة ، ١٢٢/١ ، ١٢٣ .

(٣) سالم ، عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

وقد عقد القرشيون معاهدات معاملة مع الأمراء العرب مع شيخ قيس وأقبال اليمن وأمراء اليمامة وملوك غسان والجيرة.

وكانت قريش تفرض الضرائب على التجار الغرباء وعلى العرب الذين لا يرتبطون مع قبائل قريش بحلف^(١). ومن بين تلك الضرائب ضريبة العشور، إذ كانوا يعشرون من يدخل مكة من تجار الروم. وتشير الموارد الإسلامية إلى وجود عدد من تجار الروم في مكة واتخذ بعضهم موالي لأشراف أهل مكة مثل نسطاس مولى صفوان بن أمية^(٢). وصهيب الرومي وكان مولى عبد الله بن جدعان وكان أسيراً في بلاد الروم فاشتري منهم ثم أسلم^(٣) وكان بمكة قبطاً من مصر. وكان من بين تجار مكة من الروم من أندس بغية التجسس على العرب وتقطت أخبار الفرس وصلتهم بالعرب^(٤).

وجلب تجار الشام إلى مكة القمح والزيت والخمور ومصنوعات بلاد الشام. ويجلب تجار الحبوب حاصلات الهند من ذهب وأحجار كريمة وعاج وخشب الصندل والتراويل والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوان والزغفران والآنية الفضية والنحاسية وكانوا يحملون منتجات إفريقيا الشرقية واليمن كالأطياط وريش النعام وخشب الأبنوس واللبان والمرغو والجلود والأحجار الكريمة ومنتجات البحرين^(٥).

واشتهرت بعض الأسر المكية بثروتها الطائلة مثل عبد الله بن جدعان، وهاشم بن عبد مناف، وأبو سفيان، والمطلب بن عبد مناف، وكان الحج إلى الكعبة يدر أموالاً كانت من مصادر ثراء المكيين.

(١) المسعودي ، مروج ، ٥٨/٢ .

(٢) الأزرقى ، المصدر السابق ، ١٠١/١ .

(٣) أبو الفرج الأصفهانى ، الأغاني ، ٧٦/٤ .

(٤) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٨٠/١ .

(٥) علي جواد ، المصدر السابق ، ٢٠١/٤ .

(٦) المصدر السابق والجزء من ٢٠٦ .

(٧) أحمد شريف ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

ورغم كون الحج إلى الكعبة يشكل مظهراً دينياً للعرب في الجاهلية فهو وسيلة للاجتماع والالتقاء والتعارف. وكان وسيلة من وسائل التكسب بالتجارة لأن موسم الحج هو موسم الأسواق التجارية والأدبية مثل سوق مجنة وذي مجاز وعكاظ.

وتداول المكيون عملتين في تعاملهم التجاري ، الدينار والدرهم ، وهما عملتان أجنبيتان. فالدينار وحدة ذهبية عند العرب بيزنطية. في حين أن الدرهم وحدة فضية وهو عملة فارسية ونتج عن اشتغال المكيين بالتجارة أنه عرف أهلها الكتابة والحساب والمكاييل والموازين والمقاييس. فقد استعملوا في مكاييلهم الصاع والمد والمكوك. ومن الموازين الرطل والأوقية والنش وهو نصف الأوقية والدرهم والمثقال^(١).

وكانت مكة أكثر من مركز تجاري ، كانت مركزاً مالياً ، وكانت تجري فيها العمليات التجارية. وكان زعمانها من رجال المال ذوي الخبرة بالربا الماهرین في مرض ربائهم، ينتهزون الفرصة المناسبة لاستغلال أموالهم في عدن وغزة أو في دمشق. وللذا فلم يمسكوا في حبائلهم سكان مكة فقط بل زعماء القبائل المجاورة أيضاً^(٢).

وقد صنع المكيون الأسلحة من رماح وسكاكين ودروع وسيوف ونبال. وصنعوا الفخار والأسرة والأرائك وأشتلوا بالتجارة^(٣).

وفرضت قريش نفوذها على القبائل العربية من جراء سيادتها على الكعبة. فعلت مكانتها بين القبائل لتزعمها حلف الفضول. وقد عقد الحلف المذكور عندما اجتمعت بعض قبائل قريش في دار عبد الله بن جدعان التميمي وتعاهدوا على أن ينصروا كل مظلوم بمكة سواء أكان من أهلها أو من سائر الناس. وأن يكونوا على ظلمة حتى ترد عليه مظلمته ويسمى هذا الحلف الفضول لأنهم تحالفوا على رد الفضول إلى كل مقيم بمكة. ودخل الحلف بنو هاشم والمطلب وتميم بن مرة وزهرة

(١) المصدر السابق ، ص ٢١٦ ، جواد علي ، تاريخ العرب ص ٦٢ .

(٢) وات ، المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٣) ابن قيبة المعارف ص ١٩٤ .

ابن كلاب وبنو أسد بن عبد العزى ولم يشترك بنو نوفل بن عبد مناف وبنو عبد شمس. وشهده رسول الله ﷺ^(١).

ويسب اتساع متاجر قريش تمكنها قريش من أن يرتفع إلى مركز مرموق بين العرب فقد ذهب تجارها بقوافلها الضخمة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام وتمتنع قوافلهم بالأمن والاستقرار لأنهم حرم الله وولاته بيته. وقد درت هذه التجارة أموالاً طائلة على قريش وأصبحوا في سعة من العيش، حتى أمن الله عليهم بذلك قوله تعالى: ﴿لَيَأْتِهِمْ رِطْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيفِ﴾^(٢) فليقْبِدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ^(٣) الآية ألمعهم بين جموع ومامتهم بين خوفهم^(٤) [قرיש: ١] ويقول تعالى: ﴿أَوْلَمْ نَمَكِنْ لَهُمْ حَرَماً مَا مِنْ إِيمَانٍ يُجْعَلُ إِلَيْهِ ثَمَرَتْ كُلُّ شَفْوٍ زَنْقًا مِنْ لَدُنَّ وَلِكَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَلْمُرُونَ﴾^(٥) [القصص: ٥٧].

وقد ارتفعت معالم قريش لاشتغالهم بالتجارة، فقد اختلط تجارها بشعوب مختلفة ووقفوا على الكثير من مديتها وأحوالها الاجتماعية وتعاملوا مع أمم أجنبية تتكلم بلغات مختلفة عن لغتهم مما اضطرهم إلى تعلمها. وقد أنتاح كل ذلك الفرصة أمام الكثير من رجالهم لإظهار مواهبهم في العروب والسياسة بعد ظهور الإسلام.

أهم حواضر الحجاز :

أ- مكة : تقع مكة في واد غير ذي زرع تحيط بها الجبال من جميع الجهات. وليس في مكة نهر أو جدول أو عين جارية فكل ما فيها بشر تستقي منها الناس حفرتها بنفسها في هذا الوادي الجاف، عرفت «بشر زمم» وأمطار مكة قليلة، وقد تحبس عنها سنين طويلة وقد تنهمر انهماراً فتتسع سيراً تجرف ما يعترضه ويلحق الأذى بالناس.

وقد أثر موقع مكة وجوها في طباع أهلها فغلب على أهلها الجد والشدة وظهرت عليهم الصراحة والعزم، وبانت عليهم البيوسنة والغلظة واضطروا إلى خدمة من يأتיהם حاجاً، وتقديم كل ما أمكنهم من مساعدة إليهم لحملهم على العودة

(١) ابن هشام ، السيرة ، ١٤٤-١٤٦ .

إليهم وعلى الامتياز منهم^(١).

وروى المسعودي أن أقدم من حكمها وحكم الحجاز هم العمالقة ببرناسة السميدع بن هوير بن لاوي^(٢). ثم خلفهم بنو جرهم القحطانية. وكان إبراهيم قد أسكن ابنه إسماعيل مع أمه هاجر وبني البيت العتيق بالحجر بمعاونة ابنه إسماعيل. ثم تزوج إسماعيل امرأة جرهمية. وقام بأمر البيت بعد إسماعيل الحارت بن مضاض الجرمي. وهو أول من ولـي البيت.

وبعد سيل العرم نزحت خزاعة إلى مكة ونزلوا بظاهرها ثم نجحوا في التغلب على الجرميين في مكة وطردتهم منها. وكان عمر بن لحي أول من ولـي البيت منهم. ونجح في إيدال دين إبراهيم بعبادة الأوثان، فقد أحضر معه إلى الشام أصناماً نصبها حول الكعبة^(٣). وطلت خزاعة تدیر أمر البيت، وكانت مصر تمارس الإلـاحزة بالناس من عرقـة والإفاضة بهم غـدة النحر إلى من^(٤).

ثم تمكن قصي بن كلاب بن مرة من السيادة في مكة وانتزاع ولاية البيت من خزاعة، في أبي عبشان الخزاعي. والى قصي يرجع الفضل في جمع قريش وترتيبها إلى منازلها في مكة، إذ ميز بين قريش البطاح وقريش الظواهر. فأما قريش البطاح فهم بطنون قريش الذين سكنا مكة نفسها ومنهم الأثرياء والتجار وهم بنو عبد مناف وبنو عبد العزى وبنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو زهرة وبنو سهم وبنو عدي وبنو عتبـك بن عامر وبنو مـرة وبنـو جـمـعـ. وسـكـنـتـ قـريـشـ الـظـواـهـرـ خـارـجـ مـكـةـ،ـ وـمـنـهـمـ بنـوـ عـامـرـ بنـ لـوـيـ وـالـحـارتـ بنـ فـهـرـ وـبـنـ الـادـرـ وـبـنـ مـحـارـبـ^(٥).

ولما حقق قصي سيطرته على قريـشـ وـدـانـتـ لـهـ،ـ بـنـيـ دـارـهـ فـسـمـيـتـ بـدارـ النـدوـةـ لأنـهـ كـانـواـ يـنـتـدـبـونـ فـيـهاـ فـيـتـحـدـثـونـ وـيـتـشـاـورـونـ فـيـ حـرـوـبـهـ وـأـمـرـهـ وـيـعـقـدـونـ الـوـلـاـيـةـ وـيـزـوـجـونـ مـنـ أـرـادـ التـزـوـيجـ^(٦).ـ وـكـانـتـ هـذـهـ الدـارـ بـمـثـابـةـ حـوـكـمـةـ يـدـيرـهاـ المـلاـ

(١) علي ، جواد ، تاريخ العرب في الإسلام ص ٥١ .

(٢) مروج الذهب ، ٢٦/٢ ، الأزرقي ، المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٣) ابن الكلبي ، الأصنام ، ص ٨ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٧٩/١ .

(٤) المسعودي ، المصدر السابق ، ٥٧/٢ ، ابن خلدون تاريخ ٦٨٩/٢ .

(٥) المسعودي ، المروج ، ٥٩/٢ .

(٦) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ٩٧/١ .

أو مجلس الشيوخ وهي دار مشورة في السلم وال الحرب. وكانت لقصي إلى جانب ذلك الحجابة والرفادة والسفاة واللواء والقيادة، وفرض قصي على قريش الأموال لرفادة الحجاج فكانوا يخرجون الأموال ويأمر قصي بإنفاقها على طعام الحجاج وشرابهم^(١).

أما الحجابة فالقائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة. وأما الرفادة فهي إطعام الفقراء من الحجاج أو من لا زاد له منهم. والسفاة هي القيام بسقاية الحجاج عن طريق أحواض أدم كانت توضع في وسط الكعبة ومني وعرفات. وأما اللواء فهي راية يللوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر. والقيادة قيادة الجيش. عند الحرب يتولاها قصي أو من ينوبه عنه.

ولما كبر سن قصي ودق عظمه أو كل مهمة مهام مكة إلى ابنه البكر عبد الدار، فلما هلك أجمع بنو عبد مناف بن قصي، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ووغل على أن يأخذوا ما بأيديبني عبد الداربني قصي، ورأوا أنهم أولى بذلك فهم لشرفهم عليهم، وفضلهم في قومهم. فتعرضت قريش عند ذاك.

وتحالف بنو عبد مناف معبنيأسد وبني زهرة وبني تميم بن مرة وبني الحارث. وتحالف بنو عبد الدار معبني مخزوم وبني سهم وبني جمع وبني عدي. وأجمع كل من الفريقين على الحرب^(٢).

روى ابن سعيد في كتابه «نشوة الطرف»، أن الفرس أقدموا بمحاولة لغرض سلطانهم على مكة. وكان ذلك أيام قباز الذي تزندق وتبع مذهب مزدك وعزلبني نصر من حكم الحيرة، لرفضهم دينه ووافقه الحارث الكندي، وقد بلغ هذا التيار مكة. فتزندق بعضهم، وكان هناك أناس امتنعوا عن هذا الدين ومن هؤلاء عبد مناف الذي جمع قومه وأخبرهم أنه من يتخل عن دين إسماعيل وإبراهيم ويتبع ديناً يفرض بالسيف، وحين عرف الحارث بالأمر أخبر قباز بذلك فأمره قباز أن ينهض إلى مكة ويهدم البيت ويقتل عبد مناف ويزيل رئاسةبني قصي، فكره الحارث ذلك

(١) ابن هشام، المصدر السابق، ١٢٢/١ ، ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ١٣٨-١٣٩ .

وداخنته حمية للعرب فدراً عنهم وشغل قياد بغيرهم^(١).

وحاول الأحباش فرض نفوذهم على مكة كما مر بنا سابقاً، وقد باعه محاولة الأحباش بالفشل بسبب انتشار وباء خبيث بين العبيش فتک فيهم، فحاول البرتغاليون الاقتداء بفعل العبيش فلم ينجحوا وهكذا كتب لمكة ألا تطأها أقدام الغزاة قبل الإسلام وبعد الإسلام.

واتفق المتنازعون على إدارة مهام مكة على أن يعطوابني عبد مناف السقاية والرفادة. وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار واصطلحوا وتحاجزوا عن الحرب، وثبت كل قوم مع حالفوا وظلوا على هذه الحالة حتى ظهور الإسلام^(٢).

وظلت دار الندوة لعبد الدار ولولده حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن معاوية بن أبي سفيان، فجعلوها داراً للإماراة. وكانت الحجابة لعبد الدار ثم لابنه عثمان ثم ابنه عبد العزي ثم ابنه عبد الله ثم إلى ابنه أبي طلحة، وظل اللواء في عبد الدار إلى أن أسلم بنو عبد الدار^(٣) وصارت السقاية والرفادة إلى هاشم بن عبد مناف ثم لعبد المطلب بن عبد الله ثم لعبد المطلب ثم للزبير بن عبد المطلب ثم لأبي طالب ثم إلى العباس بن عبد المطلب ثم آلت إلى عبد الله بن عباس^(٤).

ومكة وإن كانت مجتمعاً مستقراً حضرياً، غير أنها لم تكن حضرية تامة الحضارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم لأن الحياة فيها كانت مبنية على أساس العصبية القبلية المدينة مقسمة إلى شعاب والشعوب هي وحدات اجتماعية مستقلة تحكمها الأسر وبين الأسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ.^(٥)

(١) كستر، المصدر السابق، ١/١٠-١١.

(٢) ابن هشام، المصدر السابق، ١/١٤٠.

(٣) البلاذري ، المصدر السابق والجزء من ٥٥.

(٤) نفس المصدر والجزء من ٥٧ ، وانظر كستر ، المصدر السابق، ص ٥٦.

(٥) علي ، جواد، تاريخ العرب في الإسلام ص ٥٦.

وتورد المصادر الأولية معلومات هامة عن حالة مكة الاجتماعية والاقتصادية فقد كانت فكرة مخالطة الفقير أو الأدنى مرتبة مع الغني، كانت المثل أعلى في المجتمع الجاهلي. روى ابن هشام تعهداً مكياً خاصاً بمساعدة المحجاجين القادمين إلى مكة من فضله مال القوم الداخلين في حلف الفضول. قال: (وتعهدوا على مواساة أهل الفاقهة من ورد مكة بفضل أموالهم)^(١).

وهناك روايات تفيد أن حكيم بن حزام اعتاد توزيع أرباح قوافله على فقراء ومحجاجي قومه^(٢). وكان والد نعيم بن عبد الله يطعم فقراء عدي.^(٣)

تعكس الروايات السابقة الذكر بوضوح الاتجاه للعناية بالفقراء والمحجاجين في مكة. روى القمي نصاً بين عي المككين الاجتماعي وعنايتهم بالفقراء إذ يقول: (وكانت قريش يتفحصون عن حالة الفقراء ويسلدون خلة المحاوبيج)^(٤).

ويبدو أن هاشماً قد وسع الاتجاه في العناية بالفقراء والمحجاجين حتى أصبح مبدأ اجتماعياً. روى الديبار بكري رواية حول هاشم في سند عن ابن عباسي تفيد، أن أهل مكة كانوا في حالة فقر حتى جمعهم هاشم بارسال القوافل إلى سوريا والميمن، لقد درجوا على تقسيم أرباحهم بين الأغنياء والفقراء حتى أصبح الفقير مثل الغني)^(٥).

وبين ابن حبيب ما لرجال الإيلاف من أهمية لقريش أن بسبعين رفع الله قريشاً وجعل فقيرها غنياً. فقال (الإيلاف من قريش الذين رفع الله بهم قريشاً ونعمش فقراءها)^(٦).

وبلدة مثل مكة مقدسة ومتاجرة وعاصرة للثقافة وللحياة الدينية ولها اتصال بالخارج لا بد أن يكون بين سكانها جماعة من المثقفين ومن الباحثين في أمور

(١) السيرة، ١٤١/١.

(٢) الزير بن بكار ، نسب قريش ، (القاهرة ١٣٨١ هـ) من ٣٦٧ رقم ٦٤٤ .

(٣) كستر ، المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٤) غرائب القرآن (على حاشية تفسير الطبرى ١٦٩/٣٠).

(٥) تاريخ الخميس ، ١٥٦/١ .

(٦) المعبر ، ص ١٦٢ .

الذين ومن القراء الكاتبين والواقفين على أخبار العالم وعلى الحركة العلمية في الخارج، وقد ذكر القرآن الكريم وقوف القوم على أساطير الأولين وعلى أخبار الماضين وعلى أحوال الدنيا، في ذلك الزمان، وقد عرفوا القراءة والكتابة وأحاطوا بالعلم والمعرفة^(١).

ورغم ما ذكر من محسن المجتمع المكي فإن تلك المحسنات كانت حالات نادرة وفردية، لكن المجتمع المكي كان يفتقر إلى المحبة والألفة، ولم تكن هناك وحدة تجمعية، وكانت الأنانية والروح القبلية التي هي نفسها أنانية متوسعة لم تكن تساعد على ظهور مجتمع متوحد كبير، وكان التعاون مفقوداً بسبب الوضع المالي السيئ ووجود فقر عام والمجتمع الفقير لا بد أن تعمه الفرقة ويظهر فيه التطاحن بين الناس في سبيل العيش والرزق. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة وقد ذكر القرآن المؤمنين بذلك الوضع الذي كانوا فيه وحثهم على الوحدة وعدم المغoda إلى الحياة الصادقة للإسلام، قال: «وَاعْتَصِمُوا بِعَيْنِ الْأَنْوَارِ جَيْبًا وَلَا تَنْزَفُوا وَإِذْ كُرُوا يَنْتَسَطُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذَا كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَالَّتَّى بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحُوكُمْ يَنْتَسِيْهُ إِيمَانُكُمْ» [آل عمران: ١٠٣] وقال سبحانه مخاطباً الرسول ﷺ: «هُوَ الَّذِي أَنْذَكَ يَنْهَا، وَإِلَيْهِمْ يَنْهَا وَالَّتَّى يَنْهَا قُلُوبُهُمْ لَوْ أَنْشَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَيْبًا مَا أَنْذَكَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَنَّهُ أَنْذَكَ بِيَنْهَمْ إِلَيْهِ حَكِيمٌ» [الأناقل: ٦٣].

ب - يثرب :

ويثرب من مدن الحجاز القديمة وقد ورد ذكرها في الكتابات المعنية، وذكرها بطليموس في جغرافيته وسمها الرسول ﷺ طيبة وطابة كراهة للشرب والفساد وهو الاسم القديم لها والذي كان يعني المؤاخذة بالنسب^(٢) وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم باسم يثرب^(٣)، أما اسم المدينة فقد أطلق عليها بعد الهجرة وذلك اختصاراً من (مدينة الرسول) لتزول الرسول ﷺ بها.

(١) علي، جواد، تاريخ العرب في الإسلام ص ٦٩-٧٠.

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ١٤٨/٢ .

(٣) راجع سورة الأحزاب / ١٢ ، ١٣ .

مناخ يشرب معتدل وأرضها خصبة ومياها وافرة، ولذا فقد اشتغل أهلها بالزراعة، وجل زراعتها تقوم على التخليل والشعر والقمح والفواكه مثل الأعناب والرمان والموز والليمون والبطيخ والخضروات^(١).

وضمت يثرب قبل الإسلام كتلتين رئيسيتين من السكان هم العرب واليهود. وقد نزلها العرب قبل اليهود. وعرب يثرب من أهل اليمن، من بلس وسليم والأوس والخزرج، جاءوا إليها بعد هدم سد مأرب. أقام الأوس والخزرج مع اليهود وتحالفوا وتعاقدوا مع اليهود واشتركوا وتعاملوا معهم^(٢). سكن الأوس جنوب وشرق يثرب، وسكن الخزرج في الشمال الغربي من يثرب وجاوروا قبيله قينقاع اليهودية.

وقد رحب اليهود بحلفهم مع الأوس والخزرج لضمان سيادتهم على يثرب وليسخذلوا حلفاءهم في رد أي غزو خارجي على يثرب. ثم أنهم أخذوا يسعون على البقاء على صلات الجوار بينهم وبين قبائل العرب في مدن والتجمعات العمرانية المجاورة ليثرب.

وبذلك يتمكنون من مد نفوذهم على المدينة من جهة ويقوون تظاهرهم بالاندماج بين العرب من جهة ثانية ويسبغون على سيادتهم على يثرب نوعاً من الشرعية.

ومن المحتمل أنهم كانوا يفكرون في الاستفادة من خبرة الأوس والخزرج الزراعية ويصطنونهم من الأعمال التجارية وبذلك ينمون ثروتهم ويزيدون أموالهم. روى ابن خرواذبة أن مربزيان البادية الفارسي عين عاملاً على المدينة وقد جبي خراجها. وأن قريضة والنضير كانوا يحكمون المدينة باسم الفرس^(٣).

(١) الشريف أحمد المصدر السابق ، ص ٢٥٦.

(٢) النجار ، محمد بن محمود ، الدرة الثمينة في تاريخ المدينة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٦٦ ، ابن وستة ، الأعلام الفنية ص ٦٢ .

(٣) المسالك والمعالم (لابيدن) ص ١٢٨ .

وقد شك اليهود بالعرب وخشووا سيطرتهم عليهم فأخذوا يبتون الأطام والحسون ويراقبونهم عن كثب. فوقع الصدام بين اليهود والأوس والخزرج.. واستنجد الأوس والخزرج بأخوانهم الغساسنة في الشام. فسير لهم الغساسنة جيش يقل عن فرقة. وتمكن الأوس والخزرج من غلبة اليهود في يثرب. واتحد الأوس والخزرج حيناً . ثم ساءت العلاقات بين الأخرين ووقع الخلاف وانتهى الأمر بقيام حروب بينهما امتدت حتى قبيل الهجرة النبوية ومنها يوم الفجار الأول والثاني ويوم بعاث وقد حدثت هذه الحرب قبل الهجرة بخمس سنوات.^(١) وكان لليهود يد في هذه الحروب لأنهم كانوا يسعون إلى تفتت وحدة الأوس والخزرج لينالوا منهم وسيطروا عليهم^(٢).

وكانت الأوس هي المنتصرة في جميع الأيام السابقة لبعثة.

ويعود الخلاف بين الأوس والخزرج إلى أن رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البشّاصي الذي كان يتطلع إلى إزالة قومه في منازل بني قريضة والتضيير، وكانت أكثر ميائةً ونحلاً من منازل الأوس. والسبب الثاني هو التنافس على الرئاسة في يثرب، إذ لم يقبل الأوس أن يتبااهي عليهم الخزرج الذين انتصروا على اليهود بقيادة مالك بن العجلان الخزرجي^(٣).

وكانت نتيجة الصراع في صالح الأوس لكنهم لم يتمكنوا من القضاء نهائياً على الخزرج، ولم ينساق الأوس وراء اليهود ببني النضير وقريضة، وقنعوا بحد سطوة الخزرج وفطنوا العيان إلى ما يرمي إليه اليهود في ضرب فريق منهم بالأخر حتى تصبح لهم السيادة فعمدوا إلى تحقيق السلام من يثرب وفكروا في تولية كل واحد منهم أميراً وسيداً عليهم، فكان سيد الخزرج عبد الله بن أبي ابن سلوى. وكان سيد الأوس أبو عامر عبد عمر بن صيفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد^(٤).

(١) المسعودي ، ١/١٥٥ (القاهرة ١٣٢٦ م).

(٢) الشريف أحمد ، المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .

(٣) سالم ، عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٤) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢/٢٣٤ - ٢٣٥ .

اشتغل أهل يثرب بالزراعة والتجارة. وكانت تقام بها الأسواق المختلفة لبيع التمور والشعير، والخطب والصوف والسلاح. ومن أسواقها : سوق بني قينقاع وسوق زبالة وسوق الجسر وسوق البطحاء. وكان التجار يجلبون إلى أسواقها الزبيب من الطائف، والمنسوجات القطنية والحريرية من اليمن. والحنطة من الشام^(١).

وcameت في يثرب صناعات مختلفة، تعتمد على المواد الزراعية مثل صناعة الخمور وصناعة القفف من سعف النخل والتجارة. وصناعة التحف المصنوعة من المعادن كاللحلي وأدوات الزينة وصناعة الأسلحة والدروع^(٢).

ج - الطائف :

وكانت الطائف المدينة الثانية في الحجاز من حيث الأهمية الاقتصادية، ويقتنى اسمها عادة بمكة. فيقال مكة من الطائف والطائف من مكة وكانت تسمىان بـ (القربيتين)^(٣) كما عرفت بالمكتين. وقد يكون المقصود بالمكتين الباطح والظواهر، والطريق بين مكة والطائف طريقيان.^(٤) ومناخ الطائف طيب وهوأوها معتمد^(٥) وكانت مصيفاً لأهل مكة.

ونظراً لاعتدال مناخها وخصوبية تربتها وتتوفر المياه العذبة فيها، فقد نشطت زراعتها. وكانت الحنطة أهم محاصيلها التي تعتمد عليها كل حواضر الحجاز وخاصة مكة. وعرفت الطائف بكثرة أعنابها ونخيلها، وموزها إضافة إلى الرمان والخوخ والبطيخ والتين^(٦).

(١) السمهوري ، المصدر السابق ، ٥٤٤/١ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ٥٤/٣ .

(٣) أنظر سورة الزخرف / ٣١ .

(٤) المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٥) الحموي ، معجم البلدان ، ٩/٤ (مادة الطائف) .

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ١/٦٩ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٧ ، الحموي ، المصدر السابق والجزء والصفحة ، المقدسى ، المصدر السابق من ٧٦ .

واشتغل الطائفون بتربية النخيل واستخراج العسل والتجارة والصيد^(١).

وسكن الطائف من ثقيف وقد أحاطت بهم قبائل مضر واليمن وقضاء من كل جهة. وحمت ثقيف وارها وكافحت العرب عنها^(٢).

وكان يسكن الطائف إلى جانب بني ثقيف جماعة من حمير وقوم من قريش كما سكنتها جماعة من الخزرج والأوس ومزينة وجهينة^(٣).

وكانت العلاقة بين مكة والطائفوثيقة جداً اجتماعياً واقتصادياً فمن الناحية الاجتماعية كان يقال: (قريش وختناه ثقينان أو ثقفي وختناه قريشيان)^(٤) وكان لعامة قريش مزارع ويساتين في الطائف فقد كان لعمر بن العاص كروم كثير كما كان لعمر ابن الخطاب أملاكاً وكذلك للعباس بن عبد المطلب أرضاً بالطائف مزروعة بالكرום^(٥).

وقد سكن اليهود في الطائف إلى جانب العرب وأقاموا فيها التجارة كما سكن قوم من الروم ومنهم من نصارى نينوى^(٦).

كانت الطائف المركز الديني الثاني بعد مكة في الجزيرة العربية فقد كان للطائفين بيت يسترون به بالثياب ويهدون له الهدايا ويطروقون حوله ويعظمونه كتعظيم قريش للكعبة^(٧) وكان هذا البيت يضم صخرة مربعة تسمى اللات وكان سلتها من ثقيف وقد عظمها جميع العرب^(٨).

(١) البلاذري ، المصدر السابق ، ٦٧/١ ، أبو يوسف ، الخراج من ٤٠ ، القرآن الكريم ، سورة التحريم / ١ .

(٢) البكري ، معجم ما استجم ، ٦٤/١ ، الحموي ، المصدر السابق / ٤ . ١٠ .

(٣) الحموي ، المصدر السابق ، ٩/٤ .

(٤) سالم ، عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

(٥) البلاذري ، المصدر السابق ، ٦٦/١ ، الأزرقي ، المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٦) البلاذري ، المصدر السابق ، ٦٥/١ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٦٢/٢ .

(٧) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤٩/١ ، محمد نعمان الجارم ، أدیان العرب في الجاهلية ، (القاهرة ١٩٤٣ م) ص ١٤٩ .

(٨) ابن الكلبي ، المصدر السابق ، ص ١٦ .

الفصل الثالث

حضارة العرب قبل الإسلام

١- المجتمع العربي ومكانة المرأة العربية :

انحلت الدول العربية قبل الإسلام، وكانت قد حاولت أن تقيم نظاماً سياسياً عاماً لا يقتصر على مجموعة صغيرة، وساد النظام القبلي لا في الصحراء فحسب بل حتى في أغلب المدن الموجودة على أطراف الجزيرة العربية. وقد قدر كاشكل بأن نصف سكان شمال شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا من القبائل البدوية في حين ترتفع النسبة إلى ٧٥٪ في جنوب شبه الجزيرة.

وقد ظهرت البداوة في البادية السورية مبكرة قبل ظهورها في شبه الجزيرة العربية نفسها وذلك للاضطرابات المستمرة في الشمال بتأثير الموجات والهجرات السياسية للبدو^(١) لقد قام النظام البدوي على أساس القبيلة. وتنقسم القبيلة إلى ثلاث أقسام اجتماعية وهي العرب الصلبية والخلفاء والعبيد. والصلبية هم أصل القبيلة وينحدرون من أصل واحد مشترك هو جدهم الأعلى وهم متساوون نظرياً ولهم حق الاحتفاظ بحريتهم ولهم حق الإجارة^(٢).

والنسبة منهم عند القبيلة لأنه يعكس نقاوة دم الفرد وارتباطه بها، وقد ظل الاهتمام به حتى مجئ الإسلام. ولا يمكن تحديد أفراد كل قبيلة بالضبط، فبعض القبائل الصغيرة جداً لا يتجاوز عدد أفرادها أصابع اليد^(٣) وهناك قبائل كثيرة العدد على الآلة الكاتبة .

(١) ف. كاسكـل ، الدور السياسي للبدو في التاريخ العربي ، ترجمة د. منذر البكر . مكتوب على الآلة الكاتبة .
 (٢) البازجي ، كمال ، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط ، (بيروت ١٩٦٠) ص ١٨ ، العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٣) ابن حبيب ، المحبر ، ص ٢٥٦ .

وهي تقسم إلى أقسام كالعشيرة والبطن والفخذ والفصيلة والرهاط والحي. ولا يمكن تحديد هذه الأقسام بالضبط أيضاً.

وأما الحلفاء فهم الذين لجأوا إلى القبيلة وطلبوها حمايتها أو حماية أفرادها. والغرض من لجوئهم أن يتالوا حماية القبيلة التي يحالونها. وهم في الغالب من الحلفاء الذين قاموا بأعمال سيئة في قبليتهم الأصلية للدرجة أصبح وجودهم فيها غير مرغوب فيه فطردتهم. أو أنهم غرباء جاءوا إلى القبيلة ليتزوجوا إحدى نسائها ويسكنوا مع قبيلة المرأة أو جاءوا إلى القبيلة ليتاجروا معها^(١).

ولكي يظفر الفرد بالحماية يكتفي أن يرتمي بين أيدي المرأة أو يدخل خيمة رجل أو يمسك حبل الخيمة^(٢) وعلى الرجل أو القبيلة أن تحميه وتدافع عنه، إذ أنه ليس من مروءة الناس رد دخالته، ويجوز للحامي أن يفسخ الحماية ولكن يجب أن يتم أمره.

وللحلف مراسيم وهي : القسم الذي يكتسب صفة قدسية، ثم يعقب القسم لعق الدم ليعرض الدم الملعون عن الدم الموروث.^(٣) ويغمس الأيدي في الطيب.

ولا يقتصر الحلف على الأفراد فهناك أحلاف جماعية، أي تتحالف قبيلة مع قبيلة أخرى وهو في هذه الحالة أقرب إلى المعاهدات ومن أمثل هذا النوع من الأخلاق: حلف الفضول وحلف الرباب وحلف الحمس. وحلف قريش والأحباش وحلف العطيين^(٤).

ويشكل العبيد الفتنة التالية من فنات القبيلة، ومصدرهم الأسر في الحرب أو الشراء وخاصة من أفريقية، أو الدين أو القمار وهم أدنى فئة اجتماعية في القبيلة

(١) جمعة ، محمد ، محمود ، النظم الاجتماعية و السياسة عند قدماء الساميين ص ١٤٨ ، الحوفي ، محمد أحمد ، الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص ٣١٧ .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ١٩ / ٨٠ ، العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(٣) أبو الفرج الأصفهاني "الأغاني" ، ٧ / ٢٦ ، ابن منظور ، لسان العرب (مادة سم).

(٤) ماجد ، عبد المنعم ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ١ / ٥٢ .

(٥) الجميلي ، رشيد ، المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

وتوكل إليهم مهمة الأعمال اليدوية ورعاية الحيوانات وهم لا يشتركون في الحرب ولا يملكون الحرية الاجتماعية ومثقلين بالواجبات تجاه الأسيد. ويعدون ملكاً للسيد يباعون ويشترون بيع الأموال المقتولة^(١).

وقد تحسن معاملة بعضهم وخاصة أسرى الحرب الذين كانوا يحتلون مكانة مرقومة في قبائلهم. كما أن قبائلهم الأصلية تفكهم بالغداة أو بمبادلة الأسرى. وقد يستعيد بعضهم حرية مقابل خدمات يقدمونها لأسيادهم تبرر عتقهم وتحرير رقابهم^(٢).

وقد سميت القبائل العربية بأسماء مشتقة إما من أسماء الآلهة الوثنية القديمة كزيد اللات و وهب اللات و سعد مناة و عبد شمس أو من أسماء أشخاص ، ولكن أغلبها مستمدّة من أسماء حيوانات مثل بكر، أسد، بهة (بقر الوحش) ثعلبة، ثور، حمام، ذئب، منية فهد ... الخ^(٣).

ويمتاز القبلي بصفات متعددة منها :-

١- الشجاعة : في ظروف بيئية صعبة كالتي عاشها العرب في جزيرتهم تفتقر إلى الحكومة المركزية وما يتربّ على ذلك من فقدان الأمن والاستقرار كان للشجاعة دورها كبير في حياتهم ، والشجاعة منزلة لا تعلوها منزلة أخرى. فقد عرف العربي بعدم مبالاته بالموت ، وكان يستهين بنفسه في سبيل الدفاع عن عرضه وشرفه . ولذا فإنه إذ درى الموت واستهجن البكاء والتواح وأنف من أن يموتون حتفه ، لأنّه اعتبر الموتة الكريمة هي الموتة في ساحة الوعي.

قال عمرو بن كلثوم :

سعاذ الله أن تنوح نساونا على هالك أو أن نضج من القتل^(٤)
قراع السيف بالسيوف أملنا بأرض براح ذي أراك وذي أشل

(١) علي ، جواد ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤٢/٨ ، العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ١٣٦.

(٢) اليازجي ، المصدر السابق ، ص ١٨.

(٣) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ١٣٠.

(٤) الالوسي ، بلرغ الأربع ، ١٣٣/١ - ١٤٤ . والبراج الأرض الخالية من العمran . الأرائك والائل نوع من الشجر .

-٢- الكرم : عرف العربي بالكرم والترحيب بالضيف والاحتفاء به. وقد اعتبر الكرم إحدى مظاهر السيادة عنده فكان يباهي الآخرين بكثرة ضيوفه. وكان العربي يوقد النار شتاء ليهتم بها الغرباء. ويتزلون عليه ضيوفاً^(١) وكان يجذب الضيف بنباح الكلاب. وإن ظل أحد الضيوف الطريق ولم ير ناراً نبع كما تنبع الكلاب فتجيء الكلاب فيتمكن بذلك من الاهتداء إلى من يستضيفه^(٢).
ومن رجال العرب الذين عرموا بالكرم : حاتم الطائي وكمب بن أمامة الأيداري وأدس بن حراثة بن لام الطائي^(٣).

-٣- العفة : جاء في لسان العرب (العفة : الكف عما لا يحل ...) والكف عن الحرام وسؤال الناس وفي بيته كالتى عاش بها العرب في جزيرتهم والتي قامت فيها الأخلاق. على الآباء والاعتزاز بالشرف كان لا بد للرجال والنساء من التغافل، لأن العدوان على العرض معناه جر فاعله إلى ويلات الحرب، فكان إذاً لا بد من حماية العرض من أن يمسه أو يلطخ بالعار^(٤).

عرف العربي بغض النظر عن النساء. واعتبر ذلك من شروط السيادة وهي كالشجاعة والكرم. قال عترة بن شداد :
وأغضض طرق ما بدت لي جاري حتى يداري جاري مأواها^(٥)
وقالت النساء في أخيها صخر :

لم تره جارة يمشي بساحتها لريبة حين يخللي بيته الجار

-٤- الوفاء : تمسك العربي بالوفاء بالعهد. وكان يعده ديناً عليه ويسهين في سبيله قتل أولاده وتخرّب داره. وكان يغالى في الوفاء لجاره وللحليفة لدرجة يكون عنده مقدماً على أبناءه وآخواته^(٦). وقد عرف العربي بتمسكه بالعهود وحفظها وكراه

(١) الالوسي ، المصدر السابق ، ٦٩/١ .

(٢) المصدر السابق والجزء ص ٥١ .

(٣) المصدر نفسه والجزء من ٨٢،٧٥ ، ٨٤ .

(٤) الحوفي ، الحياة العربية في التسعراجاهمي ، القاهرة ن ١٩٦٢ ص ٦١ .

(٥) سالم ، السيد عبد العزيز ، المصدر السابق من ٦٠٩ .

(٦) الخضرى ، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، ٤١/١ - ٤٢ .

الغدر واستهجن الكذب وقبحه. وقصص الوفاء كثيرة منها قصة هاني بن مسعود الشيباني الذي أصر على المحافظة على ودائع النعمان. وقد أدى حرصه على المحافظة على الودائع إلى قيام حرب بين العرب والفرس في ذي قار. وقصة وفاء ابن زهير المازني الذي قتل أخيه لغدره بجارة. ويكتسب العربي من الوفاء شرفاً عظيماً ينتقل إلى أعقابه^(١).

٥- حماية الجار: وأعز العرب الحليف والجار وضموا من أجل حمايته إلى حد الموت وذلك أنه إذا مات دفع حاميته ومحجره بيته إلى أهله^(٢). ومن ضرب به المثل في حماية الجار من بني شيبان عوف بن محلم وقصة البسوس جارة جساس بن مرة الشيباني ضرب آخر من ضروب حماية الجار وكان حطر بن شريك الشيباني من رجالات بني شيبان الذي اشتهر بحماية الجار والذود عنه.

مركز المرأة في المجتمع القبلي :

للرجل السيادة على زوجته وأولاده قبل بلوغهم ولذا فقد كان المجتمع البدوي مجتمعاً أبوياً. ومع ذلك فالمرأة مكانتها المرموقة التي تتناسب مع ما تؤديه من خدمات. فقد كانت تقوم بأعمال كبيرة في البيت خاصة وأن كان المجتمع البدوي قاسياً إذا أن البدوي كان يمتهن الحرب والرعي. يضاف إلى ذلك فإن المرأة كانت تنتج الأولاد الذين هم عماد القبيلة وعلامة قوتها خاصة إذا كان الأولاد قادرين على أن يكونوا لأنفسهم مكانة مرقومة في القبيلة. وتدخل المرأة إلى البيت البهجة والسرور وحياة روحية جميلة إضافة إلى مشاركتها في الحروب كتضميده الجرحى ونظم الشعر وتشجيع المقاتلين^(٣).

وتعد المرأة من أهم عناصر الشرف وأصبح الدفاع عنها من المروءة التي يفتخر بها العربي. وكان العربي لا يرفض من يستجير بها. ومن دلائل احترامها أنها كانت

(١) علي ، جواد ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٣٤٢/٦ ، سالم ، السيد عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٦١٠ .

(٢) الحوفي ، الحياة العربية في الشعر الجاهلي ، ص ٢٨٥ ، طبعة ١٩٦٢ .

(٣) الحوفي ، الحياة العربية في الشعر الجاهلي ، ص ١٥٧ (طبعة ١٩٤٩) ، ابن هشام ، السيرة ، ١ - ٥/١ - ٧ - ٦ - ٥٨ .

تغاطب العرمة من الاحتراام ، ويربه البيت^(١).

وكانت المرأة تتمتع بحقوق كثيرة ، فقد كانت تملك أملالاً خاصة بها وخير مثال على ذلك خديجة بنت خويلد الأسدية وجليلة بنت المهلل التي كانت لها غنماً يرعاها زيد الخيل^(٢) ولم تكن تتزوج إلا بعد موافقتها. وكانت تتمتع بحق رفض من لا تريده من يطلبون يدها^(٣) وأعطي لبعضهم حق الطلاق^(٤). وتظل المرأة مرتبطة بأهلها وقبيلتها التي تدافع عنها حتى بعد زواجها^(٥).

وكان مستقبل القبيلة ومكانة الجيل يتوقفان على الزوجة فهي التي تنجذب لهم النجاء ، يضاف إلى ذلك فإن الزوجة تقوم بدور سياسي واجتماعي هام؛ فالزواج يؤدي إلى ترابط الأسر البعيدة والعشائر مع بعضها ، لأن رابطة الفرد مع عشيرته أخواله لا تقل أهمية عن رابطته بعشيرة أعمامه. لذا فقد كان العربي يهتم باختيار الزوجة ، ويهدف دائماً أن تكون كفؤة ونجيبة. ذكية وجميلة. كان العربي يميل للمرأة الطويلة العنق فارعة القامة لينة الجسم مماثلة الذراعين والساقيين عظيمة الوركين ناعمة البشرة. ذات فم طيب الرائحة^(٦).

ولم يكن العربي يرهق المرأة بالأعمال والواجبات كما فعل الفرس واليونان إذ كانت الأسر الراقية لا توكل الأعمال المنزلية للنساء إلا في النادر إذ تكتفيهن الإمامات والخدمات مؤونة الطبخ وجلب الماء وضرب الخيام. وكانت نساء الطبقة الوسطى تقوم بأداء الأعمال البيتية بأيديهن. وكانت إدارة البيت منوطه بالمرأة. أما السيادة فاللرجل. ولم يكن من المستحسن عند العربي خضوع الزوج لزوجته ، فهو يراقب بيته وزوجته^(٧).

(١) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني ، المصدر السابق ، ٥٠/١٩ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ٤٦/١ .

(٤) ابن حبيب ، المعbir ، ص ٣٩٨ .

(٥) الطبرى ، المصدر السابق ، ١٧٦/٢ .

(٦) العلي . أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ١٤٢ ، الالوسي ، المصدر السابق ، ٦/٢ .

(٧) الهاشمي ، علي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، (بغداد ١٩٦٠) ص ٦٤ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٥٦ - ٥٧ ، سالم عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٤٨٠ .

وظهرت نساء عربيات لعبن دوراً كبيراً في التاريخ العربي قبل الإسلام في السياسة والاقتصاد والأدب والدين مثل زنوبيا ملكة تدمر، وبليقيس ملكة سبا والخنساء بنت عمرو. والسيدة خديجة بنت خويلد الأسدية، وفي مكة نفسها كان مفتاح الكعبة يهد امرأة هي حبي بنت خليل الخزاعي زوجة قصي بن كلاب^(١).
الوأد :

تحتاج المرأة إلى المدارات والمحافظة عليها من المعتدلين أو الفقر أو من عاديات الزمن. لذا فقد اغناط بعضهم من ولادتها. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك «إِذَا بَيْتَرَ أَهْدُمْ بِالْأُنْفَنَ ظَلَّ وَجْهُهُ مُشَوِّداً وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٩٠ يَنْزَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ شَوَّهَ مَا بَيْتَرَ بَهَةٌ أَيْسِكُمْ عَلَى هُوبٍ أَنْ يَدْسُمُ فِي التَّرَابِ» [النحل: ٥٨ - ٥٩] ودفع بعضهم إلى أن يند البنات تخلصاً مما قد تلقيه من مسؤوليات.

ويفهم من سورة الإسراء: «وَلَا تَقْتُلُوا أُولَئِكُمْ خَنْبَةً إِنَّمَا تُحْكَمُ نُزُلُهُمْ وَإِنَّمَا تُكَلِّمُ» [الإسراء: ٣١] وسورة الأنعام «وَلَا تَقْتُلُوا أُولَئِكُمْ بَنْ إِنَّكُمْ...» [الأنعام: ١٥١] إن الوأد كان لعامل اقتصادي.

وتوضح سورة النمل المذكورة أعلاه أن الدافع إلى الوأد كان دافعاً اجتماعياً. أما سورة الأنعام: «فَقَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أُولَئِكُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَكْرَاهَهُ عَلَى الْهُوَةِ فَدَحَلُوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ١٤٠» [الأنعام: ١٤٠] فتدل أن دافع الوأد كان دينياً علمياً أن تقديم الضحايا البشرية الآلهة كان معروفاً عند الساميين. فقد ذكر القرآن أن إبراهيم عليه السلام قدم ابنه قرباناً إلى الله. وأراد عبد المطلب تقديم ابنه عبد الله ضحية وقرباناً^(٢).

على أن ظاهرة الوأد عند بعض القبائل العربية لا يمكن أن تكون دليلاً على احتقار المرأة. لأن المرأة كانت ذات مكانة مرموقة في المجتمع القبلي قبل الإسلام، كما تبين ذلك في الصفحات السابقة.

(١) النحل ، آية ٥٧ - ٥٩ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ١٦٧/١ .

التماسك القبلي :

يعتز القبلي بفرديته ويحرص على حريةه لكن فرديته منسجمة مع الجماعة داخل القبيلة فهو ينصر إخوانه ظالمين أو مظلومين وينجدهم إذا طلبوا نجذته. ويساهم عن طيب نفس في تحمل بعض مسؤولية أعمال غيره، فهو يدفع الديمة ويشترك في الحرب التي تحصل نتيجة خطأ لأحد أبناء قبيلته.^(١) وهذا التماطل بين أبناء القبيلة هو مصدر قوة القبيلة وديموتها.

وعند البدو وعي جماعي يتجسد في عبادة متكاملة عند قبائل وسط شبه الجزيرة العربية كالحج نحو عرفة في مكة والقيام بالزيارات المعتادة في المعبد المكي الكعبة ويرتبط هذا باللقاء المميز في سوق عكاظ وكان لعرب ما قبل الإسلام شعور بأنهم شعب واحد رغم عدم شعورهم ربما بمعنى الأمة وقد حصلوا على هذه الوحدة بيدواة شبه الجزيرة العربية^(٢).

الحقوق والواجبات :

وعلى البدوي واجبات اتجاه أفراد قبيلته، فعليه أن يرحم الضعفاء ويطعم الفقراء ويشيع الموتى ويجهد في إطعام الضعيف ويزور المريض ويوفى بهذه الواجبات بالدرجة الأولى اتجاه أقربائه ثم نحو العشيرة التي يجب أن يلبي نداءها في أي لحظة وفي الحق والباطل.

وعلى العشيرة واجبات تقدمها إلى الفرد كأن تعين على دفع دين المدين أو تدفع دينه أو تأخذ بثأره.

دار الندوة : ودار الندوة مجلس القبيلة الذي يتمكن كل فرد فيها من حضوره والتحدث فيه. ويجتمع المجلس عند الحاجة وعلى الأغلب إن انعقاد دار الندوة مساء كل يوم في بيت شيخ القبيلة أو في أي وقت عند الضرورة.

(١) أمين ، أحمد ، فجر الإسلام ، ص ٣٧ .

(٢) كاسكل ، المصدر نفسه .

تم مناقشة جميع الأمور التي تهم القبيلة في هذا المجلس. وهذا المجلس كأي المجالس البرلمانية يسود فيه المفكرون وأقواء اللسان وأصحاب المنطق والحججة القوية بحكم مواهبهم لا بحكم قانون ما.

ولا تقتصر مهام المجلس على الأمور السياسية للقبيلة، فهو مدرسة أدبية، إذ ينشد فيه الشعراء أشعارهم ويظهر الخطباء مواهبهم وتعرض فيه الآراء الطريفة والأحاديث الجيدة فتربي عن الأفراد قوة البيان وتصقل المواهب الأدبية والسياسية. تخرج قراراته بعد المناقشة والتدقيق بالأغلبية وتذعن الأقلية لقرارات الأكثريّة^(١).

رئاسة القبيلة :

للقبيلة شخص يدير أمورها يطلق عليه أسماء مختلفة، كالأمير والشيخ والرئيس والرب، فللقبطه رب كانت تستعمل للملك أو الحاكم، فيقال رب الخورنق، ورب القبة، ورب الشام. وعند ظهور الإسلام بدأ هذا اللفظ يتمدد في الله. أما لفظه أمير فكانت تطلق على قائد الجيش. فيقال أمير الشام وأمير السرايا. وفي الإسلام استعمل لفظ أمير المؤمنين باعتبار أن المؤمنين كانوا محاربين.

وأما لفظ الشيخ فكان المقصود به كبير السن سواء ساد أم لم يسد. واستعمل لفظ الرئيس مراداً للقائد فهو بمثابة رأس القبيلة فيقال رئيس بكر، ورئيس تغلب، وأكثر الألقاب إطلاقاً هو السيد. وكان السيد يوصف بالشيخ أو الرئيس أو الأمير لكبر سنّه وقيادته لقبيلته.

ولرئيس القبيلة صفات خلقية تعد حيوية للمجتمع البدوي منها : الحلم والتواضع والسخاء والنجدة والصبر وقوة البيان والحججة والذكاء وكبار السنّة وأن يكون كافاً للأذى وناصرًا للمولى عافياً عن السفيه وقاضياً لحاجات قومه^(٢).

(١) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) الالوسي ، المصدر السابق ، ١٨٧/٢ .

وينتخب الرئيس انتخاباً حراً من بين أفراد القبيلة ولا يأتي إلى الرئاسة عن طريق الوراثة. وإن حصل وانتخب ابن أو آخر الشيخ السابق، فذلك لكون المت منتخب متوفراً فيه صفات الرئيس أو الشيخ^(١). ولا تتم الرئاسة إلا للصبية أو الموالى والخلفاء فلا مجال لهم للحصول على الرئاسة^(٢).

وقد أثرت التقاليد العربية التي تحصن المشيخة على الخلافة الإسلامية، ففكرة انتخاب الخليفة وطريقة التخاب، سواء باختيار الأمة كانت أو بالتعيين الذي تسبقه معرفة الرأي أم بالشوري مأخوذه من التقاليد العربية قبل الإسلام. ثم إن صفات المرشح كالتجربة والسن والنفوذ تجتمع فيها التقاليد العربية والمبادئ الإسلامية. وكانت سلطة الخليفة تحددها إرادة الرأي العام وفي هذا الأمر استمرار للتقاليد العربية.^(٣)

وعلى الشيخ أن يفتح بيته مضيفاً للضيف والوافدين، ومن ذوي العشائر الأخرى. وأن يعين الضعفاء ويواسي المنكوبين، وقد يقدم أي فرد من أفراد العشيرة بهذا العمل، وعلى الشيخ إدارة المناقشات في مجلس القبيلة. ويتولى المفاوضات مع القبائل الأخرى. ويتوقف قبول رأيه على مقدار ماله من حجة في الاقناع. ويتولى الرئيس الحكم في الخصومات إذا التجأ إليه المتخاصمون وقد يلتجأ المتخاصمون إلى غيره من الحكام والعارفة المعروفي بالعدالة ودقة الحكم على نطاق القبيلة أو خارجها.

والشيخ قائد العشيرة في الحروب وقد يعين من ينوب عنه^(٤).

علاقة القبيلة بالقبائل الأخرى :

نظرأً لكثرة العروب بين القبائل وما تحمله من مخاطر وتهديدات الغزو المستمر، اضطر بعض القبائل وخاصة الصغيرة منها إلى أن تحالف القبائل القوية

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥ - ١٣٠ .

(٣) الدورى ، عبد العزيز ، النظم الإسلامية (بغداد ١٩٥٠) ص ٣٤ - ٣٥ .

(٤) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ص ١٥٨ .

و خاصة المجاورة لها لتأمين شرها. أو للحصول على المؤونة أو المساعدة عند تعرضها للخطر. ويكون الحلف إما مؤقتاً أو دائمًا. وتسبق الحلف مفاوضات وتمهيدات دبلوماسية ومراسيم معينة كالقسم ولعق الدم ل توكيده^(١). أو يرفقه زواج بين الرؤساء.

وكان لهذه المحالفات أثر في استتاب الأمن والاستقرار في ربوع الجزيرة، وكان عاملاً مشجعاً على إنشاء دول أو شبه دول، بين هذه القبائل كما حصل عند اللخميين والكتندين.

علاقة القبيلة بالمركز الحضري (القرى) :

وكان لكل قبيلة مضاريبها الصيفية بين الحضر أو على مقربة منهم. وكان شيخ القبيلة يرتبط بعهد الأخوة مع شيوخ قرية أو قرى أخرى. وعهد الأخوة هو الذي ينضم العلاقة ما بين القبائل والحضر. وحينما لا يجد الحضري حكومة تحمي فلان القبلي لا يطلب أن يكون له مطلق الحرية، في استعمال الحقول بعد الحصاد ولا استغلال المراعي الطبيعية ولا حق الارتواء من الآبار ومجاري المياه، بل كان يفرض أيضاً غرامة عينية على الحضري. ومقابل ذلك فقد كان القبلي يبذل حمايته للحضري فيدفع عنه القبائل المجاورة حين تغير عليه^(٢).

الحياة الاقتصادية للبدو :

يرتبط تنقل البدو - بصورة منتظمة وفي أوقات محدودة - بطبعية شبه الجزيرة العربية. من حيث وفرة المياه وجود المراعي، وعلاقة ذلك بفصول السنة المختلفة. ففي الربع تغطي النباتات السهوب والصحاري الرملية، ذات الحصاد وتتوفر في وقت قصير جداً لا تحتاج الماشية فيه إلى الماء - كما أن البدو يعيشون على ألبان قطعانهم. وفي الصيف يعود البدو من المراعي الريحية إلى مناطق الآبار والعيون. وفي الخريف والشتاء، يلجم البدو إلى الواحات إذ لم يسقط الغيث. ويجب على البدو أثناء الاستفادة من المراعي، أو أثناء الرعي في فصلي الربع والخريف

(١) جمعة ، محمد محمود ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٢) ديسو، المصدر السابق ، ص ٤ .

أن يوزعوا أنفسهم في مجموعات تكون من ٥٠ - ١٥٠ خيمة. أما في بقية فصول السنة فيكون التجمع أكثر تركيزاً، لأن طبيعة ضرورة الحياة في شبه الجزيرة العربية تجبر التجمعات الصغيرة من أجل الأمان أن لا تكون بعيدة، ولا يفصل بينهما أكثر من مسيرة ساعة واحدة، ل تستطيع التصدي لأي هجوم مباغت للعدو. وأحياناً يتالك التجمع من ٥٠٠ خيمة إذ يسيطر في الباية قانون الدفاع عن النفس إذا لم يحميه من خلال قربة الدم أو الأحلاف القبلية^(١).

وقد دلت سجلات الحملات الآشورية، التي تعود إلى القرن الثامن والسابع ق. م (على أن الاقتصاد البدوي لم يوفر لهم الاكتفاء الذاتي، وإنما هو اقتصادي الواحة إذ يعتمد على ما يزرعه العربي في الواحة) واقتصاد تجارة المرور - الترانزيت - أو السيطرة على الطريق التجاري للحصول على الضرائب، وتكون من الذهب والفضة والرصاص والحديد، وجلود الفيلة والعااج والأقمشة والطراويس والماشية^(٢).

وكان البدو يكتبون ويرسمون الأشياء المحيطة بيبيتهم، وهي الجمال والخيول والوعول والضباء والغزلان، والنعام والضباع والذئاب والكلاب وأحياناً يرسمون أنفسهم. وكانت هذه الصورة ترسم لفرض السحر، الذي يخدمهم في صيد الحيوانات ليس إلا. والبدو على إلمام بالثر و كذلك الصور الشعرية الشيرية غير أنهم قيلوا الحمامة للدين^(٣) كما سنرى في الفصل الثامن.

(١) كاسكل ، المصدر السابق .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

٢- تطور العقائد الدينية والظروف المحبطة بها

عرف الدين بعدة تعاريف منها : الدين هو إيمان وعمل ، إيمان بوجود قوي فوق طاقة البشر لها تأثير في حياته وفي مقدراته ، وعمل في أداء طقوس معينة ، تعين شكلها الأديان للتقرب إلى الإلهة لاسترضائتها . والإيمان هو قبل العمل بالطبع ، فلا بد للقيام بالشعائر أو بأداء العمل من وجود إيمان عند الشخص أو الأشخاص بوجود الله أو الله حتى يقوم بعمل ديني^(١) .

فالعمل تابع للإيمان ونتيجة من نتائجه وهو شعاره ومظهره . وهو عند الأقوام البدانية أبرز من الإيمان لدرجة عقليتها ومجال تفكيرها الضيق . ومن العمل الرقص والأفراح الدينية والسحر والقرابين والحج والصلوات^(٢) .

وعند الناس والمتعلمين منهم أيضاً أن العرب كانوا على درجة من التأخر الديني قبل الإسلام ، وإن تفكيرهم في ذلك كان تفكيراً لا يتجاوز تفكير القبائل البدانية وهو رأي مبترس يفتنه القرآن الكريم . وإذا كان ما يقوله صحيحًا بالقياس إلى السواد والأعراب فإنه لا يصح أن يكون حكماً عاماً على الكل ، ولا سيما على المتحضررين وعلى من كان لهم اتصال بالعالم الخارجي^(٣) .

ودراسة الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام أمر ضروري ، لفهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم ومعرفة طريقة تفكيرهم ، ووجهة نظرهم في الخالق والكون ثم أسباب نزول الوحي . وبدون دراسة أديان ما قبل الإسلام لا يمكن فهم رسالة الإسلام فهماً صحيحاً .

بعد القرآن الكريم وكتاب الأصنام لابن السائب الكلبي وكتب السير والمعاذي والشعر الجاهلي . وكتب التاريخ مثل تاريخ مكة من أهم المصادر لمعرفة الحياة

James G. Frazer The Golden Bough , A study in magic and Religion , vol. I. (١) (London , 1947) P. 50 .

Ency , Brita , vol. 19 .P. 108. (٢)

الدينية عند عرب ما قبل الإسلام.

كانت قريش تؤمن بوجود الله واحد خلق الكون. قال تعالى: «وَلَئِن سَأَلْتُهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ رَسَأْتُهُمْ أَنفُسَهُمْ وَلَقَمَرَ لِيَقُولُوا إِنَّهُ فَانِّي يُؤْكِلُونَ» [العنكبوت: ٦١].

وقال جل وعلا : «وَلَئِن سَأَلْتُهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُمْ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» [الزخرف: ٩] وهو يؤمنون بأن الله هو الذي ينزل المطر ويحيي الأرض بعد موتها^(١). وكانوا يقسمون به^(٢). وكانوا يقولون أن الله هو الذي شاء فعلهم وأباءهم مشركين ، وأنه لو لم يشاً لما أشركوا بعبادته أحد^(٣). فكريش إذن كانت تؤمن بالله عزيز عليهم.

يظهر مما تقدم أن قريش ومن كان على اتصال بهم ، لم يكونوا ينكرون عبادة الله ، ولم يكونوا يجحدونه بل كانوا يقررون بوجوهه ويدينون له ، وإنما الذي أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وسفه أحلامهم هو تقريرهم إلى الأصنام والأوثان وتقديسهم لها تقديساً جعلها في حكم الشركاء والشففاء ومرتبة الألوهية ومن هنا حاربت قريش الإسلام ، وهنا كان موطن الخلاف لا عقيدة الإيمان بالله.

ويؤيد ابن قيم الجوزية - رحمة الله - ذلك بقوله : «... وعباد الأوثان كانوا يقررون بتوحيد الربوبية ، وأنه لا خالق إلا الله ، وأنهم إنما يعبدون آلهتهم لتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ...»^(٤) ويقول صaud : «... وجميع عبد الأوثان من العرب موحدة لله تعالى»^(٥) ، أي أن جميع القبائل العربية كانت تدين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يطلق عليه دين الأنبياء . روى الأزرقي أن هاشم بن عبد مناف كان يقول لقريش : «... يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته خصمكم الله بذلك وأكرمكم به...»^(٦).

(١) انظر سورة العنكبوت ، آية: ٦٣ .

(٢) انظر سورة الأنعام ، آية ١٠٩ ، والتحل ، آية ٣٨ .

(٣) انظر سورة الأنعام ، الآية ١٤٨ .

(٤) زاد المعاد ، ٢٢٤/٣ .

(٥) طبقات الأمم (النجفة ١٩٦٧) ص ٥٧ .

(٦) أخبار مكة ، ١٩٥/١ .

ولم يكن كثير من عرب ما قبل الإسلام يؤمنون بالبعث كما يتضح من القرآن الكريم. إذ يرون أن الموت نهاية وأنهم غير مبعوثين يؤمنون بالبعث بعد الموت غير معقول، ولذا فقد استغروا من قول النبي بالبعث: «وَقَالَ رَبُّهُ إِنَّ هَذِهِ أَيَّادِيَنَا لَمْ يَعْلَمُنَا بِمَا كُنَّا نَعْمَلُ» [الأنعام: ٢٩]. وهناك آيات كثيرة تدل على عدم إيمانهم بالبعث^(١).

ولذا فإن فكرة البعث من الأمور التي عارضتها قريش معارضة شديدة وكانت من الموضوعات التي تندر بها وسخر منها القرشيون وعرب ما قبل الإسلام. ومع ذلك فهناك فريق من عرب ما قبل الإسلام كان يؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت، فقد كانوا يعتقدون ناقة عند قبر صاحبها، إذا مات حتى تموت جوعاً وعطشاً ويقولون أنه يحضر عليها راكباً ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً وهنا مذهب من كان يقول منهم بالبعث ومنهم الشاعر زهير الذي يقول^(٢) :

يؤخر فيبوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يتعجل فينقم

وقد وردت في شعر أمية بن أبي الصلت أموراً عن الحساب والثواب والعقارب والجنة والنار. وأمية هو الشاعر الجاهلي الوحيد الذي جاء أكثر شعره في نزاعات فكرية ودينية ذلك لأنه كان في شك من عبادة قومه. وفي شعره اعتقاد بالجنة والنار وبصحة المعاد الجسماني ويوجود الجنة والنار بالمعنى الحقيقي وهو يتفق مع ذلك مع الإسلام^(٣).

أما كيف انحرف عرب ما قبل الإسلام إلى الشرك فقد فسره المسعودي إذ قال:

(كان من ذكرنا من الأمم لا يجحد الصانع جل وعز .. إلا أن القوم دخلت عليهم شبه بعد ذلك لتركهم البحث واستعمال النظر، ومالت نفوسهم إلى الدعة .. وكان في نفوسهم هيبة الصانع والتقرب إليه بالتماثيل وعبادتها لظنهم أنها مقربة إليه^(٤)).
 أما أشهر الأصنام في بلاد العرب فكان (نسر) الذي كان على هيئة طائر وهو

(١) النحل ، آية : ٣٨ ، الإسراء ، آية ٤٩ ، الحج آية : ٥ ، هود ، آية : ٧.

(٢) ابن قتيبة ، الشمر والشعراء ٧٦/١.

(٣) علي ، جرارد ، المصدر السابق ، ١٣٢/٨ .

(٤) مروج الذهب ، ٢/١٢٤.

من معبدات قبائل حمير في موضع يقال له من أرض سباً من اليمن وذلك قبل تهود حمير^(١). ومن معبدات اليمن أيضاً يعوق الذي كان على هيئة حصان وهو من معبدات قبائل همدان. ومن أصنام اليمن أيضاً يغوث الذي كانت تعده مدمج كما عبده أهل جرش^(٢).

أما عرب الشمال، فقد عبدت قبائل كلب صنم (اللود) الذي عبده المعينيون قديماً رمزاً للإله القمر وذلك في منطقة دومة الجندي.

وقد وصفه ابن الكلبي بقوله : (كان ود على هيئة تمثال رجل ضخم . والظاهر أن سنته من قضاعة قد كسوه من الثياب حلتين واحدة فوق الأخرى ، وقلدوه سيناً وجعلوا قوساً على منكبه ، وتجربةبني يديه تحمل لواء وجعبة فيها النبل)^(٣).

وعبد صنم إلا قيسر في مشارف الشام من قبل غطfan ولخدم وقضاعة وجذام وعاملة . وعبدت طيء إلهًا خاصًا يسمى الناس بين جبلي آجا وسلمي . وظل الفلس حتى ظهور الإسلام^(٤).

وللحجاج أصناماً فقد عبد سواع من قبل قبيلة هذيل وكان سنته من بنى لحيان . وفي ساحل جده عبد صنم يقال له سعد وكان صخرة طويلة^(٥).

وكان صنم (ذو الخلاصة) في تبالة جنوب مكة وهو على هيئة صخرة بيضاء منقوشة^(٦).

وكان صنم (مناة) على ساحل البحر الأحمر بين المدينة ومكة وهو أقدم أصنام العرب ، كما يقول ابن الكبي^(٧) . وهو ثالث ثلاثة أصنام .

(١) محمد جمعة ، المصدر السابق ، ص ١١٨ ، الحموي ، معجم البلدان ، ٤ / ٧٨٠ .

(٢) عبد الحميد ، سعد زغلول ، في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت ١٩٧٦) ص ٣٤٤ .

(٣) الأصنام (القاهرة ، ١٣٤٣ هـ) ص ١٠ ، ٥٥ - ٥٦ .

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٥ ، ٥٩ - ٦١ .

(٥) نفس المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٦) نفس المصدر السابق ص ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٧ .

(٧) نفس المصدر السابق ص ١٣ - ١٥ ، ٢٧ - ٢٩ .

واما الاثنان الآخران فهما : (اللات والعزى). ومع أن منة كانت صنم هذيل وخراءعة فقد اعتبر إله الأوس والخرزج. وكان أهل مكة يعظمونه وكذلك فعل سائر العرب القاطنون حول مكة والمدينة^(١).

أما (اللات) فهي أشهر آلهة العرب وأحدث من منة، وهي آلهة الطائف^(٢) التي تمثل الشمس، وعلى أيام ابن الكلبي كان موضع اللات في المكان الذي بنيت فيه المنارة اليسرى بمسجد الطائف^(٣). وظلت اللات معظمة عند ثقيف وقرיש إلى أن أمر الرسول ﷺ بهدمها سنة ٨ هـ.

وكانت (العزى) تمثل الشمس وهي أحدث من اللات ومنة على رأي ابن الكلبي. وكانت أهميتها تأتي من بعد اللات وقيل منة يؤيد ذلك قول الآية الكريمة: ﴿أَرْزَقْتَنِي اللَّتَ وَالْعَزِيزَ (١٦) وَمِنْهُ أَثَلَّةُ الْأَخْرَى (١٧)﴾ [النجم] وكانت قريش تزود بيت العزى حيث تقدم الهدايا وتقترب عنده بالذبح في المنحر. وكانت لحوم الهدايا تقسم بين الحاضرتين. وكانت سدانة العزى في بني شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم^(٤).

وقد صارت الكعبة أعظم بيوت الأصنام في بلاد العرب وكان هبل هو أعظم هذه الأصنام وهو على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى^(٥). وحول الكعبة كانت تقف أصنام أخرى مثل (أساف) و (نانلة) وهما على صورة رجل وامرأة قبل أنهما مسخاً حجرين لفجورهما بالكعبة وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة عند بئر زرم^(٦).

وكانت مراسيم العبادة تكون بالطواف حول الكعبة والاعتمار بالبيت أسبوعاً ومسح الحجر الأسود والسعى بين الصفا والمروءة وكانت تليتهم «لبيك اللهم لبيك»

(١) عبد الحميد ، نفس المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

(٢) ابن الكلبي ، المصدر السابق ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٧ ، ٤٣ ، الحموي معجم البلدان ، ٣٣٦ / ٤ - ٣٣٨ / ٤

(٣) ابن الكلبي ، المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٤) عبد الحميد ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٠ .

(٥) ابن الكلبي ، المصدر السابق ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

وهي واحدة لكل العرب^(١) ثم يطوف الناس طبقاً لمن ينسكون من الأصنام. وكان للحرم في صدورهم رهبة لا يدانبه فيها غيره. وكانت العرب تجتمع إلى هذا البيت اجتماعاً قومياً كل سنة^(٢). ورغم اختلاف القبائل العربية فيما بينها في الجزيرة في أسباب الحياة فإنها تجتمع حول البيت الحرام إذ ربما كان لديهم الشعور بأنهم شعب واحد. وقد حصلوا على هذه الوحدة من المعاناة في حياتهم في شبه الجزيرة.

ولبيوت الأصنام قدسيتها واحترامها في نفوس العرب، فضم طيء المعروف بالفلس لا يأتيه خافض إلا أمن عنده. وفكرة الأمن حتى للمطلوبين من قبل العدالة مقبولة، كما هو الحال بالنسبة لحريم القتل في الأشهر الحرم^(٢).

نحو مكة حتى أصبحت الكعبة قبله العرب في موسم الحج. ورغم أن شأن الكعبة كان يسمو شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن، فقد كانت عبادة الأصنام قد تدهورت فبعد أن كانت الأصنام وسيطة للشفاعة بين القبائل وبين الله وهذا واضح من قسم أوس بن حبيب حين قال^(٤):

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله أن الله منهن أكبر أصبحت تعبد وكأنها الله مستقلة بذاتها. وقد انحط سدانتها وفشا الكذب والحيل بينهما مدعين أن الأصنام لم تكن تسمع أن تكلم الزائرين بل تكلم سدانتها فقط، مثل صيفي الذي سمع لنفسه أن يسيطر على أبل ضعفاء الناس مدعياً بأنها هدايا الله وبأنها لا يجوز استردادها لأن الله لا يخفر.

لم تكن عبادة الأصنام عند العرب جدية ولم تدخل في أعماق قلوبهم وكانت الشورة عليها تحدث من حين لآخر، فقد يطيع التأثير برأس صنم ويهشميه وكانت

(١) ابن حبيب ، المحرر ص ٣١٩ ، ٣٢٨ .

(٢) البكر ، منذر ، رؤية حول إعادة كتابة تاريخ العرب قبل الإسلام ، مكتوب على الآلة الكاتبة

(٣) عبد الحميد ، المصدر السابق ، ص ٣٥٤ .

(٤) ابن الكلبي، المصدر السابق، ص ١٧.

الثورة على الأصنام تحدث حتى من عابديها واتباعها. فكان عباد الأصنام ينقلبون فجأة على أصنامهم لأدنى الأسباب مما يشير إلى أن عبادتهم لها في غالب الأحوال كانت سطحية لا تعمق فيها.

وقد أورد ابن الكلبي أمثلة كثيرة تدل على ذلك، منها أن رجلاً كتابياً جاء إلى صنم كنانة (سعد) بساحل جدة، فلما قرب من الصنم نفرت الإبل وتفرقت. فأسف صاحبها لذلك وغضب على الصنم وتناول حجراً ورماه به وقال: لا بارك الله فيك إلها^(١).

وكان لمزينة صنم يسمى (نهم) وله سادن يسمى خزاعي بن عبد تهم فلما سمع بالنبي ثار على الصنم وكسره^(٢).

وكان (ذو الخلصة) صنماً لخثنم وبجيلة والأزد وكان يقبالة على بعد سبع ليالي من مكة باتجاه اليمن. وقد عرج عليه امرئ القيس واستسلم عنده ثلاث مرات لغرض الثأر لأبيه، فخرج الناهي أي الأمر يمنعه مما أراد من الهجوم علىبني أسد والثار منهم، فلما كانت الثالثة ناهية أيضاً كسر امرئ القيس القداح وضرب بها وجه الصنم وتكلم كلاماً بذريناً ضده^(٣).

وهكذا فقد أصبحت عبادة الأصنام لا ترضي عدداً من أصحاب العقل والضمير من رجال العرب، الذين نظروا إلى الوجود، وتأملوا في مصير الإنسان، وانتهت المطاف ببعضهم مثل زيد بن عمرو بن نفيل إلى الثالثة، أي العودة إلى الله وترك عبادة العزى وعبادة غيرها من الأصنام، وفي ذلك يقول^(٤):

تركت اللات والعزى جيعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا أبنتها ولا صنمـي بـني غـنم أزور

(١) الأصنام ، ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٤ - ٣٥ و ٤٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٢ ، الحوفي ، ياقوت ، المصدر السابق ، ٣٣٨/٤ .

ولا هبلاً أزور وكان ربنا لنا في الدهر إذ حلّمي صغير
وهكذا ظهرت طائفة الحنيفين من المتخثرين الذين نبذوا عبادة الأصنام وتقربوا
إلى الله، دعوا الناس إلى الخير وأن يبقوا متمسكين بتعظيم البيت. ومن هؤلاء قس
بن ساعدة الأيادي وأمية بن الصلت، وورقة بن نوفل^(١).

وقد اكتفى هؤلاء الأحناف بالابتعاد عن المجتمعات وبالنفرة من تقديس،
الأوثان فلم يتقربوا إليها، واكتفوا بذلك ورضوا بعقيدتهم هذه وبقناعتهم بفساد
معتقدات قومهم، دون أن يكلفو أنفسهم مشقة الجهر بآرائهم والمناداة بها علينا في
المحلات العامة وظلوا على ذلك إلى مماتهم، ولهذا لم تكن علاقتهم مع قومهم
سيئة، ولم يصطدموا معهم بل نظروا إليهم نظرة تقدير واحترام، وكانتوا يأتونهم
للاستفسار منهم عن كثير من المعضلات والمشكلات لما لهم من اطلاع ووقوف
على الكتب والأخبار. ولا يستبعد اشتغالهم بأمور أخرى مثل الفلسفة والمنطق
والتطيب وما شابه ذلك من أمور برع بها رجال الدين في ذلك العهد^(٢).

غير أن ذكر الرجال الذين قال عنهم أهل الأخبار أنهم كانوا على دين الحنيفة
لا يوضح عقائدتهم ولا رأيهم في الدين فلم يذكروا عقيدتهم في التوحيد ولا كيفية
تصورهم لخالق الكون^(٣).

وفي الحنيفة أربعة أقوال: أحدهما حجج البيت وثانيهما اتباع الحجج وثالثهما اتباع
إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحجج والختان وغير
ذلك والرابع الإخلاص لله وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية^(٤).
ويبدو أن مصطلح الأحناف في تاريخنا العربي قبل الإسلام جاء بالدرجة
الأولى كمصطلح قومي^(٥).

(١) عبد الحميد ، المصدر السابق ، ص ٣٥٨ .

(٢) علي جواد ، المصدر السابق ، ٥١٩/٦ .

(٣) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٤٥٢/٦ .

(٤) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٤٤٩/٦ .

(٥) جاوك ، مصطفى عبد اللطيف ، الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، (بغداد ١٩٧٧) ص ١٣ .

قال الشاعر زهير بن أبي سلمي :
 فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال نبوة من قريش وجرهم
 وقد عرف العرب اليهودية منذ أقدم عصورها . فقد عرف العراق هذه الديانة منذ
 التوسيع البابلي وحروب الآشوريين في الشام . وخاصة نبوخذنصر الكلداني الذي
 جعل من العراق بنقل السبي البابلي المهد الثاني لليهودية . وقد عرفت اليمن هذه
 الديانة منذ القرن الرابع الميلادي .

وعلى رأي الدكتور جواد علي ، فإن اليهودية انتشرت في الحجاز بعد سنة ٧٠ م
 عندما فر اليهود من فلسطين بسبب غزو الرومان . فاتجهت جماعات منهم نحو
 الحجاز حيث استقرت في بعض نواحيه وخاصة يثرب . وبمرور الزمن تأثرت
 جماعات من العرب بهم ودخلوا ديانتهم وخاصة بين الأوس والخزرج . وبجانب
 اليهود الأصليين من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة تذكر النصوص يهوداً من
 بني عكرمة وبني ثعلبة وبني زيد وبني لحرم وبني زعورا وبني بهدل وبني عوف وبني
 القصيص وبني ما سله^(١) .

وكانت خير أهل مراكز اليهود بعد يثرب ومن مراكزهم الأخرى في شمال
 الحجاز يتماء وفديك ووادي القرى^(٢) . والطائف التي كانت همزة الوصل بين يهود
 اليمن جنوباً ، ويهود الشام شمالاً المحاطة بالأسوار والجدران التجاري
 التاريخي^(٣) .

وهكذا انتشرت اليهودية في بلاد العرب قبل الإسلام وكانت يشرب أهم
 مراكزهم ، ومنها انتشروا في مدن الحجاز وواحات الشمال . وكانوا يمتهنون التجارة
 والربا والصناعات والزراعة . ويغدو لهم الحدائق المحاطة بالأسوار والجدران
 ومحموها بالمحصول المعروفة بالآطم .

(١) علي ، جواد ، تاريخ العرب في الإسلام ، ص ٤٩ .

(٢) علي ، جواد ، المصدر السابق ٥١٩/٦ .

(٣) الهمданى ، صفة جزيرة العرب ، ١٣٠/٢ ، الحموي ، معجم البلدان ، ٤/٨٧٨ .

(٤) عبد الحميد ، المصدر السابق ، ص ٣٦٥ .

وعرف العرب النصرانية التي كانت منتشرة في الشام والعراق واليمن ونجران. ومن أهم مناطق انتشارها في العراق الحيرة. وكان أهل الحيرة قد اعتنقوا النصرانية على المذهب النسطوري. في حين اعتنقها الغساسنة في الشام على المذهب اليعقوبي. ومن أهم القبائل العربية التي تنصرت، تنوخ في قنسرين وبهراء في الشام وأياد في الجزيرة والشام وتقلب في الجزيرة والسوداد وفي الشام سليم وعامله ولخدم وجذام. وفي العراق بنو عجل بن لجيم من بكر بن وائل^(١).

وفي الحجاز وجدت النصرانية لها مواطنًا في يثرب التي سكن النصارى في موضع منها يسمى سوق البط^(٢). وكانت في مكة جماعات من النصارى ولكنهم كانوا من غير أبناء مكة وخاصة من الأحباش والأحابيش الذين كانوا يكونون فرقة من المرتزقة^(٣). ومن نصارى مكة نسطاطي مولى صفوان بن أمية القرشي. ومناس، وحنا عبد صهيب بن سنان الرومي ونسططوس الرومي وابنه جعفر الذي دعا له الرسول بطول العمر

وفي الطائف عدد من العمال والعيبد من النصارى، وقد دخلت النصرانية هذه المدينة من نجران القريبة منها على الطريق إلى اليمن. وكانت في الطائف جماعة نجرانية نصرانية^(٤).

وأماكن عبادة النصارى هي الكنائس والأديرة ومن تلك الأديرة، ديارات الأساقفة في النجف بظاهر الكوفة ودير عبد المسيح ودير البلح. وهناك أديرة في الشام وأخرى في الجزيرة^(٥).

وهكذا عرفت الحجاج اليهودية والنصرانية وعرفتهما مكة في نطاق محدود بين الأجانب المقيمين في أطرافها بينما لم تعرفهما قريش إلا على المستوى الفردي

(١) Ali , op - cit.,p.

(٢) علي ، جواد ، المفصل ، ٦٠٣- ٦٠٠ / ٦

(٣) عبد العميد ، المصدر السابق ، ص ٣٦٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٧٠

(٥) فيما يخص هذه الأديرة راجع كتاب الديارات للشاشتي ।

وفي نطاق حركة التحنت أو التحنف التي عرفت أيضاً باسم التأله والترهيب. على أن النصرانية واليهودية لم تكونا واسعتي الانتشار في الجزيرة العربية؛ لأن اليهودية كانت دين الشعب المختار وكان دخول العربي فيها لا يتحقق له المساوات اليهود من أبناءبني إسرائيل. ولذا فلم يكن العربي يقبل أن يدخل ديناً يصنعه في طبقة أسلف من طبقات دعاء ذلك الدين.

وأما النصرانية فكانت مملوءة بالتعقيبات التي لم يستفها الذهن العربي ومملوءة بالخلافات الحادة التي سببت الغموض للدين عند من كان من الممكن أن يعتنقه. وكان وجود اليهودية والنصرانية في مهد الإسلام يعد نذيراً بقيام الدين الجديد كما يورد أصحاب السير^(١). وهذا لا يعني أن البلاد كانت مهيأة لقبول الإسلام وذلك لما لاقاه الرسول من صعوبات والجهود التي بذلها من أجل الدعوة تبين أن الأمر على عكس ذلك، فهو لم يلق المعارضة فقط من تجار قريش ولا من سادة الكعبة بل وجد عندما هاجر إلى يثرب عداءً مرمياً من جانب اليهود هناك.

٣- العرب ودورهم في التجارة الدولية

لللفظة حضارة مفهومان، المفهوم البرجوازي والمفهوم الاشتراكي. يعرف المفهوم البرجوازي الحضارة بأنها: «مجموعة المنجزات التكنولوجية - العلمية - الثقافية التي توصلت إليها البشرية عبر تاريخها واختبرتها في العقود الأخيرة، وأصبحت أساساً لنمط الحياة العامة».

وأما المفهوم الاشتراكي للحضارة فإنه لا ينافق المفهوم البرجوازي فحسب، بل يتتجاوزه ويحتويه عبر توسيع شروط ومواصفات التحضر من جهة، وقلب أولويات هذه الشروط من جهة ثانية. فالحضارة تبعاً للمفهوم الاشتراكي (تعني استخدام العلم ومنتجاته (التكنولوجيا، الثقافة) من أجل تحقيق فهم أفضل ووضع أفضل للإنسان يتihan له فرص التصرف طبقاً لقيم ومعايير إنسانية، أي تحرر

(١) ابن هشام ، العصر السابق ، ٢٠٤ / ١

الإنسان بصفته إنساناً وتخضع كل شيء لخدمته، متتجاوزة بذلك الدوافع البدائية الفجة، أو الأنانية^(١). وبالختصار وصلاتهم الحضارية مع الأمم المجاورة فإن الحضارة تعرف بأنها مجموعة من الطواهر المعبرة عن أنشطة البشر في مجتمع ما أو عدة مجتمعات مع الطوابع التي تكسبها أصالتها. أي أنها العطاء الكلي لإنجاز المجتمع المادي والمعنوي، ويجعل البعض من لفظة «المدينة» مرادفة للحضارة لكن المدينة هي التعبير المساوي عن الإنجاز الحضاري مثل أدوات الزراعة والصناعة والصيد والآلات المختلفة. ووسائل المواصلات وغيرها.

وأما الجانب المعنوي من الحضارة فيشمل اللغة والدين والعادات والتقاليد والنظم والفنون والعلوم.

١- حضارة عرب الجنوب :

ووجدت الحضارة عند أهل اليمن قبل غيرهم من العرب وذلك لموقع اليمن الجغرافي الذي جعلها تسيق المناطق الشمالية من جزيرة العرب في نشوء الحضارة في ربوعها. ولم يكن من السهل قيام حضارات في المناطق الشمالية من جزيرة العرب لأن معظمها أراضي صحراوية مجدهبة لا تشجع على الاستيطان فيها لأن الاستيطان من خصائص الأرض الخصبة ذات الأديم الأخضر.

واليمن ذات الأراضي الجبلية والهضاب الكثيرة والسهول الفسيحة، من أخصب أراضي العالم وتكثر فيها الينابيع والأنهار ونبت فيها مختلف النباتات وتتج مختلف المحاصيل الزراعية.

ولتنوع التضاريس أثر في اتساع العقل وتوسيع الخيال عند أهل اليمن وعز نفوسهم وتحريك عقولهم واطلاق العنان لخيالهم. فانطلق هذا الخيال من عقاله.

والحضارة ثمرة من ثمار الاستقرار ومعيشة الناس مجتمعين متفاوتين في ظل نظام يفسح لهم مجال الانتاج والابداع في كل حقل من حقول النشاط المادي والثقافي ولذا فتعد أن استقرت القبائل العربية في اليمن والثمست مقرأ لها تقيم فيه

(١) المختار، صلاح ، ملاحظات تمهيدية حول معنى الحضارة (الموسوعة الصغيرة ١٧٤)

وكونت نظاماً سياسياً هيّا للأمن والاستقرار ووفر فرص العمل المختلفة، بدأ الذهن العربي بالتفتق فاشاد صرحاً حضارياً مهماً، فقد بني المعينيون القصور والمحافل واستغلوا بالتجارة وتعلموا الكتابة لتدوين حساباتهم التجارية ومخاطباتهم السياسية، وكانوا قد اقتبسوا الأبجدية من الفينيقيين ودونوا بها لغتهم. وتطورت تلك الأبجدية حتى صارت إلى الخط المستند المشهور.

ونظراً لاشتراك المعينين والأراميين في أصولهما فقد تشابهت الأسماء عندهم. يؤيد ذلك اشتراكهم في أسماء المعبودات وطرق العبادة وأسس الاعتقاد. فالشبة كبير بين ديانة المعينين وديانة الأراميين سكان غربى الفرات. ومن تحضر منهم في أور الكلدانية وحران. وقد عثر المثقفون في انقاض معين على الكثير من أسماء الملوك والمعبودات مما يؤيد أصلها البابلي^(١).

واعتنى السبئيون بالتجارة، فقد توسعوا في نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق وغدت التجارة على أيديهم في القرون الأولى قبل الميلاد أكبر وسائل الاتصال بين تلك الأمم هناك فكانت السلع والأطیاب تأتي من الهند والحبشة إلى شواطئ جزيرة العرب، فينقلها السبئيون على قوافلهم إلى مصر والشام وال العراق.

وقد سلك التجار طريقاً خاصة فيها مراحل ومرافق ومعدات ويخفرها أقوام من البدية. تسير القافلة من حضرموت أو عمان شماليًّاً وتقطع بادية الدهناء ثم نجد حتى تأتي الحجاز ثم يرجع بها الأنبياط إلى مكة أو المدينة ومنها إلى بطراء ومن بطراء إما شمالاً إلى فينيقية وفلسطين فتدمّر وأما غرباً إلى مصر.

وكانت القوافل التجارية تنتقل إلى العراق رأساً من شرق الجزيرة أو بحراً من الخليج العربي ومنه على القوافل إلى تدمر. وكان للبابليين مستودعات تجارية على شواطئ الخليج العربي.

وكان التجار يفضلون حمل بضائعهم براً على القوافل خشية مخاطر البحر

(١) زيدان، جرجي، المصدر السابق من ١٣٥-١٣٣.

الأحمر أو الخليج العربي لأنهما أشد خطراً عندهم من بحر الهند^(١). واحتفر السبّايون الترع وينو السدود وحولوا الرمال إلى تربة خصبة. وبنوا القصور والمحاذف والهياكل. وتفنّتوا في تزيينها وشادوا حولها الأسوار وأغترسوا الحدائق^(٢).

وهناك عرب آخرون عاشوا في اليمن، يطلق عليهم اسم الجرهيون كانوا يكثرون من استعمال آنية الذهب والفضة^(٣) والفرش الثمينة ويزينون جدران منازلهم بالعاج والذهب والفضة. ويرجع سبب غناهم إلى استغلالهم بتجارة غلال العرب والهنود. يصلون بها إلى بابل. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنهم من أمم البحرين على الخليج العربي. وكانت جرها عاصمة لهم^(٤).

وقام أهل اليمن بصناعة تحضير بعض أصناف التجارة : كالبخور واللبان والطيب وغيرها. وتعد زراعة المرو والبخور والقرنفل والبلسم وسائر العطريات فضلاً عن التخليل من أشهر المحاصيل الزراعية^(٥). وقد وصف الهمданى وأدى فهر باليمن بان فيه نهرأ عظيماً يسقي جانبي الوادي وعليهما من الأعتاب نحو عشرين نوعاً، قال : (وفيه أصناف العضة من المخوخ الحميري والتين والبلس والكمثرى التي ليس في الأرض مثلها، والأجاص والبرقوق والتفاح واللوز والجوز والسفرجل والرمان).

وكانت في اليمن الكثير من المعادن في جوفها فضلاً عن سطحها. فقد كانت فيها مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة. وكان ذلك من أهم أسباب طمع الفاتحين فيها في ذلك الوقت. وأقدم هذه المناجم في بلاد مدين ذات الشهرة الكبيرة في التاريخ القديم حتى ألف بعضهم كتاباً خاصة عن معادنها وذهبها وأثارها^(٦).

(١) المصدر السابق، ص ١٧٩ للتفاصيل، راجع البكر، المصدر السابق ص ٤١٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .

(٣) strobo. , op .. cit .. , vol. , III . p. 382 .

(٤) زيدان ، المصدر نفسه ص ١٥٥ ، البكر ، متذر ، اليمامة أو حرها في عصور ما قبل الإسلام ، مجلة كلية التربية ، العدد الثالث ، النسخة الثانية (بصرة ١٩٨٠) ، ص ١١٥ .

(٥) زيدان ، المصدر نفسه ص ١٦٠ .

Burton , The Golden Mines of Midian (London, 1878) pp 88 , 134

(٦)

وورد في كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمданى أسماء هذه المعادن ومواقعها.^(١) وفي مجال العمارة، فقد أنشأ أهل اليمن مدنًا أندثرت أكثرها ولم يبق منها إلا القليل مثل مأرب ومعين وبراقش وظفار وشبوه وناعط وبينون وصناعة وغيرها. وكانت المدن تحتوي على القصور والمحاذف (وهي أشبه بالقلاب أو الهياكل يقيم إلا دواه) وربما احتوت المدينة الواحدة قصوراً وهياكل فخمة البناء. وقد أعجب سترابون بخرفة القصور وقال إنها تشبه بشكلها القصور المصرية^(٢). وروى بلينيوس أن في مدتيق ناحية وتهناء باليمن ٦٥ هيكلًا وفي شبوه قصة حضرموت ٦٠ هيكلًا^(٣).

ومن أشهر قصور اليمن قصر غمدان وقصر ناعط وقصر صرواح فأما قصر غمدان فعلى الأرجح أنه بني في القرن الأولى للميلاد وظل باقياً إلى أيام عثمان بن عفان^(٤). وكان قصر ناعط يلي قصر غمدان في العظمة والشهرة وهو محفوظ من عدة قصور. ويبدو أنه أقدم من قصر غمدان لأن علهان لهفان أدخل عليه إصلاحاً. وعلهان هو من ملوك حمير في أوائل القرن الثاني للميلاد^(٥). وأما صرواح فقصر عظيم من أقدم أبنية اليمن ما بين صنعاء ومارب.

واهتم عرب اليمن بالسداد وهي جدران ضخمة كان يقيمونها في عرض الأودية لرفع مياه السيول والأمطار لري الأراضي المرتفعة كما يفعل المتحضرون في الوقت الحاضر. ولم يدع أهل اليمن وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد فكثرت السدود بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات.

وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به أو بالإضافة إلى بلده، ومن أهم هذه السدود: قطان، ريوان، شمران، طرحان، عباد وأشهر سداد اليمن (العمر) وهو سد مأرب الشهير^(٦).

(١) ص ٢٠٢ فما بعد.

(٢)

op. cit. p. 630.

(٣) زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

(٤) المسعودي ، مروج ، ٢٦١/١ .

(٥) زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

(٦) الحموي ، المصدر السابق ، ٢/٢٤٩ .

كان سد مأرب أعظم سداد العرب وأشهرها وقد ذكروه كثيراً في أشعارهم واليه أشار القرآن بقوله ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَلٍ فِي تَسْكِينِهِمْ مَا يَأْتُهُ جَنَّاتٌ عَنْ يَمِينٍ وَشَمَائِلٍ كُلُّوا مِنْ يَنْزَلُنَا نَرِثُكُمْ وَأَشْكِرُوا لَمْ يَلْذَهُ طَبَّةٌ وَرَبِّ غَفْرَةٍ﴾ [سباء].

ويعد كتاب «الاكليل» من أوائل المصادر التي روت معلومات جيدة عن هذا السد. لأن مؤلفه الهمданى كان قد شاهد انقضاض السد في القرن الرابع للهجرة، وكان يقرأ المسند. وجاء وصف الهمدانى مطابقاً لما عثر عليه المنقبون الذين اكتشفوا آثار ذلك السد. وعلى رأي جرجي زيدان فإن تاريخ بناء السد يعود إلى القرن الثامن الميلادى ولم يكن السد من بناء ملك واحد. وقد تهدم السد بعد دخول اليمن في حوزة الأحباش وكان ذلك حوالي سنة ٥٤٣ م^(١).

وكان المجتمع في العربية الجنوبية مؤلفاً من أربع طبقات أو طوائف وهي : الجنд المسلح، الفلاحون، الصناع، والتجار. ولكل فئة حدود مرسومة لها لا تتعاداها^(٢).

وكانت المملكة عند أهل اليمن مؤلفة من قصور أو محاذف يملك فيها شيخ أو أمير صاحب القصر أو المحاذف. وفي المحاذف هيكل أو معبد ولذا أنظم عدد من المحاذف في مقاطعات كبيرة سمي مخلاف ويتولى الحكم فيه أمير يعرف بـ قيل جمعها أقيال^(٣).

وقد ذكر اليعقوبي أن اليمن كانت تشمل ٨٤ مخلافاً^(٤).

رأس الحكومة عند أهل اليمن الملك، وهو مطلق الحكم. وقلما كانوا يعتنون بتنظيم الجند إلا ما يدفعون به من أنفسهم عند الحاجة. أو لحماية القوافل في أسفارها وكانت الحكومة عندهم وراثية. وكان لملوكهم القاب مثل يشبع ورياح

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٠ - ١٧٨.

(٢) زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٥٧

(٣) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ١٣٧/٣ ، سالم ، عبد العزيز دراسات ، ص ١٣٣ - ١٣٤

(٤) تاريخ اليعقوبي ، ٢٠١/١ .

وصديق في الدولة المعينة. وبين ويتوف ونار في الدولة السباية.
وقد ضرب أهل اليمن النقود ونقشوا عليها صدر ملوكهم وأسمائهم وأسماء المدن، التي ضربت فيها، بالمستند. ويؤخذ من صور ملوك اليمن أنهم كانوا يضفرون شعورهم جدائل يرسلونها على أقوفيتهم أو على جانبي رؤوسهم أو خديفهم. ويدو أنهم لم يرسلوا لحاصم ولا شورابهم.

يركب الملوك الخيول أو المركبات التي تجرها الخيول أو الفيلة^(١).

وكان يعين الملك في الحكم مجلس شعبي، وهناك موظفون يرثون مناصبهم ويسمى كل منهم الكبير وهو مسؤول عن القانون^(٢).

وكانت بيوت الأغنياء من أحجار الكراتين والأخشاب، غير أن الكثير من البيوت الشعبية كانت مبنية بالطابوق. وكانت أبنية الأغنياء مزخرفة وأعمدتها مطلات بالمعادن. وكانت الكثير من الأبنية مكونة من عدة طبقات.

واهتمت النساء بالحلي. وكثير الطلب على المواد الذهبية المصاغة فوصلت الصياغة مستوى عالي من الرقي كما يذكر ذلك من الأواني الذهبية والفضية^(٣).

٣- حضارة عرب الشمال :

أشاد الغساسنة الكثير من القصور، وبنوا المدن والقرى والقنطر وأصلاحوا الصهاريج. وما ينسب إليهم من بناء المواقع، قسطل بالبلقاء وفيها يقول الشاعر^(٤):

سقا الله حيا بالملوقد دارهم إلى قسطل البلقاء ذات المحارب
ومنها الجرياء وأذرح ونجران وقعن ومن القصور التي أشادوها، الغدير،
والقصر الأبيض، والقلعة الزرقاء، وقصر المشتى، وقصر الصفا، وقصر التجارة،
وقصر السويداء. وأشادوا مجموعة من الديارات مثل دير الكهف، ودير هند، دير

(١) زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٥٦-١٥٧

(٢) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٤) الحموي ، معجم البلدان ، ٤، ٩٥/٤

حالي. وكانت القصور مزيحة بنقوش جميلة منها صور وطيور وخيوط وأسود وفيله^(١). وقد احترف الفسasseنة الزراعة مستغلين مياه حوران المتدفقة من أعلى الجبال، فعمرت القرى، وأنشأوا المشاريع الاروائية، فقد بناوا القنطر وأصلحوا مشاريع الأرواء القديمة^(٢).

كانت العربية لغة الفسasseنة، كما استعمله اللغة الآرامية لغة ثانية، وتقدم عرب الحيرة حضارياً، فقد اهتموا بالزراعة لوجود المياه الوفيرة والأراضي الخصبة. ولذا فقد كانت بساتين التخيل والمزارع منتشرة في نواحيها ممتدة من النجف حتى الفرات.

وقد ركب عرب الحيرة السفن حتى الآيلة. ومن هناك أبحروا شرقاً إلى البحرين وعدن غرباً. وقد اشتغلوا بالتجارة التي درت عليهم أمواأ طائلة. وكانت تجارة الهند والصين وعمان والبحرين تحمل من الحيرة إلى تدمر وحوران^(٣).

وتقدمت الصناعة عند الحيرين فاشتهرت الحيرة بصناعة النسيج وخصوصاً الحرير والصوف والكتان^(٤). واشتهرت الحيرة حتى العهد الإسلامي باللوشي والقصر والتطريز بخيوط الذهب^(٥). ونسيج الأنماط والطبع الحيرية^(٦).

وتقدمت صناعة الأسلحة من رماح وسيوف ونسال. وقد كانت الحيرة مشهورة بالسيوف الحيرية، وأبدع الحيريون بصناعة أدوات الزينة من الفضة والذهب إذ كانوا يرجعونها بالجواهر والبيواليت وذاعت شهرة الخز الحيري وأواني الفخار، كما عرفوا صناعة الجلود والدباغة والتحف المصنوعة من العاج^(٧).

وقطع فن البناء عند الحيرين شوطاً كبيراً من التقدم والازدهار. فقد أشادوا

(١) زيدان ، المصدر السابق ، ص ٢١٨-٢٢٠ .

(٢) الجميلي ، رشيد ، تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية ، ص ١٣١ .

(٣) سالم ، السيد عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٣٨٤ / ١ .

(٤) غنيمة ، يوسف ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٦) العلي ، احمد صالح ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(٧) غنيمة ، المصدر السابق ، ص ٨٤ ، سالم ، عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٣٨٦ .

القصور الفخمة التي خلدتتها المصادر التاريخية. ومن هذه القصور قصر الخورنق وقصر السدير. ويقع الخورنق بظاهر الحيرة على مساحة ميل نحو الشرق، وهو من منجزات الملك النعمان الأول. أما قصر السدير ف يأتي بعد الخورنق من ناحية الشهرة، ويقع قرب الخورنق وسط البرية، المنجية نحو الشام. وهو من بناء النعمان أيضاً^(١).

وهناك قصور أقل شهرة من القصورين السابقين منها : قصر الزوراء وقصر الأبيض وقصر سنداد الواقع بين الحيرة والابلة وقصرى العذيب والصبر اللذان بناهما امرئ القيس ابن النعمان بالقرب من الفرات. وقصر مقاتل ودار المقطوع. وقصر العدسيين نسبة إلى عدسه جدة بنى عمار بن عبد المسيح بن قيس. وكان موقعه طرف الحيرة^(٢).

وازدهرت الحيرة بمجموعة من الكنائس والأديرة بعد أن أصبحت إسقيفية تابعة لكرسي جاثليق المدائن^(٣).

وكانت الحيرة من مراكز العلم والمعرفة قبل الإسلام، فقد التقى فيها الأدباء وعاشوا في كنف النعمان بن المنذر^(٤). وساهمت هذه المدينة في نقل التراث اليوناني إلى العرب وجعل العربية أداة ممتازة للتغيير عن الفلسفة والعلوم^(٥).

وتقدمت الحركة الأدبية في كندة تقدماً كبيراً، فقد أدخل شاعرهاهم امرئ القيس فنوناً وأبواباً جديدة في الشعر العربي. ومن المحتمل أن ملوك كندة كانوا موئل الشعراء ولمجاهم. وكان منظم شعراء عرب ما قبل الإسلام البارزين نشأوا في مناطق كانت تحت نفوذ كندة^(٦).

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ٣٤٢/١

(٢) غيبة ، المصدر السابق ، ص ٣٠.

(٣) علي ، جاسم صبان ، نصارى العراق ، أطروحة ماجستير غير مطبوعة (بغداد ، ١٩٧٤) صفحات مفرقة .

(٤) الحموي ، معجم البلدان ، ٣٠١/٥ .

(٥) العلي ، احمد صالح ، المصدر السابق ، ص ٨١-٨٠

(٦) المصدر السابق ، ص ٩٢

وقد قامت حضارة الأنبياء على التجارة، فقد كانت البتراء مركزاً تجارياً هاماً بين الشرق والغرب والجنوب والشمال، وسيطرت على الطرق التجارية ما بين بصرى وغزة ودمشق وأيلة. ثم امتد نشاطهم التجارى إلى سلوقية والأسكندرية وروادس موانئ سوريا. وقد تاجر الأنبياء بالآفادة من اليمن والحرير من الصين والحناء من عقلان والزجاج وصيغة الأرجوان من صيدا أو صور واللؤلؤ من الخليج العربي والخزف من روما. بالإضافة إلى ممتلكاتهم من ذهب وفضة وزيت السمسم^(١).

وأقام الأنبياء المشاريع الزراعية في البلاد، فحفروا الآبار وشقوا القنوات وأقاموا المشاريع الزراعية في البلاد. وتحولوا بعض المناطق الصحراوية إلى أراضي زراعية خصبة^(٢).

واشتهر الأنبياء بصناعة الأواني الفخارية التي كانت لا تقل في الجودة والاتقان عن الخزف الصيني آنذاك^(٣).

ومن الآثار التي تركها الأنبياء : خزانة فرعون وهو بناء محفور بالصخر والمسرح الذي يفضي إلى سهل فسيح تتأثر فيه الكهوف الطبيعية أو المحفورة في الصخر، ويتسع هذا المسرح لـ ٤٠٠٠ متفرج^(٤) وهناك أثر آخر وهو البناء المعروف بالدير، وهو بناء فخم عرضه ٥٠ مترًا وارتفاعه ٤٥ مترًا. ويرجع تاريخ بناءه إلى القرن الثالث الميلادي^(٥).

كان تركيب لغتهم يشبه تركيب النحو العربي، فاللغاء تستعمل للترتيب مثل قولهم : جاء بنوه فبناته. ومن للاسم الموصول، مثل قولهم : جاء من يعلم. والباء للمضاف إليه مثل قولهم : يتم الله. كما كانوا يستعملون صيغة الماضي في الدعاء بدل المضارع فيقولون : لعن ذو الشرى. كما يفعل العرب. غير أنهم كانوا

(١) المصدر نفسه ص ٤٣ ، الجميلي ، رشيد ، المصدر السابق ، ص ١١٠

(٢) العلي ، أحمد صالح ، المصدر نفسه ، ص ٤٢.

(٣) سالم ، عبد العزيز السيد ، المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

(٤) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ٥١/٣ .

(٥) سالم ، عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤

يستعملون في الكتابة والمكابدات الرسمية والمعاملات التجارية اللغة الآرامية التي كانت سائدة آنذاك في كل بلاد المشرق الأوسط. وبذل تكون لهم لغة للتalking وأخرى للكتابة. وعلى الأرجح أن الكثير من تجارهم كانوا يعرفون الإغريقية واللاتينية.

وقد استعملوا الخط الآرامي المشتق من الفينيقي لكنهم حوروه وصقلوه تدريجياً متى أصبح خطأ قاتماً بذاته ومنته. انحدر الخط العربي الكوفي^(١).

وكانت الحضارة العربية في تدمر مزيجاً من حضارات الأمم الأخرى فصهرها العرب في بودقة ذوقهم واحتياجاتهم وظروفهم وتطلعاتهم فأصبحت عربية الأهداف، وكانت لغة التخاطب والكتابة لهجة من اللهجات الآرامية الغربية تنتهي إلى الأصل الذي نشأت فيه الأنطاكية. كان خطهمتطوراً للخط الآرامي القديم^(٢).

واشتغل التدمريون بالتجارة نظراً لموقع بلادهم على مفترق الطرق الصحراوية التي تربطها بالبراء ومنها إلى عدن من جهة وبموانئ الساحل السوري من ناحية. وبذل أصبحت تدمر متحكمة في الشبكة الهامة من الطرق التجارية التي تربط السواحل السورية بآسيا. والهند ولذا فقد وصلت إلى هذه المدينة المنسوجات الحريرية والجواهر واللالئ والطيبات والبخور والعااج والأبنوس من الهند والصين وببلاد العرب الجنوبية، وبذل حق التدمريون أرباحاً كبيرة من الضرائب المفروضة على تلك المواد التجارية^(٣).

ولم يكن التدمريون تجاراً وسطاء يقومون بنقل البضائع أو بتقديم الخدمات للتجار، بل مارسوا التجارة بأنفسهم فامتد نشاطهم التجاري إلى مناطق عديدة من العالم في ميسان وسلوقية والشام ومصر وروميا وفرنسا وأسبانيا. وعقد التجار التدمريون معاهدات تجارية وسياسية وعسكرية مع القبائل العربية على ضفاف الفرات^(٤).

(١) نامي ، يحيى خليل ، تطور الخط العربي ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية (القاهرة ، ١٩٣٥) العلي ، صالح أحمد ، المصدر السابق ، ص ٤٤.

(٢) علي ، جواد ، المصدر السابق ، ١٢٤/٣ .

(٣) سالم ، عبد العزيز السيد ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

(٤) العلي ، صالح أحمد ، محاضرات ، ص ٥٠-٥٤ .

وقد ترك التدمريون آثاراً حضارية مهمة، منها معبد بعل (بل) وهو مقام على مرتفع من الأرض، وفي مقدمته قوس هائل، وطريق عريض طوله ١٢٤٠ ياردة، وعلى جوانبه ٣٧٠ عموداً طول كل منها ٥٥ قدم. وهذه الأعمدة منحوت معظمها من المرمر الأبيض والأخر من الحجر الأسود والأعمدة مرتبطة بالبعض الآخر. ويشكل هذا الطريق الشارع الرئيس في تدمر. ومنها تخرج الشوارع الفرعية وعلى جانبي المحلات التجارية^(١).

وبني التدمريون معابداً آخرى بالحجارة وزينوها بالنقوش والصور وبعض التماثيل. وكذلك بنو العمامات ودوراً مبلطة بالفسيفاء والرخام وبنوا القصور ومنها قصر الزباء الذي يعد آية من آيات الفن المعماري^(٢). وكانت معابدهم تمثل أرقى ما وصل إليه الفن المعماري فقد كانت على شكل أبراج مستطيلة متبايرة حول المدينة، يتتألف كل مدفن من أربع طبقات وارتفاعه ثمانون قدمًا وعرضه ثلاثون. وله باب خاص يدخل الناس منه إلى الطبقات^(٣). وكانت في المدافن صور منقوشة ملونة. وجرت العادة أن يدفن الميت في أعلىها^(٤).

وكان السكان في تدمر يتكونون من المواطنين والعبيد والأجانب فاما المواطنين فهم من عدة عشائر، وقد احتكروا الوظائف الإدارية وكل قبيلة كانت تتمتع بالاستقلال في شؤونها الخاصة ولها مجلس خاص.

أما الأجانب فكان أغلبهم من الأغريق والعبيد المحروميين. وكانت مكانتهم في المجتمع غير جيدة. وهناك جاليات أجنبية تقيم في فنادق خاصة بها. ولكل فندق رئيس يشرف على شؤون تلك الجالية^(٥).

(١) المصدر السابق ، ص ٥٣-٥٤ ، سالم ، عبد العزيز السيد ، المصدر السابق ، ص ٢٦٦-٢٦٧ .

(٢) سالم ، عبد العزيز السيد ، ص ٢٦٨ .

(٣) زيدان ، جرجي ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٤) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٥-٥٦ .



الباب الثاني

تاريخ عصر الرسالة

الفصل الأول

مصادر دراسة عصر الرسالة

المقدمة

حياة الرسول قبل البعثة ومصادر مسيرته :

والنبي محمد ﷺ بشر مثل سائر البشر، وهو لا يختلف عن البشر إلا في النبوة ونزول الوحي عليه. جاء في القرآن الكريم «قُلْ إِنَّا أَنَا بَشَرٌ مُّتَكَبِّرٌ يُوحَى إِلَيْنَا إِنَّهُمْ إِلَّا وَيَذَّهَّبُونَ» [الكهف: ١١٠] وعلى هذه الآية وبموجبها يجب السير في تدوين السيرة النبوية وتاريخها، ولو سرنا بموجبها وبموجب وحي آيات القرآن الأخرى لتجنبنا الوقوع في مزالق ومخاطر كثيرة وأصبحت سيرة الرسول سيرة حية، سيرة نبي مرسلاً بالمعنى الإسلامي الصحيح الذي نجد روحه في الآية المذكورة ولو جنب أصحاب السير المتأخرون سيرهم القصص الإسرائييلي الذي أدخل على السيرة والإسلام، والذي لا يتفق مع أحكام القرآن لأراحوا السيرة وجنحوا الناس الأخذ بهذا، القصص الذي بنى عليه بعض المستشرقين أحكاماً وأراء أسماءت كثيراً إلى الإسلام، وأرادوا بها التشكيك بصاحب الرسالة وبال المسلمين.

١- مولد محمد صلى الله عليه وسلم ونشأته :

ولد محمد صلى الله عليه وسلم في عام الفيل في الثاني عشر من ربيع الأول سنة (٥٧١) م في مكان غير بعيد عن الكعبة.

ولم ير أباه فكفله جده عبد المطلب - وكان من عادة الطبقات الراقية أن تعهد بأبنائها للمراضع من القبائل البدوية لينشأ الأطفال في هواء الصحراء الصافي نشأة

قوية. ولি�تعلموا الفروسيّة والعربيّة الفصحيّ. وحدث هذا لمحمد خلال سنتين أو أكثر. وكانت مرضعته حليمة وهي امرأة من قبيلة سعد بن بكر من قبيلة هوازن الكبيرة.

مات جده وهو في الثامنة من عمره فكفله عمه أبو طالب وسافر مع عمه أبو طالب إلى الشام متاجراً قبل أن يبلغ الحلم.

وعندما وقعت حرب الفجّار كان عمره أربع عشرة سنة، وكانت هذه الحرب بين قريش وكثانة من جهة وهو زان من جهة أخرى.

وقد حضر هذه الحرب مع أعمامه وكان ينالهم النيل وسميت هذه الحرب بحرب الفجّار لوقوعها في الأشهر الحرم.

وحضر حلف الفضول وكان في الخامسة والعشرين من عمره. وكان القرشيون قد تعاهدوا في هذا الحلف على إنصاف المظلوم والوقوف إلى جانب مباديء العدل ضد عدوان القبائل القوية. وكان هذا الهدف قريباً جداً في بعض الوجوه من تعاليم القرآن فأقاموا بهذا الحلف لإعادة السكينة والطمأنينة إلى مكة المقدسة التي تعيش على التجارة ودخلها من مواسم الحج وزيارة البيت والتقارب إلى الأصنام والأوثان التي كانت فيها. ولم يكن من مصلحة قريش وبقية سكان مكة، وهم حضر مستقرون انتشار الفتنة وظهور الاعتداء في مدينتهم وحواليها.

جاء في السيرة الحلبية أن الزبير بن عبد المطلب هو الذي دعا إلى الاجتماع في دار عبد الله بن جدعان لعقد هذا الحلف وورد في روايات أخرى أن العباس عم النبي ﷺ كان هو الداعي إلى ذلك الحلف كما ورد أن أبي سفيان كان هو الداعي إليه^(١).

ويظهر من دراسة الأصول القديمة لروايات حلف الفضول أن الذي دعا إلى هذا الحلف نفر من قريش، وإن الذي تزعم للدعوة وتبناها وجمع بين الرؤساء هو عبد الله بن جدعان من أثرياء مكة. أما إقحام اسم الزبير بن عبد المطلب والعباس

وأبي سفيان وغيرهم فقد وقع فيما بعد لغایات سياسية ودفاع عصبية تمت إلى السياسة العنفية التي كانت بين آل الزبير وأل أبي سفيان وأل العباس لما في إتحام هذه الأسماء في ذلك الحلف من أهمية سياسة آنذاك. وأقيمت وليمة للمجتمعين في دار عبد الله بن جدعان عند ختام جلسات الحلف.

واشتغل محمد ﷺ بالتجارة في مال خديجة بنت خويلد الأسدية وقد سافر في هذه التجارة إلى الشام.

وقد حققت هذه التجارة ربحاً كبيراً. وعندما اكتشفت خديجة خلقه الطيب وأمانه الصادقة ارتبطت به وقد تم هذا الارتباط بزواجه منها رغم أنها في الأربعين من عمرها وهو في الخامسة والعشرين. ورزق منها عدة أطفال توفى الذكور منهم في سن الطفولة.

ومن بنات خديجة فاطمة الزهراء. وقد اخلصت خديجة لزوجها وشدة إزره وكان محمد أكمل الأزواج لخديجة فظل وفياً لها طيلة ربع قرن مع أنها أكبر منه سنأ. ولم يتزوج عليها.

اشترك محمد ﷺ في تحديد بناء الكعبة مع قريش وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. وتوسط في حل الخلاف الذي وقع بين بطون قريش حول من يكون له شرف حمل الحجر الأسود ووضعه إذ بسط رداءه ووضع الحجر الأسود عليه وقال لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب فرفعوه حتى أتي موضعه فأخذه الرسول ووضعه مكانه وكان في عمله هذا حكيمًا أرضي الجميع.

وكانت مكة في أيام الرسول ﷺ مركزاً مهماً في الحجاز ذات قدسيّة خاصة وذًا مكانة كبيرة في عالم المال والتجارة العربية الغربية في ذلك العهد تتحكم فيها مظاهر الجاهلية من التفاخر بالأنساب والأحساب والمال والجاه، وتسطير عليها نزعة استبداد القوي بالضعيف وسيطرة الغني على الفقير.

مصادر سيرة الرسول :

استعملت لفظة (السيرة) بمعنى سيرة النبي قبل ورودها عند ابن هشام في روايته

عن ابن إسحاق ويبدو أن هذه اللفظة (السيرة) كانت مستعملة أيام محمد بن شهاب الزهري^(١).

واستعمل لفظ (معازى) بمعنى سيرة النبي أيضاً. روى ابن الأثير سيرة ابن إسحاق وقال: قال ابن إسحاق في المغازي أيضاً^(٢).

ومصادر السيرة كثيرة : أولها القرآن الكريم الذي يعد المصدر الرئيس لدراسة سيرة الرسول. فقد زود الباحثين بمعلومات عن حياة الرسول قبل الإسلام منها أن الرسول كان محملأ بأعباء الحياة قال تعالى: ﴿أَتَمْ يَعْذَلُ تِبِّعَاتِكَ وَوَجَدَكَ مَنَّاً لَفَهَدَى﴾ [الضحى: ٨-٦].

وجاء في القرآن أن الرسول أوحى إليه كما أوحى للأنبياء من قبليه ﴿كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ أَنَّهُ الْزَّيْرُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٣].

وفي القرآن الكريم معلومات مهمة جداً عن النزاع الذي حصل مع كفار قريش الذين اتهموه بأنه لم يكن من زعماء قريش البارزين (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ووردت في القرآن اتهامات قريش للنبي بأنه ساحر^(٣) وأنه مجنون^(٤) وكانت الآيات السابقة مكية، فقد أشارت إلى حياة الرسول في شبابه ووضحت جزءاً من صراعه مع قريش.

ويطّلعنا القرآن على الجانب الفكري لمجموعة من التغيرات التي حدثت في مكة وفي ضواحيها.

ومن الضروري مناقشة الحوادث التاريخية وسيرة الرسول في ضوء القرآن. وهذا يعني الرجوع إلى كتب التفسير وكتب أسباب النزول في ضبط الحوادث الواردة في كتب السير والتاريخ. وإذا فعل المؤرخ ذلك فإنه سيصون نفسه كثيراً من

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ٥٩/١٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٣/٣ .

(٣) أنظر الشورى : ٤٨-٣٠

(٤) العلي ، صالح أحمد ، المصدر السابق ، ص ٢٤١

الوقوع في مغالط ترسبت إلى أصحاب السير وكتب التاريخ من جراء روایاتهم، كل ما قبل من روایات وأخبار وتدوينهم له دون مناقشة وتطبيق ومقارنته بما ذكره علماء التفسير أو الحديث وما أوردوه هم وغيرهم من أسباب وأخبار آی القرآن الكريم، ولذا فقد أصبح لزاماً على المؤرخ في الوقت الحاضر أن يرجع إلى هذه الموارد لسد الثلم وتلافي الأخطاء الواقعة في المصادر الأخرى ليكون بحثه في هذا التاريخ قريباً من الواقع بقدر الاستطاعة.

وعلى المؤرخ أن لا يقبل من الأخبار والروایات إلا ما يتلائم مع روح القرآن الكريم وأحاديث الرسول وما هو من أمر الإسلام من نبذ الأساطير والقصص والخرافات. إذ لو كانت رسالة الرسول قصصاً وخوارق على نمط قصصبني إسرائيل لجاء ذلك في كتاب الله، وقد نزل الوحي بتأنيب قريش حينما أحروا على الرسول وأسرفوا في إلحاحهم بمعطالته بالمعجزات على نمط يهودي وتعليم من يهود. وأنبأ اليهود والنصارى لإضافتهم إلى أنبيائهم أشياء لا تصح نسبتها في دين الإسلام إلا إلى الله.

غير أن الاستفادة من القرآن في دراسة سيرة الرسول صعبة لأنه لم يشمل بالذكر كل الحوادث التي مر بها الإسلام وكل أعمال الرسول، ولم يرد فيه إلا اسم شخصين أحدهما مشرك وهو أبو لهب والثاني مسلم وهو زيد بن حارثة.

والصعوبة الثانية التي تواجه الباحث عند اعتماده القرآن في دراسة سيرة الرسول وخاصة الدور المكي. وهو معرفة زمن نزول الآيات لأن العلماء المسلمين الذين بحثوا أسباب النزول اكتفوا بذلك سبب نزول آيات معينة محدودة تشير في الغالب إلى أحكام وحوادث أو أشخاص معينين. أما بقية الآيات فلم يتطرقوا لها رغم أهميتها الكبرى في دراسة تطور الدعوة الإسلامية.

كتب السيرة :

لأقوال النبي ﷺ وأعماله أهمية كبيرة في حياته وبعد مماته وقد أوجب ذلك العناية الكبيرة بتدوين تفاصيل حياته. وجمع الروایات منه، ولم يكن الدافع الديني وراء هذا الاهتمام فقط، إذ كان الحافظ الأساسي هو حاجة المجتمع الإسلامي إلى

إرساء وثبيت العقائد والأحكام الشرعية الإسلامية.

ومن الراجح أن تكون القصص الشعبي للسيرة متداولاً في حياة النبي نفسه. كما كانت قصص الأنبياء متداولة عندهم أيضاً. وقد بقت بعض مظاهر القصص الشعبي في السيرة التي دونت فيما بعد كأحلام الطيرة مثلًا ومنها رؤية عاتكة قبل غزوة بدر التي تعد مثالاً حيًّا للقصص الشعبي في السيرة النبوية^(١).

روى ابن سعد ما يشير إلى أن بعض الصحابة قد تخصص في المغازي والسير فقد روى عن أبيان بن عثمان أنه قد تخصص فيها. وبعد عروة ابن الزبير أول من صنف في السيرة وجمعها أيضًا وهب بن منه^(٢).

أما عروة فهو أخو عبد الله بن الزبير، ولكنه لم يشارك في الصراع بينه وبين بنى أمية. وفي سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م. يابع عروة عبد الملك بن مروان. وقد كتب عروة إلى عبد الملك أخباراً عن فجر الإسلام. فقد كتب له عن الهجرة إلى الحبشة موضحاً أسبابها ونتائجها. وكانت هذه الأخبار على شكل رسالة إلى عبد الملك، فسر فيها، أسباب هجره المسلمين إلى الحبشة، وهي ضرورة الفرار من الاضطهاد الذي قامت به قبائل بنى أمية وسائر القبائل المعادية للجماعة المزديدة لأبي بكر والزبير رضي الله عنه وعائلتهما. ولعل سبب هذا التفسير كون عروة ينتمي إلى البيئة السياسية المتكونة من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وعائشة وطلحة والزبير، ومع تحizبه للحزب المذكور فإنه يقول أن أول من اعتنق الإسلام من الذكور هو زيد وليس جده أبي بكر^(٣).

ولا يوجد ما يشير على أن عروة كتب كتاباً خاصاً عن سيرة الرسول ولكن كثرة التقول عن عند ابن إسحاق والواقدي تثبت بأن عروة أول من دون السيرة بشكلها الذي عُرف فيما بعد.

وأما وهب بن منه فقد ولد في اليمن وكان قد زار الحجاز. وقد وصفه ياقوت

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٥٨/٢ .

(٢) حاجي خليفه ، كشف الظنون ، ١٧٤٧/٢ .

(٣) الطبرى ، المصدر السابق ، ١١٨٠/١ .

بأنه ثقة، صدوقاً كثيراً النقول عن الكتب القديمة.^(١) وجاء في كتاب «الفهرست» بأن ابن منه قد كتب كتاب المبتدأ^(٢) قد كتب على البردي ذكرت فيها يبعة العقبة^(٣). وروى ابن إسحاق عن وهب بن قتيبة في القسم الأول من السيرة^(٤) لكن الواقدي لم يذكره ولم يشير إليه البتة.

ثم تطورت السيرة على يد مجموعة من المهتمين بها أمثال عاصم بن عمرو بن قنادة (ت ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م) ومحمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ / ٧٤١ م).

فأما عاصم بن عمرو بن قنادة الأنصاري فقد وصفه بن قتيبة: (أنه صاحب السير والمغازي)^(٥) ولكنه لم ينسب إليه كتاب في هذا الموضوع. وقد روى عنه ابن إسحاق مباشرة وأخذ عنه الواقدي بإسناد عن محمد بن صالح ويونس بن محمد الطفري وموسى بن محمد ويعقوب بن محمد وعبد الرحمن بن عبد العزيز ومعاذ بن محمد الأنصاري.

وأما الزهري فقد ولد في مكة وعاش في المدينة ودرس بها علم السيرة حتى غادرها إلى دمشق سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م^(٦). وكانت دراسة علم السيرة مركزة في المدينة خاصة.

ويتضح من الروايات التي رويت عن الزهري في ابن إسحاق والواقدي أنه من أجل علماء السيرة.

وعلى الأرجح أنه أول من جمع روايات التابعين عن السيرة وأضاف إليها رواياته. ثم رويت الأخبار على شكل السيرة النبوية المعروفة عند ابن إسحاق

(١) معجم الأدباء ، ٢٥٩/١٩

(٢) الفهرست من ١٢٨ نشر جوزيف هوتفتز قطعة صغيرة منه .

Islamic culture , 1927 , p. 558 .

(٣)

(٤) السيرة ، ٣٢/١ .

(٥) المعارف ، ص ٤٤٦

(٦)

Islamic culture , 1928 , p. 37

والواقدي وموسى بن عقبة. وقد وصفه بن حجر بأنه أحد الأئمة الاعلام وبأنه عالم الحجاز والشام في الحديث^(١).

وكان أبو معشر وعمير بن المثنى ومحمد بن عبد الله بن أبي سيرة من تلامذة الزهري الذين أخذوا عنه وهم من مصادر الواقدي.

إن كثرة الاعتماد على الزهري في كتب ابن إسحاق الواقدي لدليل واضح على مدى أهمية الزهري في علم السيرة.

وروى ابن إسحاق والواقدي عن عبد الله بن أبي بكر (ت ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م) أموراً كثيرة عن السيرة. رغم أنه لم ينسب إليه كتاب في السيرة، فقد روى عنه ابن إسحاق مباشرة والواقدي عن طريق عبد الرحمن بن عبد العزيز ويحيى بن عبد الله ابن أبي قتادة وابن سمرة.

وقد وضع موسى بن عقبة (ت ١٤١ هـ / ٧٥٨ م) مع ابن إسحاق والواقدي الأسس التي بنى عليها المؤلفون المتأخرون مؤلفاتهم كالطبراني وابن كثير وابن سيد الناس.

كتب موسى بن عقبة كتاباً ظل موجوداً حتى القرن العاشر للهجرة^(٢). ومن خلال ما نقله عنه ابن سعد والطبراني وابن كثير والزرقاني وابن سيد الناس تتضح أهمية المعلومات التي أوردها موسى عن عقبة في كتابة السالف الذكر وقد وصفه ابن أنس بأنه ثقة في روایاته عن المغازي^(٣).

وبعد ابن إسحاق (ت ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) من أهم الذين اهتموا بالسيرة. وكان تلميذاً للزهري وقد وحلت سيرة ابن إسحاق بطرق عدّة من أهمها روایة ابن بکير التي نجد قطعاً كثيرة منها عند ابن سعد وابن الأثير وابن كثير.

كانت مساعدة ابن إسحاق أعظم مما سبقه فهو يجمع المعلومات القديمة، ومن ضمنها الأشعار القديمة، وقد عرف كيف يختار معلوماته، ويؤلف مادته في سرد

(١) تهذيب ، ٤٤٥/٩

(٢) الديار بكري ، تاريخ الغليس ، ٦٠/٢

(٣) الرازي ابن أبي حاتم ، الجرح والتعديل ، ١٥٤/٤ ق ١ .

محكم وهو يشير عادة إلى مراجعه حسب الطريقة الإسلامية. ويؤخذ على ابن إسحاق بأنه يتخل الأشعار، ويختفي في النسب وأنه يعتمد على أخبار أهل الكتاب ويسعهم أهل القلم الأول. ورغم هذه الهاهوات البسيطة، فإن مغازي ابن إسحاق التي رواها وأضاف إليها ابن هشام من أهم المصادر لدراسة حياة الرسول.

كان لوجود ابن إسحاق في بغداد أثر في موقفه غير الودي تجاه بنى أمية وذكره أموراً يهم العباسين ذكرها^(١).

ولا تمثل رواية ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) للسيرة النص الأصلي الكامل لسيرة ابن إسحاق لأنه هو والبكتاني قد غيرا في النص كما ذكر ذلك ابن هشام في مقدمة السيرة^(٢). وقد وضع ابن هشام سبب هذا التغير وهو حذف الموضوعات التي اعترض عليها النقاد كيده الخليفة، وقصص الأنبياء والشعر المنحول.

وقد توخي ابن إسحاق وابن هشام الدقة في معظم أخبارهما عن النبي. وكانا كثيراً ما يستعملان كلمة زعموا ليظهراً عدم تأكدهما من صحة بعض المعلومات التي يصدارنها بالعبارة المذكورة.

ويبدو أن ابن هشام قد حذف من سيرة ابن إسحاق أقساماً من المحتمل أن تكون ذات قيمة تاريخية بالغة الأهمية. وكانت بعض حجاج ابن هشام غير وجيهة، منها أنه حذف من سيرة ابن إسحاق ما يسوه بعض الناس ذكره على حد قوله، ومن الجائز أن ما خدمه هو جزء مهم من السيرة له أهمية في سير التاريخ الإسلامي العام^(٣).

ويعتقد مونتغمري وات أن سيرة ابن هشام (ليست سوى تكرار لسيرة ابن

(١) الفياض ، عبد الله ، محاضرات في تاريخ صدر الإسلام (بغداد ١٩٦٧) .

(٢) السيرة ، ٤/١ .

(٣) الفياض ، المصدر السابق والصفحة .

اسحاق. ويضيف ابن هشام عدداً قليلاً من التوضيحات^(١).

شهد القرنان الأول والثاني للهجرة تطوراً ملماً في السيرة على يد ثلاثة علماء وهم : معمر بن راشد (ت ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م) وأبو معشر (ت ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) وأخيراً الواقدي (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م).

أما معمر فقد روى أخباراً عن الزهرى وعاصم بن عمرو وهو من الرجال الذين وثقهم أصحاب الحديث والمغازي، فقد قالوا عنه: (.. لم يبق أحد من أهل زمانه أعلم منه، وذكره ابن حبان في الثقات)^(٢).

وروى ابن النديم أن له كتاباً في المغازي^(٣). ولكن لم يصل إلينا منه سوى ما نقله عنه الآخرون أمثال الواقدي وابن سعد.

وكان أبو معشر المدني (نجيح بن عبد الرحمن السندي) ثقة صدوقاً في المغازي والتاريخ إذ قال عنه أحمد بن حنبل (بصيراً بالمخازي)^(٤) ووصفه بن حجر بأنه (له مكانة في العلم والتاريخ)^(٥).

جاء في كتاب «الفهرست» (له كتاب المغازي)^(٦). ويظهر للمتابع للقرارات التي أوردتها الطبرى في تاريخه أن مغازي أبي معشر كمخازي موسى بن عقبة إذ تضمنت أخباراً عن حياة النبي قبل الهجرة.

بعد كتاب المغازي للواقدي صورة أخيرة من مراحل تطور السيرة في القرنين الأول والثاني للهجرة وروى الواقدي عن الزهرى عن طريق تلامذة الزهرى.

ما عدا ابن إسحاق ولعدم ذكر الواقدي لابن إسحاق ولتشابه بين سيرة ابن إسحاق وكتاب المغازي للواقدي فقد اتهم الواقدي بسرقة معلومات عن السيرة من ابن إسحاق^(٧).

(١) محمد في مكة ، ترجمة شعبان برकات ، بيروت ص ٨

(٢) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٢٤٥/١٠ .

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٣٨

(٤) أبو بكر الرازى ، المصدر السابق ، ٤٩٤/٤ ق ١ .

(٥) تهذيب التهذيب ، ٤٢٢/١٠ .

(٦) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٣٦

(٧)

طبق الواقدي من مغازي المنهج التاريخي الغنائي، فقد كان يربّ تفاصيل المختلفة للحوادث بطريقة منطقية لا تبدل، فهو يبدأ مغازيه بذكر قائمة طويلة من الرجال الذين نقل عنهم تلك الأخبار ثم يذكر المغازي واحدة واحدة مع تاريخ يحدّد لغزوة بدقة.

وفي الغالب فإنه يذكر تفاصيل جغرافية عن موقع الغزوة ثم يرد المغازي التي غزاها النبي بنفسه وأسماء من خلقهم على المدينة أثناء الغزوة وأخيراً يذكر شعار المسلمين في القتال. وكان يصف كل غزوة بأسلوب موحد، إذ يذكر اسم الغزوة وتاريخها وأميرها. وهو يجمع الرجال والأسانيد في صف واحد في أماكن كثيرة من سيرته.

ويفرد الواقدي الغزوة التي نزلت فيها آيات كثيرة من القرآن بفردها مع تفسيرها ويضعها في نهاية أخبار الغزوة.

ويورد الواقدي أسماء الذين يشهدوا المغازي الهامة وأسماء الذين استشهدوا فيها. وتمتاز مغازي الواقدي بالنظام المتكامل للتاريخ في حين هناك الكثير من المغازي غير المؤرخة عند ابن إسحاق مثل غزوةبني قينقاع وغزوة دومة الجندي وغزوة ذات السلاسل وغزوةبني سليم.

ويمتاز الواقدي بالإسهاب في التفصيل، والدقة في الترتيب عند سرده للحوادث المشهورة مثل أحد والطائف بأكثر وأحسن مما هو مذكور في المراجع الأخرى للسيرة لكن المغازي لا تتحدث إلا من الفترة الحديثة.

ومغازي الواقدي صورة حية لكثير من مظاهر الحياة في المجتمع الإسلامي في الفترة ما بين الهجرة وموت النبي مثل الزراعة والأصنام وعادات دفن الموتى.

وأخيراً، فقد اتبع الواقدي منهجاً نقدياً واعياً فنياً في اختيار وتنظيم روایاته، فهو يذكر آراءه وأفكاره عن الروايات التي كان يرويها. إذ كان يقول (وهو المثبت) و (الممتنع عليه عندنا) و (هو الثابت) إلى غير ذلك من العبارات التي تتوضع رأيه الصريح في تقويم تلك الروايات.

ويمدنا ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) بروايات متعددة عن أكثر من مسألة وإن كان بجمع كثيراً من الأخبار التي لا قيمة لها. غير أن كتاباته عن صحابة الرسول تحوي معلومات مفيدة لمعرفة بيته حياة الرسول.

٣- كتب التاريخ العامة :

تعد الكتب التاريخية من أهم مصادر سيرة الرسول منها تاريخ المدينة لعمر بن شبه وتاريخ المدينة للمسعودي وتاريخ مكة للأزرقي وتاريخ الطبرى واليعقوبى والمسعودي ومؤلفات البلاذري (أنساب الأشراف، فتوح البلدان).

ويعد «تاريخ الطبرى» أهم كتب التاريخ العامة في هذا الباب وأهمية الطبرى من السيرة أنه لا يحاول أن يؤلف رواية متابعة بل يذكر الروايات المختلفة فهو يملك عدداً كبيراً من المصادر تخص المسلم الذكر: الأول يعد الرسول، إذ كان البعض يقول أنه على والآخر يقول أنه زيد بين حارثة، وأخرون يقولون هو أبو بكر وابن إسحاق يقول بأنه علي.

ويملك الطبرى من بين مصادره العامة مصدراً مباشراً هو عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ / ٧١٢ م) الذي ترك مواداً مكتوبة لم تحفظ في مكان آخر.

٤- كتب الحديث قبل كتب الصحاح الستة وكتب المسانيد :

تبحث هذه المصادر عن سيرة الرسول وأعماله وما أقره من أحكام في مختلف نواحي الحياة السياسية والإدارية والمالية فضلاً عن أحكام الدين والطقوس والعبادات ومرؤياتهم عن حياة الرسول وأعماله السياسية والإدارية ذات الأهمية إلا أنها قليلة نسبياً، رغم أنها جوهر التاريخ، ثم أن الأحاديث المتعلقة بحياة الرسول لا تختلف كثيراً عمما أورده المؤرخون الأولون.

إن كتب الحديث هي مجموعة نصوص ولا بد من تحليلها وإيجاد العلة بينها وتفسيرها. ومع الأسف فلم تقم محاولة جدية لإيجاد العلة الزمنية بينها أو ربطها وتفسيرها واستخدامها لإعطاء صورة للأوضاع التاريخية.

ويلاحظ أن الأحاديث غير مرتبة ترتيباً زمنياً وقلما يشار إلى زمن حدوثها مما

يخلق صعوبة كبرى لدارس التاريخ الذي يقوم بحثه على أساس ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً^(١).

٥- أبحاث المستشرقين :

مما يؤخذ على المستشرقين تسرعهم في إصدار الأحكام في تاريخ الإسلام وانساقهم وراء عواطفهم لأنهم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان. وتبنيهم أحكاماً معتمدين فيها على الألفاظ المشتركة أو الشابه. ويقود تسرعهم هذا لسكون معظمهم من طبقة رجال الدين أو من الدارسين في كليات اللاهوت. وأنهم أن نطروا إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام حاولوا جهد إمكانهم ردتها إلى أصل نصراني أو يهودي.

لقد غالوا كثيراً في كتاباتهم من سيرة الرسول وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك فيها وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول ولو تمكناً لأنثروا الشك حتى في وجود النبي وطريقه، مثل هذه دفعتهم إلى الاستعنة بالشاذ الفريب فقدموه على المشهود المعروف - اعتمدوا على الشاذ ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذي استغريه النقد وأشاروا إلى نشوئه تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ، هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك ومهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول - فإن سيرة الرسول ﷺ هي أوضح وأطول سيرة معروفة بين سير جميع الرسل والأنبياء^(٢).

ومن بين هذه الطائفة شبرنكر A-sprenger مؤلف كتاب حياة محمد وهو في ثلاثة مجلدات فقد رکبه هوس حب الخبر القريب النادر فقدمه على المشهور المتواتر وأخذ بالروايات الضعيفة وبالقصص الإسرائيلي وبروايات الضعفاء. مع نص العلماء على فسادها فقوها وساندها وأقام لها وزناً، واستند إلى أخبار السيرة الحلبية كثيراً وفي هذه السيرة كما هو معروف حشو وقصص إسرائيلي نبه عليه العلماء فكان عليه أن يدرك ذلك ولكنه لم يتبته ولم يأخذ بوجوب تطبيق أصول النقد عليها فوق عمدأً أو سهواً في أغاليط. فندها جماعة من المستشرقين^(٣).

(١) العلي ، احمد صالح ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤-٢٤٥

(٢) علي ، جواد ، تاريخ العرب في الإسلام ، (بغداد ١٩٦١) ص ٩-٨

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠-١١

ويعد كيتاني في طليعة المستشرقين الذين درسوا السيرة ورجعوا إلى موارد كثيرة. وأحاط جهد إمكانه بكل ما ورد عن سيرة الرسول. ودرس كل خبر ونقده وببحث عن رواية لكنه أول بالخبر القريب وأخذ بالروايات المتأخرة الضعيفة التي لا أصول لها في كتب السيرة القديمة وفي الموارد الأخرى.

وأبدى فيها آراء مبنية على العاطفة في الغالب، وقد تهجم كثيراً على عبد الله ابن عباس لورود روايات يرجع سندها إليه وهي متناقضة أو غير صحيحة فحكم عليه حكماً قاسياً من غير أن يفطن إلى أن كثيراً مما أنسد إلى ابن عباس هو مما دس عليه وليس له دخل فيه لأنه أضيف إليه فيما بعد لأسباب عديدة سياسية وغيرها وقد بحث فيها بعض العلماء وأشاروا إلى (سلسلة الكذب) التي يصلها الرواية الضعفاء بابن عباس. كما بحثوا في الإسرائييليات التي أضيفت إليه وقد أخذها كيتاني وغيره على أنها أخبار صحيحة وردت عنه حقاً.

ويعد المؤرخ الأرمني سبيوس وهو من رجال القرن السابع الميلادي - الأول الهجري، من أوائل المؤرخين الذين أشاروا إلى الرسول. وقد ذكر أن محمدًا كان من الإسماعيليين، وقد انذر قومه بالعودة إلى دين آبائهم «إبراهيم»، ووعدهم بالفوز. وعلم هذا المؤرخ بالإسلام قليلاً جداً وهو لم يشر إلى المورد الذي أخذ منه أخبار الرسول وال المسلمين ولا يستبعد أن يكون أحد المسلمين^(١).

ويعد يوحنا الدمشقي (ت ٤٩ هـ / ١٣١ م) ممهداً الطريق للمستشرقين المعروفين بتوجههم على الإسلام.

فأكثر ما كتبه المستشرقون عن الرسول هو مما كان قاله هو ودونه قبلهم ما يزيد على ألف عام. كان يوحنا من أسرة معروفة في خدمتها للبلات الأموي.

وكان هو من المقربين للأمويين. وقد يسرت له ثروة أبيه سبيل الثقافة العالمية، فتعلم بالسريانية وأتقن اليونانية حتى صار كاتباً بارعاً، ولعله لمع في العربية أيضاً. وقد نسب يوحنا إلى الإسلام المهرطقة وادعى أن محمدًا أخذ علمه من رجل من أهل الكتاب، أو من رجل من الهراطقة الاريوسيت وهو قول سبق أن زعمته قريش

قبله وأشار القرآن الكريم إلى زعمهم^(١). وادعى أن الرسول كان قد نظر في التوراة والإنجيل وأنه تعلم فيها وتباً وأن الإسلام انتشر بعد السيف لا بالحجج والإقناع وفي جملة مجادلاته مع المسلمين قوله : (يتهم المسلمون النصارى بقيادة التماثيل المصنوعة من الحجارة أو الخشب مع أنهم هم أنفسهم يقبلون الحجر الأسود ويترقبون إليه. وهم في هذه الحالة لا يختلفون عن النصارى في تقبيلهم الصليب والصور الكنسية^(٢)).

وكان يوحنا يهاجم الرسول والإسلام رغم قربه من الخلفاء الأمويين واحتفاله عندهم كل ذلك دليل تسامح المسلمين وعدم مبالاتهم بما قال عنهم وإن كان غشًا. وظهر بعد الحرب العالمية الأولى عدد من الأبحاث عن سيرة الرسول ~~رسول~~^{رسول} امتازت بالاعتدال ويسعى التقدير للنواحي الروحية مستفيدة من القرآن الكريم، من أهمها أبحاث بوحل التي أوجزها في مقاله عن الرسول والقرآن في دائرة المعارف الإسلامية. ونور أندريه في كتابه (محمد : الرجل وإيمانه) والذي يعتبر متى أرّزت ما كتبه المستشرقون، وكذلك بيل الذي تناول في كتابه مقدمة للقرآن، تطور كثير من الأفكار الإسلامية كما تجلّى من القرآن.

أما مونتفوري وات فهو أكثر المستشرقين اعتدالاً في كتابه «محمد في مكة» و«محمد في المدينة» كثيراً من مباحث المستشرقين مع إضافات قيمة^(٣).

وهناك مؤلفات أخرى كتبها مجموعة من المستشرقين منها :

ما كتبه كل من : كريمه سنة ١٩٢١ بالألمانية وبالاشير بالفرنسية عام ١٩٥٢ وباريست بالألمانية سنة ١٩٥٧ وجودفري ديموبين في ١٩٦٩ ومكسيم رود نسون بالفرنسية عام ١٩٦٨ تم ترجم إلى الإنكليزية عام ١٩٧١ هذا إضافة إلى الدراسة الواسعة التي ضمنها ليوكابياتي في الجزء الأول والثاني من كتابه الضخم (حواليات

(١) Sebeos, Chronicle of Sebeos, (Petrograd, 1874) p.104.

(٢) كرونيوم ، كورنيل فوت ، حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويش ص ٦٥ . فما بعد .

(٣) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦

الإسلام) بالإيطالية. وترجمتها حسين جاهد إلى التركية^(١).

وظهر الاهتمام بكتابه سيرة الرسول ﷺ في العربية منذ مطلع القرن العشرين حيث أصدر الشيخ محمد الخضري كتابه عن السيرة ثم نشر الدكتور محمد حسين هيكل كتاباً بعنوان (حياة محمد). وألف محمد أحمد جاد المولى كتاباً بعنوان (محمد المثل الكامل) وكتب الدكتور طه حسين (على هامش السيرة) وكتب عباس محمود العقاد (عقبالية الرسول) وألف محمد عزة دروزة (كتاباً عن سيرة الرسول ﷺ). وعقدت ندوات متعددة لدراسة السيرة أقيمت فيها أبحاث كثيرة مما أعدده المشاركون فيها من مختلف الجنسيات والاتجاهات وأثير ذلك عن نشر الآلاف من الأبحاث المهمة.

(١) العلي ، أحمد صالح، الدولة في عهد الرسول ﷺ، المجلد الأول (بغداد ١٩٨٨)

الفصل الثاني

حياة الرسول قبل البعثة وظهور الدعوة الإسلامية

- البعثة ونزول الوحي :

كان لزواج محمد ﷺ من خليجة الأثر الكبير في حياته، فقد استقر في بيته وأصبح غنياً بمال خديجة. وبذلك منح فرصة والمزيد من التفكير ومنحه سنة مزيداً من العمق - فرأى أن يخلو لنفسه ويفكر في الكون وخالقه وشجعه زوجته على رغبته - فكانت تدعوه الطعام ليتبعده في حراء من كل ستة أشهر، يتفكير في الكون وخالقه والموت ومصير الإنسان بعده.

ولما بلغ الأربعين من عمره حيث تكامل بها واشتدت قواه العقلية ليكون متاهياً نزل عليه الوحي وهو يقصد في غار حراء في الاثنين السابع عشر من رمضان. دعا النبي ﷺ المقربين إليه كزوجته خديجة وابن عمه علي ومولاه زيد بن حارثة الكلبي - ثم أسلم أبو بكر ثم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص عبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله وأبو عبيدة بن الجراح والأرقمن بن أبي الأرقمن الذي اتخذت داره لتكون مقراً للدعوة السرية للدين الجديد^(١).

وظل الرسول ﷺ ثلاثة سنوات يدعو إلى الإسلام سراً كل من يطمئن إليه ويثق به وكان يصلى خفية هو وأتباعه في شباب مكة^(٢). إلى أن أمره الله باعلان الدعوة

(١) ابن هشام ، السيرة ، ٢٥٧/١ . ٣٧٠-

(٢) المصدر السابق ، ٢٦٣/١ ، ٢٨٠-٢٨١

إلى عشرته أولًا حين خاطبه قاتلًا :

﴿وَأَنِزْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبَيْنَ وَلَخِيفُ جَنَاحَكَ لِمَنِ ابْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) فَإِنْ عَصَمْتَ فَقُلْ إِنِّي بَرِئٌ مِّمَّا تَمَلَّأَتْ ﴾^(٢) [الشعراء: ٢١٤-٢١٦]. تعد هذه الآيات اعلانًا بالدعوة الإسلامية. فبدأ الرسول يبني عبد المطلب، فاجتمعوا إليه. فلما حضروا قال لهم إني ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فلقد جنتكم بخير الدنيا والأخرة. وبلغهم دعوه قصد به بعضهم وكذبه آخرون وكان عمه أبو لهب وزوجته من أشد الناس قسوة عليه.

فقد هتف به : تبا لك ألهذا دعوتنا^(٣).

فنزل قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَاكَ لَهُمْ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾^(٤) سَيَقْصَلَ نَارًا ذَاتَ لَبَّ ^(٥) [المسد: ٣-١]^(٦).

كانت هذه المرحلة بداية للدعوة العلنية، وقد مهدت الطريق للدعوة عامة الناس للدين الجديد إذ نزل قوله : ﴿فَأَنْسَعْ بِمَا تُؤْمِنْ وَأَعْرِضْ عَنِ التَّشْرِيكَ ﴾^(٧) [الحجر: ٩٤]^(٨) فأخذ الرسول يدعو جهراً كل الناس السادة والعيid، أقرباءه وغير أقرباءه، وأهل مكة ثم تجاوزها إلى المدن والقرى القريبة وكذلك العجاج الواقفين إلى مكة من مختلف الأماكن.

ابتدأ الرسول دعوته في مكة بقوله مخاطباً أهل مكة : «يا أهلا الناس، قولوا لا إله إلا الله تخلعوا، تملكون بها العرب، وتذلل لكم العجم»^(٩). ويعبر هذا الشعار عن التصور الاستراتيجي للرسول **التوحيد، الوحيدة، التحرر**. وهو بالإضافة إلى ذلك محاولة إلى إيقاظ الحماس القومي بين العرب ونقلهم من حدود المجتمع القبلي إلى التفكير بقضية أكبر تنسجم وطبيعة الفكر العربي، قضية تحمل الإنسان

(١) العاملاني ، السيد محسن الأمين ، سيرة الرسول عن طبقات ابن سعد (بغداد- ١٩٨٣) ص ٤١.

(٢) ابن هشام ، السيرة ، ٢٨١/١.

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ٢٨٠/١.

(٤) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٨١/١.

العربي تحت ضغط التساؤلات المتعددة عن قضيائنا جوهرية تفرض عليه الارتباط بالزمن وبالحركة التاريخية ارتباط يتجاوز به ذاته ويعرف معنى أن يكون متممياً إلى كيان أكبر من مجرد قريش أو مكة أو أي قبيلة^(١).

لم تعلن قريش عدائها للدين الجديد في طوره السري، وعندما كان محصوراً على بني عبد المطلب لأنها وجدت أن الحالة داخلية فلم تتدخل فيها وكانتا اكتفت بمقاومة أبي لهب وأمثاله ولم تتصور قريش أن الدعوة ستنتقى وتوسّع ويشد ساعدها ويعتقها أفراد كثيرون. ولكن ما أن جهر الرسول بالدين الجديد وأخذ يدعو كافة الناس بدأت قريش مقاومتها للإسلام وسلكت مختلف السبل للقضاء على الإسلام. وكان لمقاومة قريش أسباب عدّة منها :

- ١- خشيّت قريش على أصنامها وأوثانها التي كان وجودها في الكعبة مصدرأً هاماً لشرائها فعمدت إلى مناهضة الدعوة ومعاداتها.
- ٢- لأن الرسول سب ألهتها التي تعبدوها وتنعتها بمختلف النعوت وقال فيها القرآن «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ إِنَّ دُوْبَ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ» [الأنبياء: ٩٨] وأطلق الرسول على القرشين اسم المشركين، والكافرين، والفالبين، وال مجرمين والفاسين، والأثنين وغير ذلك من أوصاف الذم.
- ٣- دعا الإسلام إلى تنظيم اجتماعي يختلف اختلافاً أساسياً عن التنظيم الذي كان قائماً في الجزيرة العربية، وخاصة في مكة. فهو يدعو إلى الإنسانية والرحمة والشفقة والعطف على الضعيف والصادق والاستقامة ورضيع للتفاضل الاجتماعي مقاييس جديدة تقوم على أساس الأخلاق الفاضلة الصالحة بصرف النظر عن الثروة أو الجاه أو النسب. فانتشار الإسلام معناه تأثير مركز المتنفذين والأغنياء، إذ لم تكن لهم صفات أخلاقية حميدة ويحل محلهم أناس ربما كانوا فقراء أو من ليسوا من العشائر المكية.
- ٤- هاجم الرسول النظام السياسي المكي الذي يدين بالطاعة للرؤساء ودعا إلى الطاعة للرسول الذي تأتي بواسطته أحكام الإسلام. ويأمر القرآن بإطاعة الرسول

(١) الحديبي، نزار، محاضرات في التاريخ العربي (بغداد ١٩٧٩)، ص ٦٩ .

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٦) [الأحزاب].
 و﴿فَلَمْ يَطِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [آل عمران: ٣٢].

فارتاع القرشيون من هذه الدعوة وكرهوا أن ينزل الوحي على محمد لأنهم لم يقرروا له بالزعامة. ولم يكن من الزعماء السياسيين في مكة وأنه لم يأت معه بصفات خارقة - وجاءت أشد المقاومة من الارستقراطية والزعماء السياسيين من ذوي الجاه والشرف في مكة والمساهمين في اجتماعيات دار الندوة.

٥- كان المجتمع القرشي مجتمعاً تجارياً يأمس الحاجة إلى السلام والهدوء وأن السماح لأي حركة بالانتشار يعني خلق جو من الخوف والاضطراب مما يؤثر على سير معاملاتها التجارية في الداخل والخارج.

قاومت قريش الدعوة الإسلامية بطرق شتى فقد استعملوا سلاح النقاش والمحرج والأسلحة التعجيزية إضافة إلى سلاح التعرض والضرب والشتائم. وقد استعنوا بأصحاب اليهود لمناقشة الرسول لغرض زعزعة الثقة في نفوس المسلمين. ونصحهم هؤلاء الأخبار بأنه يسألوا الرسول ﷺ عن فتية ذهبوا في الدهر الأول وعن رجل طاف وعن الروح^(١).

وجهت قريش هذه الأسلحة للرسول ولم يستطع الإجابة عليها فوراً (حتى أرجف أهل مكة وخرجت قريش وحزن محمد ﷺ وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاء جبريل بالإجابة، فالفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول هم أصحاب الكهف. والرجل الطراف هو ذو القرنين).

وأما الروح فكان الجواب عليها : **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ وَمَا أُنْشِدَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾**^(٢) [الإسراء].

ولما علمت قريش بالإجابة الشافية على أسئلة أصحاب اليهود قررت استعمال القوة لمقاومة الدعوة، فاتجهت في أول الأمر إلى العبيد الضعفاء ثم إلى سواهم من المؤمنين وأخيراً إلى الرسول نفسه.

(١) ابن هشام المصدر السابق ، ٣٢١/١ .

(٢) المصدر السابق ٣٢٢/١ - ٣٢٩ .

فالعبد في رأي قريش ليسوا أحراراً لا في أجسادهم ولا في عقولهم وهم ضمن مات قريش - ولا يملكون الحق في أن يقولوا ما يريدون بل عليهم يتبعوا أسيادهم القرشيين، ولذا فقد تعرض ياسر وابنه عمّار وزوجته سمية كما تعرض خباب بن الأرت وبلال الحبشي إلى ألوان قاسية من العذاب، كالضرب والحرمان من الشراب. وقتل من اشت肯ى منهم من سوء الحالة^(١).

ورغم ذلك فقد زاد انتشار الدعوة الإسلامية وضمنت إليها بعض الأشراف من قريش، فعم الاعتداء على عامة المسلمين وأصبح كل مسلم هدفاً للاعتداء مهما كانت مكانة الاجتماعية. فتعرض أبو بكر وعثمان وأبي عبيدة والزبير^(٢).

الهجرة إلى الحبشة: تؤكد المصادر على ازدياد تعذيب قريش للمسلمين لغرض فتنهم عن دينهم - ولما كان الرسول قد منع من قريش بعده أبي طالب - ولما لم يكن باستطاعته دفع الأذى عن المسلمين، فقد قال لهم تفرقوا في الأرض فقالوا أين نذهب؟ فأشار إلى الحبشة في رجب من السنة الخامسة للنبوة. وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة منهم هاجر مع زوجته ومنهم من هاجر لوحده^(٣).

ويبدو أن الاضطهاد الذي عاناه المسلمون ومحاولتهم فتنهم عن دينهم لم يكونوا سبباً واضحاً للهجرة لأن المتصفح لأسماء مهاجرة الحبشة لا يجد فيها الضعفاء الذين لم تكن لهم عشائر تحميهم ولا أولئك الفضعاء الذين لا يتحملون كبير الفتنة وقسوة عذاب قريش ما عدا عمّار بن ياسر (وهو يشك فيهم)^(٤).

ويرى الدكتور مصطفى عبد اللطيف أن هناك سبباً مهماً آخر للهجرة وهو أن (اجتماع هؤلاء الصحابة حيث يمكن أن يكونوا مجتمعًا إسلامياً صغيراً) يربون فيه أنفسهم على الإسلام وقيمه وعقائده بعيداً عن رقابة المشركين . . . وثمة احتمال آخر غير بعيد، وهو أن يكون رسول الله كلف مهاجره الحبشة الأولين بأن يستطلعوا أمر

(١) المصدر السابق / ٣٣٩-٣٤٢.

(٢) المصدر السابق / ٣٤٤-٣٥٢.

(٣) المصدر السابق / ٣٤٥.

(٤) المصدر السابق / ٣٥٣.

هذا البلد الذي يدين أهله بدين كتابي لعله يكون صالحًا ويتخذه المسلمون قاعدة لهم وبليدًا لهجرتهم^(١).

ويعرض مونتغمري وات آراء المستشرقين في تعليل الهجرة إلى الحبشة وهي :

فرار المسلمين من الاضطهاد، وخوف النبي ﷺ من ارتداد المسلمين ، ولتحقيق بعض الأهداف التجارية. ورغبة في الحصول على دعم عسكري من الحبشة. يضاف إلى ذلك كان المهاجرون من حزب إسلامي يخالفحزب الذي لم يهاجر وهو حزب أبي بكر - ويرجع وات الرأي الأخير- لكن رأي وات يحتاج إلى إعادة نظر لأن بعض من هاجر إلى الحبشة كعثمان وطلحة كانوا من أصحاب أبي بكر.

وظل المسلمون الأشداء بمكة يحيطون بالرسول ويدفعون بينهم العداوة عند أنفسهم. وكان الرسول قد اختار الحبشة لتكون دار هجرة للمسلمين للأسباب التالية :

- ١- كانت الحبشة بعيدة عن مكة. وبحكمها ملك عادل.
- ٢- كانت الحبشة على النصرانية، والنصرانية تؤمن بوجود الله.
- ٣- عداء المكين للأباش منذ عهد أبرهة ملك الحبشة.
- ٤- كانت قريش تمثل إلى الفرس أعداء البيزنطيين في حين كان النجاشي حليقاً للبيزنطيين أعداء الفرس.

ولم تكن الجزيرة العربية ولا أطرافها مكاناً صالحًا للهجرة في هذا الوقت لأسباب الآتية :

- ١- كانت اليمن خاضعة للفرس وهم لا يعتقدون بالأديان السماوية يضاف إلى ذلك ميل قريش للفرس.
- ٢- كانت مواطن الجزيرة التي يسكنها اليهود والنصارى غير مهيئة لاستقبال المهاجرين المسلمين في هذا الوقت، لأن أهل الكتاب كانوا في نزاع مستمر، وهم غير مستعدون لقبول منافس ثالث يقول بالله على غير ما يقولون به.

(١) من حقائق الهجرة ، مجلة كلية التربية ، جامعة البصرة العدد ١٦ السنة الثالثة ١٩٨١ ص

-٣- أما الشام والحبشة فلقرיש فيها نفوذ كبير بسبب علاقاتها التجارية مع هذه الأماكن يضاف إلى ذلك فإن نفوذ القسس والرهبان في هذه المناطق لا يسمح بتأييد الدعوة الجديدة.

قدم المسلمون أرض الحبشة فجاؤوا خير جار آمنهم على دينهم وعبدوا الله . ولم يسمعوا ما يكرهون^(١) فأقاموا شعبان ورمضان ثم عاد قسم منهم إلى مكة في شوال لما بلغتهم باطل . واشتد عليهم قومهم ولقوا منهم كثيراً من الأذى . فاذن لهم الرسول بالخروج إلى الحبشة مرة ثانية . فلاقوا في خروجهم متاعب كثيرة وقد تابع المسلمون في الهجرة من مكة إلى الحبشة فهاجر إليها مرة ثانية ثلاثة وثمانون ومن النساء ثمانية عشرة امرأة فأكملهم نجاشي الحبشة وضمن حياتهم ولكن ليس هناك دليل على أنه قدم لهم منحاً وهبات . ولكن لما كان هؤلاء المهاجرون جاءوا من مجتمع تجاري . فمن المرجح أنهم أو بعضهم ساهم بالتجارة وأعمال البيع والشراء . واستطاع أن يكسب قوته منها ولعل من أسباب تأخر بعضهم عن العودة إلى المدينة هو انشغالهم بالتجارة^(٢) .

أهمية الهجرة إلى الحبشة :

كان للهجرة إلى الحبشة أثر كبير في نشر الإسلام إذ انتشر بين القبائل العربية أن بعض القرشيين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدين أخذوه عن النبي جديد ظهر في مكة . وبذا فقد سمع بأمر هذا الدين من لم يسمع من قبل .

وقد أدت الهجرة إلى تخفيف الضغط على المسلمين ، فقد رأت قريش أن فريقاً مضطهدآً أوذى في دينه فأضطر أن يهاجر إلى أماكن بعيدة فراراً من قريش . يضاف إلى ذلك فقد اضطربت قريش عندما اكتشف أن الإسلام غرس في نفوس المسلمين وبلغ في قلوبهم مبلغاً كبيراً فأضطربت لذلك سيماء وأن المسلمين وجدوا في الحبشة ملاداً لهم سينجحهم من قريش وسيشجع الآخرين على الدخول في الدين الجديد . ولما رأت قريش أن المسلمين قد استقروا في الحبشة واطمأنوا بها وأنهم قد

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٤٥ / ١

(٢) العلي ، أحمد صالح ، محاضرات ، ص ٣٦٩

أصابوا داراً وقراراً. قررت أن تبعث رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي فيردهم عليهم ليفتونهم في دينهم ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا وأمنوا فيها. فيعيشوا آمنين ومعهم هدايا للنجاشي ولبطارقة^(١). وعندما وصل وفد قريش فشل في تحقيق مهمتهم إذ رفض النجاشي هدايا قريش وطردhem (فخرجها من عنده مقيظين مردوداً عليها ما جاء به)^(٢).

صحيفة المقاطعة :

وفي الوقت الذي كان فيه المهاجرون في الجبنة ينعمون بالسلام والطمأنينة والحرية الدينية. ظل الرسول ﷺ والمسلمون الصامدون في مكة معرضين نفوسهم لخطر قريش وعدوانها. وكان الرسول نفسه قد تعرض للاعتداء. وكان أشد القرشيين عداوة له أبو جهل بن هشام بن المغيرة وأبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب وعقبة ابن أبي معيط^(٣).

ورغم هذه الظروف العسرة فقد أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحمزة ابن عبد المطلب وأخذ الإسلام يثبت في القبائل^(٤).

ولما وجدت قريش أن أبا طالب قام دون الرسول قررت أن تكتب كتاباً في السنة السابعة من البعثة علىبني هاشم وبني المطلب (على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحونهم، ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم) فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك. ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي. ويقال التضر بن الحارث^(٥).

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٥٧-٣٥٦ / ١

(٢) المصدر السابق / ٣٦٢ .

(٣) الطبرى ، تاريخ ، ٣٣٣ / ٢ ، وانتظر ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٨٣ / ١ و ٥٧ / ٢ .

(٤) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٧٥ / ١ .

(٥) المصدر السابق والجزء من ٣٧٥-٣٣٦ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ٣٣٥ / ٢ .

وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش وظاهراً على الرسول، فقام بـنـو هـاشـم وـبـنـو الـمـطـلـب مـنـ أـمـرـهـمـ سـتـيـنـ أوـ ثـلـاثـ حـتـىـ جـهـدـواـ لـاـ يـصـلـ إـلـىـ أـحـدـ مـنـهـمـ شـيـءـ إـلـاـ سـرـاـ مـتـخـفـياـ بـهـ^(١).

وقد ظهر في مكة بعض الخيرين ممن لم يرضهم هذه الحصار الجائر، فقد وقف حكيم بن حزام أحد أثرياء قريش، رغم وثبيته، موقفاً إنسانياً حيث كان يأتي بالعيير محملة بالمواد الغذائية ليلاً ويتركها تدخل شعب أبي طالب^(٢)، وكذلك كان هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث إذ كان يأتي بالعيير ليأْتِيَ وقد أوفه طعاماً حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوفه فيفعل به مثل ذلك^(٣). إن صلة القرابة التي ربطت حكيم بن حزام بخديجة زوجة الرسول ﷺ حيث كانت عمه، وكون هشام بن عمرو وهو ابن أخي نسلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، هي إحدى الأسباب التي دعتهم أن يساندوا بـنـو هـاشـمـ رغم مـعـارـضـةـ قـرـيـشـ وـزـعـمـانـهاـ لـعـلـمـهـمـ هـذـاـ.

تمنى الرسول ﷺ أن يأتيه من الله ما يقرب بينه وبين قومه وكان يسره مع حب قومه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلط عليه من أمرهم حتى حدث بذلك نفسه وتنمراه وأحبه.

فأنزل الله عزّ وجلّ «وَاتَّبَعَ إِذَا هَوَىٰ ① مَا عَلَىٰ صَاحِبِكُوٰرٰ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَغْلُبُ عَنِ ③ الْوَقَاءٰ ④﴾ [النجم] فلما انتهى إلى قوله «أَتَرَبَّتِ الْأَنْتَلَتِ وَالْمَرَّى ⑤ وَمَنْزَأَةٌ الْأَنْزَلَةَ الْأَخْرَى ⑥﴾ [النجم]^(٤) التي الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه وتمى أن يأتي به قومه: (تلك القرابين العلا وان شفاعتهم لترتجى) فلما سمعت قريش ذلك فرحت فرحاً شديداً وأعجبها ما ذكر به -الهـتهاـ - وسجد الرسول وسجد معه المسلمين وسجد من في المسجد من مشركي قريش. وغيرهم لما سمعوا من ذكر الهـتهاـ. ثم

(١) الطبرى ، المصدر السابق / ١٣٦ .

(٢) الزير بن بكار، نيسابورى قريش ط(القاهرة ١٩٨١) ص ٣٥٥ .

(٣) ابن هشام ، السيرة ٢/١٤ .

(٤) سورة النجم ١-٢ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ٢/٣٣٨ .

تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آهتهم. يقولون قد ذكر محمد الهتنا بأحسن الذكر وأوصلت قريش ذلك إلى أرض العبيضة. وقبل أسلمت قريش فنهض من المهاجرين في الحبشه راجعاً إلى مكة وتختلف آخرون.

حزن الرسول حزناً شديداً وخاف من الله، فأنزل الله يعزيه ويهدون عليه الأمر. وأخبره أنه لم يكن قبلهنبي ولا رسول تمنى كما تمنى ولا حب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى في أميته كما ألقى على لسانه. فأنزل الله ما ألقى الشيطان وأحکم آياته إذ أنزل الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نُؤْمِنُ إِلَّا إِنَّا نَتَّقَرَّ أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمَّيَّتِهِ فَنَسْخَ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يَعْكِمُ اللَّهُ مَا إِنْتَوْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ كِبِيرٌ﴾ [الحج]، ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آهتهم (أنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجي) بقوله من ذكر اللات والعزا ومناة الثالثة الأخرى، بقوله ﴿أَلَّمْ يَذَرْ ذَكْرُهُ وَلَكَ الْأُلْقَى﴾ [النجم] أي عوجاء ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أُمَّةٌ مَيَسِّرُوهَا أَئْمَانُهُمْ وَمَا يَأْكُلُونَ﴾ [النجم: ٢٣] إلى قوله ﴿لَمَنْ يَتَّهِمْ وَرَفِيقُهُ﴾ [النجم]. أي كيف تنفع شفاعة آهتهم عنده^(١).

ويرفض الدوري قصة الغرانيق إذ يقول: «وهي بذلك تزيد بيان نكوص الرسول عن مبادئه، ولو بعض يوم، ولكنها نسجت بشكل سرعان ما يتهافت أمام النقد. وروايتها تدل على وضعها في وقت متاخر...» ويرى الدكتور جواد علي أن قصة الغرانيق دست من قبل مُسلمة أهل الكتاب ووضعت بطابع القصص الإسرائيلي^(٢)

ازداد شر قريش على المسلمين بعد هذا النسخ فشددت على من أسلم واتبع الرسول، وأقبل ذلك النفر الذين خرجوا من أرض العبيضة لما بلغهم من إسلام مكة عرفوا أن الذي تحدثوا به من إسلام مكة كان باطلأ فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفيا^(٣).

(١) الطبرى ، تاريخ ، ٣٣٨-٣٣٩ / ٢

(٢) الطبرى ، المصدر السابق ، ٣٣٩ / ٢ . مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص ١١

(٣) المصدر السابق والجزء من ٣٤٠ ، ابن هشام ، المصدر السابق ٣ / ٢

ويبدو أن العائدين من الحبشة كانوا مكلفين بمهمة أنجزوها وعادوا كما أمرهم الرسول ﷺ بؤيد ذلك ما رواه ابن هشام (ثم قدم على رسول الله وهو بعمر عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه . . ثم استجابوا له)^(١) وقد روى بن هشام خبر الوفد الحبشي بعد ذكره هجرة الحبشة الثانية، وهذا يدل على أن مهاجري الحبشة حققوا بعض النجاح في كسب أهل الكتاب إلى الإسلام وهذا النجاح يبرر بقاء جعفر بن أبي طالب وبعض أصحابه في الحبشة حتى فتح خير.

كانت المقاطعة قاسية جداً، فقد استمرت ثلاث سنوات ضد بني هاشم وبني المطلب عانوا بسببها من الجوع والحرمان ولم تنتهي المعاهدة إلا بعد أن أشفقت بعض القرشيين على بني هاشم وبني المطلب بسبب ما نالهم من أذى وعداً. ولصعوبة تطبيق قرار المقاطعة فشلت هذه المقاطعة بعد أن مزقت الصحيفة^(٢).

وهنالك أسباب أخرى أدت إلى فشل المقاطعة منها وجود من يمد بني هاشم وبني المطلب بالمؤنة والتجارة سراً أمثال حكيم بن حزام بن أخ خديجة كما أن بني هاشم وبني المطلب كانوا يخرجون للتجارة مع المواسم. ثم قيام بعض رجال قريش مثل عامر بن لوي ونوقل بن عبد مناف وعبد العزيز بتمزيق الصحيفة وإنها المقاطعة. ولم يواجه عملهم هذا مقاومة واسعة إذ لم تذكر الأخبار سوى معارضة أبي جهل.

وخرج بنو هاشم من حصار الشعب في السنة العاشرة من النبوة إلى مساكنهم ثم توفيت خديجة زوجة الرسول، وتوفي عمه أبو طالب قبل هجرته إلى المدينة بثلاث سنوات فعظمت المصيبة على الرسول ﷺ ذلك أن قريشاً وصلوا من آذاء بعد موت أبي طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياته منه، حتى نثر بعضهم على رأس الرسول التراب. وقد عبر الرسول عن أهميته أبي طالب في حمايته إذ قال: (ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب)^(٣).

(١) المصدر السابق ، ٣٢/٢ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ٣٤٤-٣٤٣/٢ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ٥٩/٢

تجربة الطائف :

بعد أن رأى الرسول قريشاً قد ازدادت في اعتدائها عليه ونالت منه من الأذى ما لم تكن تناول منه في حياة عمها أبي طالب. فقر أن يلتجأ إلى بلد آخر غير مكة ينشر فيه الإسلام. فخرج إلى الطائف يلتزم النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه. ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله. فخرج إليهم وحده. وكان سكان الطائف منقسمين على أنفسهم وفيهم عشيرتان بارزتان هم بنو مالك والأحلاف فكانت علاقتهم وثيقة بهما زن وأقاما الأحلاف فكانت علاقتهم أوثق بمكة.

وكانت قبيلة ثقيف بالطائف تتجه بالسفر مسافات شاسعة بالتعاون غالباً مع قريش. وكان كثير من أغنياء مكة يملكون الأموال في الطائف ويقضون فيها فصل الصيف.

وكانت قبيلتنا هاشم وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف كما كانت مخزون تربطها مصالح مالية مشتركة مع ثقيف وكان القرشيون يفرضون الأموال للثقفيين ربياً فاحش^(١).

ويبدو أن الرسول ﷺ شعر بسوء استقلال المكيين لأهل الطائف، أو أنه لاحظ مصالح المكيين فيها فأراد أن ينشر بينهم الإسلام ليفصلهم عن أهل مكة ويهدد بهم تجارة المكيين مع اليمن^(٢). يضاف إلى ذلك فإن الرسول حاول اتخاذ الطائف قاعدة لها فيها من مزايا استراتيجية محاولات استغلالها واستغلال حالة التبعية لأثرياء قريش حيث يعيش المستضعفون أوضاعاً أسوأ من أوضاع أمثالهم في مكة، كذلك عيدها لأنها بيئة زراعية صناعية^(٣).

ولما وصل الرسول ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من مشاهيرهم وهم ثلاثة أخوة : عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير. ويبدو أن الرسول قد فكر باستحالتهم بالتلuring لهم بتحررهم من

(١) عدي بن قيس، أزحفة بن الأسود، أبو البخاري بن هاشم، زهير بن أبي أمية

(٢) العلي ، أحمد صالح ، المصدر السابق ، ص ٣٧٧ .

(٣) الحديث ، محاضرات ، ص ٧٨ .

سيطرة مخزوم المالية. وعندما جلس إليهم ودعائهم لم يقبلوا دعوته لكونهم من المستفدين من الاستغلال القريشي المفترض على أهل الطائف. ولم يكتفوا بذلك بل أغروا به سفاههم وعيدهم يسبونه ويصيرون به فانصرف بعد جهد جهيد من الطائف راجعة إلى مكة حيث ينس من الطائف^(١).

لم يرجع الرسول إلى مكة مباشرة بل توجه إلى حراء، وهي إحدى ضواحي مكة، وأخذ يفاوض زعماء القبائل ليتال جوار زعيم من زعمائها. وهذا يعني أن قبيلته قد عجزت عن حمايته بسبب أبي لهب. وقد رفض الذين اتصل بهم حمايته وجواره. ومنهم الأختن بن شريق من بني زهرة وسهيل بن عمر بن عامر ثم وافق المطعم بن عدي زعيم بني نوفل على حمايته.

دعوةحجاج مكة :

ثم رجع رسول الله إلى مكة بعد أن حصل على حماية المطعم بن عدي زعيم بني نوفل ووجد قريشاً أشد مما كانت عليه من خلافه وفراق دينه إلا بعض المستضعفين من آمن به. ومع ذلك فقد بدأ الرسول بعرض نفسه على الحجاج في الموسم ويدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل. لكن المشركين كانوا يحرضون الحجاج ضده ويقولون بأنه صاحب بدعة وضلالة^(٢). فكان بعض الحجاج يرفض دعوته وبعضهم الآخر يريد يمكن رداً قبيحاً.

وفي ذلك الوقت أسرى بالرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس حيث عرج به إلى السماوات السبع. قال تعالى: ﴿شَجَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِهِٗ بِئْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّتِي بَنَرَكُنَ حَوْلَهُ لِرَبِيعٍ مِّنْ مَّا بَيْنَ أَنَّهُ هُوَ السَّبِيعُ الْبَعْدِ﴾ [الإسراء: ١] وفي تلك الليلة فرضت الصلوات الخمس.^(٣)

وفي السنة الحادية عشرة للبعثة عرض الرسول نفسه على قبيلة من الأوس فيهم

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢/٦٠-٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ٢/٦٣-٦٧ ، الطبرى ، العدد السابق ، ٣٤٦-٣٥٠ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢/٥٠ .

أنس بن رافع وإياس بن معاذ. وقد جاءوا من يثرب يلتسمون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج.

جلس إليهم الرسول رد عاصم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ هذا خير ما جئتم به. فأخذ أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال: دعنا منك لقد جتنا لغير هذا فصمت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا إلى يثرب^(١).

وفي العام التالي عرض الرسول نفسه على قبائل العرب الواقفين إلى مكة كما يضع في كل موسم. فيبينما هو في العقبة إذ لقي رهطاً من الخزرج وقال لهم: (إلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى)، فجلسوا معه فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. فلما قدموا يثرب دعوا قومهم إلى الإسلام. حتى انتشر الإسلام فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله^(٢).

بيعتا العقبة :

وفي العام الثاني عشر للبعثة وافي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوا الرسول في العقبة وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله على أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوه ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا بهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصون الرسول في معروف. ولم يأخذ منهم البيعة على القتال لأن الله لم يأذن له في الحرب.

فلما انصرف القوم عنه بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي وأمره أن يقرئهم القرآن ويعليمهم الإسلام ويفقههم في الدين فكان يسمى مقريء المدينة^(٣).

ويظهر أن إمكانات مصعب التنظيمية كانت كبيرة، وأنه ركز في الدعوة على

(١) المصدر السابق والجزء من ٦٩ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ٣٥٢-٣٥٣ / ٢ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢ / ٧٣-٧٧ ، الطبرى ، المصدر السابق والجزء من ٣٥٣-٣٥٥ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢ / ٧٦-٧٣ ، الطبرى المصدر

الرجال الذين كان يعتقد بأهميتهم لاعتبارات تخص مكانتهم في قومهم، إذ يشار إلى إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير على يده^(١).

ثم رجع مصعب بن عمير إلى مكة في السنة الثالثة عشر للبعثة وخرج من خرج من عرب يشرب من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فوادعوا رسول الله العقبة.

وكانوا ثلث وسيعون رجلاً وامرأتان. فجاءهم الرسول ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له - وكان العباس أول متكلم - فتكلم مبيناً لهم أن الرسول في عز أهله وعشيرة لكنه أبي إلا الانحياز لل الخروج واللحوق بهم - فإن كانوا وافقوا له بما دعوه إليه ومانعوا من خالقه فهو ذاهب معهم وإلا فليدعوه، فأعلن الخروج أنهم مستعدون في الذود عنه وحمايته بأي ثمن - ثم تكلم الرسول وتلا القرآن ودعا إلى الله ورحب في الإسلام واشتربوا على الرسول أن يكون معهم على أعدادهم من يهود يشرب فقال: نعم ثم أخرج منهم اثنى عشر نقباً ليكونوا على قولهم بما فيهم^(٢).

لقد سميت بياعتا العقبة الثانية ببيعة الحرب حيث أذن الله لرسوله في القتال، فباعهم رسول الله على حرب الأحرم والأسود^(٣). وكانت قريش هي البادية دائماً بالعنف وأنها سبقت المسلمين واتخذت قرار تصفيه الإسلام. فكان قرار الحرب الإسلامي في العقبة الثانية دفاعاً مشروعاً عن النفس والعقيدة.

وقد كان بياعتا العقبة بمثابة أعداداً ليشرب لتكون دار هجرة للمسلمين وقد استقرت عملية الإعداد هذه عامين يقعان بين ثلث مواسم للحج. ولا شك، فإن اعتناق مثل الأوس والخروج الإسلام ومباعتهم للرسول في العقبة الأولى والثانية وترحبيهم بهجرة المسلمين والرسول إلى مدinetهم يرجع إلى مجموعة من الأسباب يمكن استنتاجها من دراسة يشرب قبل الإسلام ومنها :^(٤)

(١) السابق والجزء ، ص ٣٥٥-٣٥٧ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٨١/٨٩ .

(٣) المصدر السابق والجزء ص ٩٧ .

(٤) راجع الفصل المعنون (حوافز الحجاج) .

١- ولد اختلاط العرب باليهود في يثرب عند العرب ميلاً لفكرة الأديان السماوية لكثرة ما سمعوا من اليهود عن الله والحساب والبعث والجنة والنار، مما كان له الأثر في اخفاق الوثنية في نفوسيهم وجعلهم أقدر على فهم نبوة محمد من أهل مكة الوثنين^(١).

وهذا يعني أن دوافع الاستجابة للدعوة كانت دوافع عقائدية قوامها الاستعداد الذهني والروحي ، أي أنهم وجدوا في الإسلام ينسجم مع طبيعة تفكيرهم واتجاهاتهم الفكرية، فأسعد بن زرارة وأبو الهيثم ابن التيهان كانوا من يتكلّم بالتوحيد بشرب^(٢) وسويد بن الصامت كان يقرأ مجلة لقمان^(٣). تعطي هذه الروايات انطباعاً عن شيع معتقدات التوحيد في يثرب مما جعلهم مهيبين لقبول الإسلام ..

٢- كان اليهود قد غزوا أهل يثرب ببلادهم ، فكانوا إذا كان بيتهم شيء قالوا: إن نبياً مبعوث الآن، قد أطل زمانه فتتبعه فقتلوك معه قتل عاد وارم. وبسبب ذلك فقد أخذ أهل يثرب العهد على الرسول في أن يناصرهم ضد اليهود^(٤).

فلما كلم الرسول عرب يثرب قال بعضهم لبعض (يا قوم، تعلموا والله أنه للنبي الذي توعدكم به اليهود، فلا نسبنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه. وفي بيعة العقبة الثانية أخذ أهل يثرب العهد على الرسول في أن يناصرهم ضد اليهود^(٥)).

٣- كان الأوس والخزرج في عداء دائم. وقد أفصحت عن هذا العداء وفدهم الذي قابل الرسول قبل العقبة الأولى إذ قال (انا تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من الفداء والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك . . .)^(٦) ونتيجة لهذا العداء فقد

(١) توماس ارنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، ص ٤١ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ف ١ ، ١٤٦/١ .

(٣) الطبرى ، ٢ ، ٣٤٢ .

(٤) ابن هشام ، ١ ، المصادر السابق ، ٧٠/٢ .

(٥) المصادر السابق والجزء من ٨٥ .

(٦) المصادر السابق والجزء من ٧١ .

أخذت كل فتنة تبحث عن حليف لها ضد الأخرى^(١). وقد وقعت بينهم سلسلة من العرووب أهمها يوم بعاث التي حدثت قبل الهجرة بسنوات قليلة. وقد سارع الأوس إلى قبول الإسلام والترحيب بهجرة الرسول لاعتقادهم أنه لن يتقدم عليه أحد يشرب. وكان لمكانته الرفيعة في بيونات قريش وساداتها ولصلة النسب التي تربطه بالخارج، حيث أن أمة آمنة بنت وهب منبني النجار أحد بطون قبيلتهم، وانهزام الخرج في بعاث صلة قوية بقبيلتهم دعوته ومبايعتهم له لوثوقيهم من أنه يستطيع جمعهم مع الأوس تحت لوائه. وبذلك يظهر أن اقبال أهل يثرب على الإسلام كان مزيجاً من عوامل عقائدية وسياسية وعوامل أخرى.

الهجرة إلى يثرب :

لما أذن الله للرسول بالحرب وبايعه عرب يثرب في العقبة الأولى والثانية بالنصرة له ولمن اتبعه وأؤوي اليهم من المسلمين أمر رسول الله أصحابه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى يثرب والهجرة إليها واللحاق بإخوانهم من الأوس والخرج، إذ قال لهم (إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً ودارأ تأمينون بها) فخرجوا جماعة اثر جماعة وأقام الرسول بمكة يتضرر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة^(٢).

كان الرسول يختار لكل مسلم موعد هجرته حتى لا يخرجوا اتفاقاً أو خطأ في جماعة كبيرة تثير قريش وتعمل برد فعل حاسم، وهذا ما يؤيده بن هشام إذ يقول (ثم قدم المسلمون إرسالاً^(٣) أي قدموا يثرب على شكل جماعات صغيرة.

وكان الرسول ينظم مواعيد خروج المهاجرين ويوزعها على فترات مناسبة لكي لا يثير خروجهم قريش ولا يعرض عدداً كبيراً من المسلمين للخطر. ولم تكن جماعة المهاجرين تخرج من مكة دفعة واحدة وذلك زيادة في الحذر والحيطة، إذ

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ٦٩/٢ ، الطبرى ، المصدر السابق ٢/٣٥٢-٣٥٣ .

(٢) ابن هشام ، نفس المصدر ٢/١١١ .

(٣) المصدر السابق ٢/١١٥ .

كانوا يتلقون على موعد ومكان يجتمعون فيها قريباً من مكة. ويخرج كل مهاجر حسب الموعد إلى المكان ويدعى حيث يلتقي بجماعته الصغيرة^(١). وأمرهم الرسول أن لا يتفرقوا في أحياء يثرب عند وصولها.

ولم يبق مع الرسول بمكة إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب وأبي بكر^(٢).

ولما علمت قريش أن الرسول قد صار له أصحاب وأنصار من غيرهم بغير بلدتهم، ورأوا خروج أصحابه من المكين وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصحابها منهم منعة، حذروا خروج الرسول وعرفوا أنه قد أجمع لحرفهم. فاجتمعوا له في دار الندوة يتشارون فيها ما يصنعون في أمر الرسول حيث خافوه فأشار بعضهم بحسبه وبعضهم بقتله^(٣).

وانتهى بهم الأمر إلى أن يؤخذن من كل قبيلة فتى جلد وأن يعطى كل منها سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة وبذلك يتفرق دمه في القبائل فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً^(٤).

فنزل على الرسول قوله تعالى : «وَإِذَا يَنْكُرُكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكُمْ أَنْ يُخْرِجُوكُمْ وَيُمَكِّنُونَ وَيَنْكِرُهُ اللَّهُ وَأَنَّهُ خَيْرُ النَّاكِرِينَ» [الأنفال: ٣٠] ولذا فقد أمر الرسول بالهجرة، فهاجر إلى يثرب بصحبة أبي بكر. وأمر الرسول علي بن أبي طالب أن يبيت في فراشه تلك الليلة ليوهم القوم أنه في فراشه. ثم جاء القوم ووقفوا على باب بيت الرسول فوجدوا علياً على الفراش متلهملاً ببردة الرسول. فقام إليهم فانبهروا ورجعوا خائبين.

ولم يعلم أحد بخروج الرسول من مكة إلى المدينة إلا علي بن أبي طالب وأبي بكر وأبي بكر. وقد أخبر الرسول علياً بخروجه وأمره أن يتخلص بعده بمكة حتى

(١) المصدر السابق ١١٨/٢

(٢) المصدر السابق والجزء من ١٢١

(٣) المصدر نفسه والجزء من ١٢٤

(٤) المصدر نفسه والجزء من ١٢٥-١٢٦ .

يُؤذى عن الرسول الودائع التي كانت عنده للناس. وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته. وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لعن يرده عليهم.

ترك الرسول مكة متوجهاً نحو يثرب بصحبة أبي بكر الصديق وكانت الرحلة شاقة وطويلة. مرروا خلالها بجبل ثور، الذي يبعد ١٥ كم جنوب مكة، واختفوا هناك عندما بلغهم أن قريشاً جادة في البحث عنهم. وبعد أن هدأت قريش وظنوا أن الرسول قد وصل إلى يثرب خرج الرسول من غار جبل ثور مع صاحبه. وكان أبو بكر قد أعد راحلتين ودفعها إلى عبد الله بن أبي اريقط ليركبها الرسول وأبو بكر في رحلتها إلى يثرب.

وقد كان عبد الله بن أبي أريقط على دين قريش. وكان اختياره لهذه المهمة عملاً أريد به التمويه على قريش لكي لا تراقبه. قدم عبد الله بن أبي أريقط في الموعد المحدد مركباً وسار بهما عبد الله في طريق غير مطروق بالقرب من ساحل البحر الأحمر. ثم وصل قباء إحدى ضواحي يثرب. وبقي فيها أربعة أيام. وأسس فيها مسجد قباء الشهير. ثم خرج منها إلى يثرب فدخلها في ١٢ ربيع الأول سنة ٦٢٢ م.

أما علي بن أبي طالب فقد دنا منه القرشيون عندما كان نائماً في فراش الرسول فقالوا له (أين صاحبك؟ قال: لا أدرى أورقيباً كنت عليه! .. فانتهروه وضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه^(١). وأقام علي في مكة بعد الرسول ثلاثة ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله الوداع التي كانت عنده للناس. حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله فترسل معه في قيام ودخل يثرب في موكب الرسول.

وكان أهل يثرب مستدعون لاتباع أي طريق يساعدهم على تحسين حالتهم، لذا فلم يلتفتوا إلى اعترافات عبد الله بن أبي الذبيح في أن يكون ملكاً على يثرب^(٢). ورحبوا بالإسلام والمسلمين مدفوعين بالإيمان بالدين الجديد وبالرغبة في

(١) الطيري ، المصدر السابق ، ٣٧٤/٢ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢/٢٣٤-٢٣٨ .

التخلص من الفوضى وال الحرب الباردة اللتين كانا يسودان مدنهما.

ومما يشير الاستغراب انتشار الإسلام بشكل سريع بين أهالي يثرب حتى قال الرواية «لم يبق دار من دور أهل يثرب إلا وفيها رجال ونساء مسلمون»^(١). باشتئان بنى أوس الله من الأوس فقد كان فيهم صيفي أبو قيس بن الأسلت شاعراً وقائداً يطعون له وكان على الحنفية واختلف مع الرسول فترك يثرب لمساعدتها الرسول والتتحقق بمكة وهو أمر غريب إذ لم يرد ذكر لتناقض الرسول مع الحنفية في مكة، فلماذا يتناقض معها في يثرب^(٢).

أصبحت يثرب في ذلك اليوم تعرف بالمدينة، وستستعمل هذا الاسم من الآن فصاعداً، وأصبح العام الذي هاجر فيه الرسول بدأ للتاريخ الهجري. روى الطبرى أن النبي لما قدم المدينة (أمر بالتاريخ)^(٣) وذكر القلقشندي أن ابتداء التاريخ بالهجرة حدث في العام الأول للهجرة.

وقد وقع اختيار المسلمين على سنة هجرة الرسول إلى يثرب مبدأ لتقويمهم لأن تاريخ بعثته مختلف فيه كما أن وفاته تثير الشجون عندهم. مما حدا بهم إلى اختيار الهجرة، لأنها في رأيهم فرقة بين الحق والباطل كما أنهم لم يختلفوا في تاريخها. فكان تاريخ المسلمين بالهجرة أمر لم يجر عليه العالم القديم من قبل، فالفرس مثلاً كانت تؤرخ بتاريخ ملوكها، والروم تؤرخ بالاسكender ومصر تؤرخ بالميلاد والعرب في الجزيرة تتبع توارييخ مختلفة على حسب الأحداث الجسام مثل يوم داحس وعام الفيل^(٤).

وبهذا فإن السنة الأولى للهجرة النبوية إلى يثرب كانت السبب في ظهور تقويم خاص بالعرب المسلمين وحدهم من دون الأمم الأخرى. ولا يزال هذا التقويم ساري المفعول إلى الوقت الحاضر وسيظل قائماً ثابتاً بثبات العربية والإسلام في قلوب العرب المسلمين.

(١) السهيلي ، الروف الأنف ، ١٨٧/٢ .

(٢) الحديث ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٣) المصدر السابق ، ٣٨٨/٢ وانظر الصفحات ٣٨٩-٣٩٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

الفصل الثالث

قيام دولة المدينة

١- أسس وتنظيمات الدولة العربية في المدينة وأهمية دستورها

أصبح الرسول ﷺ منذ قدم المدينة رئيساً لجماعة سياسية إضافة إلى كونهنبياً مرسلًا عليه تبلغ رسالته، لذا رأى لزاماً عليه أن يهتم بالوسائل التي ينظم بها أمور الحياة في المدينة. فبدأ بوضع أسس وتنظيمات الدولة العربية في المدينة. وفيما يلي وييجاز أهم هذه الأسس والتنظيمات :

١- بناء مسجد المدينة : بني مسجد المدينة من الأجر وعلى ارتفاع بقدر القامة. وسقفه من سعف النخيل. وكانت سواريه من جذوع النخل. وقد عمل الرسول في بناء المسجد الجامع ليرغب المسلمين في العمل فيه ولذا فقد ت سابق المهاجرون والأنصار في بناء^(١).

وكان هذا المسجد مكاناً للتثبيت بالإسلام. ولم يكتف الرسول بتعليم المسلمين عظمة الخالق بل انصرف إلى وضع الأسس والمبادئ الأخلاقية القوية. ونشر المحبة الأخوية. والبر بالأرامل والأيتام والرفق بالحيوان والعطف على الصغير واحترام الكبير^(٢).

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ١٤١/٢ ، البلاذري ، فتح البلدان ، ص ٢٠ وهو غير المسجد الذي بناه الرسول في قباء ، ضاحية المدينة ، وقد ذكر ابن هشام ان الذي بني مسجد قباء هو عمار بن ياسر ، المصدر السابق ، ١٤٣/٢ .

(٢) سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف العلبيكي ، (بيروت ١٩٦٦) ص ١٧.

وكذلك اتّخذه المسلمون مكاناً لمباشرة أنواع المعاملات والاحتفالات. ثم كثرت الأصوات حول المسلمين فخصص جانب منه للتعليم وأخر للبيع والشراء، وجعل للصلة مكاناً خاصاً بعيداً عن الضجيج أطلق عليه المسجد^(١).

٢- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

عزم الرسول على توحيد صفوف المهاجرين والأنصار بالمدينة عن طريق تألفهم حتى لا تعود العداوة القديمة بين الأوس والخزرج. والمهاجرون هم مسلموا مكة الذين هجروا إلى المدينة بسبب اضطهاد أما الأنصار فهم مسلموا المدينة من الأوس والخزرج الذين رحبو بالمسلمين المهاجرين من مكة.

لقد كان المهاجرون فقراء لأنهم تركوا أموالهم وعوائلهم في مكة هرباً بدينهم الجديد من اضطهاد قريش. ولفرض ابعاد وحشة الغربة عنهم ويؤنسهم عن مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم البعض، آخى الرسول بين أصحابه من المهاجرين والأنصار إذ قال لهم (تَاخُوا فِي اللَّهِ أَخْوِينَ أَخْوِينَ)^(٢) فمثلاً كان الرسول وعلي بن أبي طالب أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين، وكان أبو بكر وخارجة بن زهير أخوين وهكذا.

وبذا ربط الرسول بين المهاجرين والأنصار عن طريق هذا النظام وكان لهذا النظام قوة أخوة النسب بما في ذلك الميراث وبهذه الطريقة حقق الرسول وحدة دينية بدل الوحدة القبلية التي كانت عند العرب قبل الإسلام. فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أنزل الله «وَأَلْوَأُوا الْأَرْجَاءَ بِعِنْدِهِمْ أَزْكَارٍ يَعْبَضُ فِي كَثِيرٍ أَلَّوْهُ» [الأفال: ٧٥] أي في الميراث.

٣- وضع القواعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة الجديدة :

اتجهت آيات مدنية كثيرة إلى تشرع قواعد الدولة الجديدة. وقد شرح الرسول هذه الآيات القرآنية للMuslimين. وفصلت الأعمال التي قام بها الرسول ما أجمله

(١) شلبى ، احمد ، المصدر السابق ، ١٤٩/١ - ١٥٠ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ١٥٠/٢ - ١٥١ .

الآيات القرآنية. فأصبح القرآن الكريم وأقوال الرسول وأعماله (السنة) نظام سياسي راجح يقوم على الشورى.

قال تعالى: «وَأَمْرُمُوهُمْ شُورَىٰ يَتَّخِذُونَهُمْ» [الشورى: ٣٨] و «وَشَاوِرُوهُمْ فِي أَنْكَارٍ» [آل عمران: ١٥٩].

وظهر نظام اقتصادي يكفل العدالة الاجتماعية. فقد جاء في الحديث الشريف (ليس بمسلم من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم). وظهر نظام اجتماعي قائم على أساس العمل الصالح والتقوى لا على المال والجاه والنسب. قال تعالى: «بِتَائِثَانِ الْأَنْسُرِ إِنَّا حَفَظْنَا مِنْ ذَكْرٍ وَأَنْتَ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَبَيْلَلَ لِتَعْلَمُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ إِنَّهُمْ فِيهَا أَنْتَكُمْ» [الحجرات: ١٣] ونظم الإسلام الأسرة وأوضح حقوق وواجبات كل عضو فيها^(١).

وهكذا أصبح الإسلام دون الجنس المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعاية ثم بين أفراد الشعب.

٤- دستور المدينة (الصحيفة) :

تجلى أسس وتنظيمات الدولة العربية في المدينة بالوثيقة التي كتبها الرسول بين المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود في السنة الثانية للهجرة بعد انتصاره على قريش في بدر^(٢). وقد أطلق على كتابه اسم الوثيقة والصحيفة والكتاب. وقد سمي بالمعنى باسم الكتاب تارة وصحيفة تارة أخرى. ويشير لسان العرب أن لفظة الصحيفة تعني الكتاب^(٣). والكتاب هو الشيء المفروض^(٤). قال تعالى: «كِتَابٌ عَلَيْكُمْ أَقْصَاصُ فِي الْقَتْلِ» [البقرة: ١٧٨]، «كِتَابٌ عَلَيْكُمْ أَعْيَامٌ» [البقرة: ١٨٣]، «كِتَابٌ أَنَّهُ عَلَيْكُمْ» [النساء: ٢٤]، ومن يقرأ الصحيفة يظهر له :

(١) شلي ، أحمد ، المصدر السابق ، ١٥١/١ .

(٢) الطبرى ، تاريخ ، ٤٧٩/٢ .

(٣) ٤١٢/٢ ، مادة صحف.

(٤) المصدر السابق ، ٢١٧/٣ ، (مادة كتب) .

أن أسلوبها بسيط غير معقد وكتبت نصوصها على نمط واحد. وتلائم كلماتها وتعابيرها روح العصر الذي كتبت فيه وبعض تعابيرها كاستعمال كلمة المؤمنين للدلالة على المسلمين يرجع إلى الفترة الأولى للمدينة^(١). وهي لا تمس مصلحة أحد لتكون عرضة للتزوير وقد ورد فيها كلمات وتعابير سرعان ما ضُرِّبَ استعمالها بعد أن أصبحت غير معروفة لمن ألف أسلوب العصر العباسي مثلاً.

ولا تشير الصحيفة أنها نتيجة مفاوضات جرت بين أطراف معينة. ولا تشير إلى تاريخ كتابتها واسم كاتبها كما هو شأن المعاهدات التي عقدها الرسول مع قريش أو مع النصارى.

والراجح أنها كتبت في السنة الثانية للهجرة يؤيد ذلك ما رواه الطبراني في حوادث سنة ٢ هـ بعد معركة بدر حين عاد الرسول إلى المدينة (وكان قد وادع حين قدم المدينة يهودها على أن لا يعينوا عليه أحداً وأنه إن دهمه بها عدو نصروه...). وهذا ما يؤيده المنطق فإنها تجعل الرسول المرجع الأعلى في شؤون المدينة ومشاكلها ويُخضع لسلطانه جميع أهل المدينة حتى اليهود.

وهذا لا يمكن أن يكون إلا بعد بدر التي انتصر فيها المسلمون وكان ذلك الانتصار مصدر قوة معنوية كبيرة للرسول. يضاف إلى ذلك ما رافق المعركة من محاولات شغب قام بها اليهود ضد المسلمين. فكان لا بد من تنظيم العلاقة بين الرسول واليهود وخاصة المحايدين منهم. ويبعد أن الإشارات إلى القتال في سبيل الله تعني أن القتال قد وقع. وأن الموقف المعادي من قريش لا يمكن أن يطلب من المؤمنين المدنيين إلا بعد بدر^(٣).

يضاف إلى ذلك فقد وردت في الصحيفة فقرة جاء فيها (أنه لا يحل لمؤمن أقر

(١) وات ، مونتغمري ، محمد في المدينة ص ٣٤٢ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ٤٧٩/٢ .

(٣) وات ، المصدر السابق ، ص ٣٤٣ .

بما في هذه الصحيفة . . . أن ينصر محدثاً أو يأويه^(١) ويبدو أن هذه الفقرة تناقض المنشاكل التي حدثت بعد بدر حيث حاول بعض المسلمين إجارة أسرى قريش وحمائهم. كل ذلك يرجع كون الصحيفة كتبت في السنة ٢ هـ / ٦٢٣ م.

وتقسم الصحيفة إلى ثلاثة أقسام :

١- يبحث القسم الأول منها أموراً كثيرة تتعلق بال المسلمين وأمورهم ومشاكلهم في المجتمع الجديد. واستناداً إلى ما جاء في الصحيفة فإن المسلمين أصبحوا أمة واحدة يعبدون إليها واحداً ولهم رسول واحد وهو محمد ﷺ . وهم يخضعون لنظم دينية واحدة وإلههم الله وهو الأول والأخر والظاهر والباطن والذي يخضع له الجميع ويطيعوه. وتتجلى أوامره في القرآن الكريم وتعاليمه التي نزلت على محمد ﷺ . وهو بشير اكتسب مكانة خاصة لأن الله اختاره لتبلیغ رسالته وعلى الناس طاعته. قال تعالى: «مَنْ يُطِّعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ» [النساء: ٨]. وقال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُطْكَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ» [النساء: ٦٤] و «فَلَمْ أَطِمْعُ لَهُ وَلِرَسُولِهِ ...» الخ [آل عمران: ٣٢] من الآيات القرآنية^(٢).

رغم أن الرسول نبي وبشر مثل سائر البشر. وهو لا يختلف عن البشر إلا في النبوة ونزلول الوحي عليه. إذ ورد في القرآن الكريم «فَلَمْ يَأْتِ أَنَّا بِنَارٍ شَنَّكُرْ يُؤْمِنَ إِلَيْهِ أَنَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَّهُدٌ» [الكهف: ١١١] لكنه كان يسير بهدى الله. ولم يورد القرآن الكريم مباديء مفصلة تتعلق بالإدارة. أما تفصيل ذلك فقد وضعه النبي مراعياً روح الإسلام والظروف المحيطة به وحاجة المجتمع.

لقد جعلت الصحيفة من المسلمين أمة واحدة. ولتعبير الأمة معنى الجماعة الدينية. وبذلك فقد أصبح تنظيم المسلمين قائماً على عقيدة الإسلام لا على الدم. والإسلام قائم على مباديء روحية وأخلاقية متزوجة فيها السياسية والأخلاق. علمًا

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ١٤٨/٢ - ١٤٩ . فلها وزن يروي إنها كتبت قبل بده ، لكنه لا يذكر مصدره ، ومع ذلك أنظر .

(٢) أنظر الأحزاب ، آية ٧١ ، آل عمران ، ٣٢ ، النساء ، آية ١٣ و ١٦٩ والتوبية آية ، ٧١ .

بأن هذه الأمة الإسلامية، قابلة للتوسيع والتقلص حسب من ينظم إليها من الناس، وعناصر هذه الأمة متساون في الحقوق والواجبات.

وهذا يعني أن الرسول قد احتوى الأمة العربية عقائدياً وليس عنصرياً وقد أكدت الوثيقة على ذلك حيث جاء فيها «هذا كتاب من محمد ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويشرب ومنتبعهم فلتحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس» وهذا يعني أن الأمة الواحدة هي المسلمين فقط وليس كل العرب. والأمة هنا كيان قومي يقوم على عقيدة الإسلام وليس من هذه الأمة من لم يعتنق هذه العقيدة.

وتقر الصحيفة بوجود الجماعات القبلية التي كانت قائمة قبل الهجرة إلى المدينة وأثنائها. وقد أعطت الصحيفة لهذه الجماعات القبلية حقها في الحفاظ على وحدتها وحق الجوار والدية المشتركة وبعض الأمور المالية.

وقد أكدت الصحيفة على الخزرج، فقد ذكرت ستة من قبائلهم. وأعطت كل قبيلة من هذه القبائل حقها في تكوين وحدة مستقلة ولعل ذلك يعود إلى كثرة من أيد الإسلام من الخزرج. أو أن هناك سبب آخر. أما الأوس فقد اعتبرتهم الصحيفة قبيلة قائمة بذاتها وكذلك الحال بالنسبة للمهاجرين.

ورغم أن الصحيفة أباحت لمشركي المدينة أن ينظموا إليها إلا أنهم ليسوا متساوين مع المسلمين لأن الصحيفة نصت على أنه (لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينتصر كافراً على مؤمن). وهذا لا يسري على مشركي قريش الذين نصت الصحيفة على عدم ادخالهم في اشتراطها، (لا يجبر مشرك مالاً لقريش ولا نفسها ولا يتحول دونه على مؤمن). ولم تتع الصحفة إجارة مشركي قريش ولم تشركهم في الدفاع عن المدينة. ولكنها أباحت ذلك لمشركي المدينة لإدراك الرسول أن الروح القبلية كانت متصلة وأن اهمالها قد بغضب أخوان وأقارب مشركي المدينة الذين أسلموا لو اضطهدتهم. وبذل أراد الرسول المحافظة على الوحدة القبلية.

ولم يكن الرسول راغباً في إبعاد مشركي المدينة عن هذه الأمور بل ترك لهم حق الخيار. فإن رفضوا المساهمة في الحياة العامة والدفاع عن المدينة فإن

المسؤولية تُلقى عليهم. ولا تشير المصادر المتوفرة الآن إلى عدد هؤلاء الذين بقوا على الشرك في يثرب ولا إلى المدى الذي حافظوا فيه على علاقاتهم بال المسلمين أو هل ساهموا في الحرب مع المسلمين أولاً.

ولم تكن للدولة العربية الجديدة هيئة إدارية خاصة متكونة من مجموعة من الموظفين بل كان النبي يسند الأعمال التي تستجد إلى أشخاص قد يغيرهم بين الحين والأخر. فهم ليسوا ثابتين أو دائمين. وكان الرسول يشاور الصحابة دائماً ولم يفرض عليهم رأيه وأن كانت آرائهم غير الزامية (وشاورهم في الأمر) و(أمرهم شورى بينهم).

وقد تقرر في الصحيفة أن يشارك جميع سكان المدينة في أمور السلم وال الحرب وبذلك تتجلى وحدة الدولة العربية كلها، فسلم المؤمنين وحربهم واحد، إذ لا يسامم مؤمن دون مؤمن في قتال إلا على سواء وعدل بينهم. ولا يمكن أن يحارب بعض المتعاهدين ويتقاعس الآخرون. إذ جاء في الصحيفة (المشاركون بالوثيقة ومنتبعهم فلتحق بهم وجاحد معهم في أحوال الحرب والسلم).

ويشتراك في الخدمة العسكرية جميع أهل الصحيفة، وبشكل دوري. جاء في الصحيفة: (وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً). وعلى المسلمين أن يكونوا أولياء بعض للبعض الآخر يتعاونون في السراء والضراء وال Herb والسلم. فقد جاء في الصحيفة: (وان المؤمنين بنى بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله).

وأعطت الصحيفة الحق لمن دخلها صغيراً كان أو كبيراً في أن يجير كما كان عليه من قبل ويحترم وعله وتقييد به الأمة كلها كما جاء في الصحيفة (وان ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض دون الناس). ويظهر من هذه الفقرة أن الكتلة الإسلامية الجديدة سادتها روح الأخوة والمساواة، إذ لا فرق بين كبير وصغير غني أو فقير وهم جميعاً متساوون، ويمثلون حق الإيجارة وفقاً للتقليد العربي الذي كان سائداً قبل الإسلام وهذا يحمل روح احترام الفردية والتزام المجتمع بما يقرره الفرد. ويبدو أن الرسول قد أدرك أهمية اعطاء حق

الإجارة لمن دخل في الصحيفة. لأن ذلك من شأنه أن يجلب عدد من الناس للإسلام إذ ينتحل المسلم أن يحمي أنصاره وعوادره الذين قد يحتاجون هذه الإجارة وهذا قد يجعلهم إلى الإسلام علمًا أن هذه الإجارة لا تشمل كفار قريش. فقد جاء في الصحيفة (لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفساً ولا يتحول دونه على مؤمن).

٢- وأما القسم الثاني من الصحيفة فقد خص اليهود ونظم علاقتهم بالدولة العربية وكافة أعضاء المجتمع الإسلامي. فقد أوجبت الصحيفة على اليهود المساعدة في الدفاع عن المدينة إذ جاء في الصحيفة (وان عليهم النصر على من دهم يشرب) وبذلك فقد أوجب عليهم الاشتراك في الحرب الدفاعية عن المدين.

وجاء في فقرة أخرى من الصحيفة (وان عليهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وعليهم النصر والسبير دون الائم). ولا أدرى ما الفرق بين الفقرتين. ومن الجائز أن المقصود بالفقرة الأخيرة أنه على اليهود أن يحاربوا من حاربه المسلمين، أي أن الصحيفة هجومية دفاعية، وقد تعني أن اليهود يقفون موقف العياد مع عطفهم على المسلمين أي أنهم يؤيدون المسلمين سليمانًا ولا ينصروا خصومهم. ويبدو أن الاحتمال الثاني هو الراجح. لأن اليهود لم يساهموا في حرب هجومية قام بها المسلمين. ولم يرو التاريخ أن الرسول قد لام اليهود على موقفهم العيادي مع العطف على المسلمين. بل كان اللوم علىبني قريطة لأنها جازهم إلى قريش. وهناك فقرة تجيز لهم عدم المساعدة في الحرب الدينية الإسلامية.

فقد جاء في الصحيفة (وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه، فإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤذنين إلا من حارب في الدين ...). وتأتي هذه الفقرة بعد الفقرة التي تتعلق بالدفاع عن المدينة فهي اذن مرتبطة بها ومكملة لها.

وقد فتحت الصحيفة للراغبين من اليهود في دخول الإسلام وكفلت لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق. إذ جاء في الوثيقة (وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم).

ونصت الصحيفة: (أنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد). وهذا يعني لا يسمح لليهود أن يبدوا حرباً إلا بإذن محمد. ومعنى ذلك أن قوة محمد قد توسيط

فأخذ يعمل على حرمان قريش من مساعدة اليهود والتحالف معهم وقد نص على ذلك في فقرة أخرى إذ جاء فيها (وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها).

٣ - وخصص القسم الثالث لأمور عامة تخص المدينة. إذ اعتبر الرسول المدينة حرم لأهل هذه الصحيفة. جاء في الصحيفة ما نصه (وان يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة). وهذا يعني أن السلام أُffer في داخل يثرب.

وحضرت الحرب أو القتال فيها ومنع الاعتداء على أحد فيها. ولم تعين حدود هذا الحرم ولا نطاقه. ولم تبين الصحيفة حكم غير أهل الصحيفة ومن الجائز أنهم لم يعترفوا بهذا الحرم.

وقد استهدفت الصحيفة تنظيم العدالة والقضاء وإدارته. وقد ركزت السلطة القضائية بيد الرسول في الخلافات بين أهل الصحيفة. جاء في إحدى فقراتها (وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله والى محمد رسول الله) وقد خلقت هذه الفقرة الهدوء والاستقرار اللذان كانت تفتقر إليها يثرب فترة طويلة. فقد أوجدت الصحيفة سلطة قضائية مركزية يرجع إليها جميع أهل الصحيفة. إن قبول اليهود بالرجوع إلى الرسول في التحكيم معناه اعترافهم بسلطة واسعة للرسول ويظهر ضعفهم ومكانتهم الثانوية.

وقد اعتبرت الصحيفة المسلمين كتلة واحدة. أما اليهود فقد ذكرتهم على شكل قبائل متعددة متفرقة. فقد جاء في إحدى فقراتها (يهودبني النجار،بني العارت،بني عوف،بني ساعدة،بني جشم،بني الأوس،بني ثعلبة،بني جفنة،بني الشطيبة). وقد دخلت كل قبيلة في الصحيفة كوحدة مستقلة عن غيرها. وعندما حارب المسلمون بعض هذه القبائل التزمت سائر القبائل اليهودية بالصمت، ولم تعلن إلغاء الصحيفة من طرفها ولم يعتبر ذلك نقضاً بالنسبة لبقاء اليهود.

اعترفت الصحيفة بالحرمة الدينية لليهود ومواليهم. وحصرت مسؤولية الاجرام فيمن قام بالجريمة وفي أهل بيته ولا يمتد إلى عشيرته. إذ جاء فيها (أن يهودبني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وإثم فإنه لا يوتنه (يؤذني) إلا نفسه وأهل بيته ...).

وأوجبت الصحيفة على اليهود أن يتحملوا نفقات الحرب التي سيخوضونها مع المسلمين للدفاع عن يثرب وكذلك الحال بالنسبة للمسلمين. جاء في الصحيفة (وأن على اليهود نفقاتهم وعلى المسلمين نفقاتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة).

وقد ورد في الصحيفة أسماء قبائل من مشركي المدينة. وعلى الأرجح أن الرسول لم يجبرهم على الانضواء للصحيفة وتنفيذ أحكامها. لكنهم لم يكن بإمكانهم المحافظة على أنفسهم وأموالهم في خارج المدينة بدون مساعدة سائر أقاربهم. فانضموا للصحيفة وأدركوا أن لا مفر من تحكيم الرسول خاصة بعد أسلمت معظم عشيرتهم ورؤسائهم فاضطروا أن يتبعوا أقاربهم رغم اختلافهم دينياً معهم. وقد جاء في الصحيفة (ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمد رسول الله ...).

وأوجبت الصحيفة على الداخلين فيها من المشركين أن (لا يجبر مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن). والمقصود بالشركين هنا المشركين واليهود. وتمنعوا هذه الفقرة من التجسس لمصلحة قريش ويقطع علاقتهم بها.

وجعلت الصحيفة مكانة الكافر دون مكانة المسلم. إذ عدت دمائهم لا تتكافىء مع دماء المسلمين. جاء في الصحيفة (فلا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن).

وتؤكد الصحيفة على المؤمنين لتمييزهم عن غيرهم من بقي على الشرك ولهؤلاء المؤمنين أحكام خاصة بهم، رغم أن الصحيفة تقرّتعاون المؤمنين مع المشركين.

ويشكل المؤمنون كتلة خاصة عليهم التعاون فيما بينهم في السراء والضراء. جاء في الصحيفة (وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم يعطوه بالمعروف والقسط بين المؤمنين). و (أن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس).

والمسلمون يدُ واحدة على كل من بني ونشر الظلم والعدوان والفساد بين

المؤمنين. وهم يجتهدون في عقاب حتى ولو كان ابن أحدهم. وتسرى العدالة والأحكام على المسلمين جميعاً لا تمييز بينهم. ومن ارتكب جريمة القتل العمد فعلية القصاص. ولكن يجوز لولي المقتول أن يستبدل القصاص بالدية والتعويض وعلى المؤمنين أن يؤيدوه ضد القاتل. جاء في الصحيفة ما يلي: (من اعتبه مؤمناً قتلاً عن بيته فإنه قُوَّةٌ به إلا أن يرض ولـي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا القيام عليه). وتؤكد هذه الفقرة على النزعة الاجتماعية وضرورة مساعدة كل المسلمين في حفظ الأمن والوقوف بوجه المعتدين وعدم الوقوف إلى جانبهم. وهكذا يكون المسلمون هم السلطة التنفيذية. والفقرة المذكورة أعلاه أقرب إلى روح المفاهيم البدوية التي كانت سائدة.

وأقرت الصحيفة بعض مبادئ النظام القبلي القديم، فقد ظلت كل عشيرة تشتراك في دية دفع القتل العمد. وهم يساعدون الضعيف منهم. جاء في الصحيفة (المهاجرون في قريش على ريقهم يتعاقلون بينهم وهم يدفعون عانيهم ... وكل طائفة منهم تغدو عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين). وقد تكرر هذا في كل عشيرة ذكرتها الصحيفة. وتعني كلمة طائفة في الفقرة السابقة الذكر الجماعة من العشيرة. ويتراوح عددها من الرجل الواحد إلى الألف^(١).

ولا يجد المتأخر في نصوص الصحيفة قواداً تتعلق بالأمور المدنية والتجارية. ويبعد أن ذلك يعود إلى رغبة الرسول في التأكيد على الأمور التي تخصل مصير الإسلام في صراعه ضد قريش وحلفائها. أما الأمور الشخصية والتجارية فإنها كانت أقل أهمية من ذلك.

تعكس مبادئ الوثيقة أهداف الرسول وهي:

١- المحافظة على المؤمنين كياناً مستقلأً متميزاً قائداً للمدينة يقوم على أساس الانتماء إلى العقيلة الجديدة. مفتوحاً لمن يشاء دخوله شرط الالتزام بعقيدته «ومنتبعهم فلتحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس».

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ٦٢٧/٢ (مادة طوف) .

- ضمان السيطرة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على المدينة.
- عزل قريش وقطع الصلات معها.

٤- المحافظة على استقرار النظام والأمن في المدينة. ومثل هذه المبادئ ضرورية إذا اعتبرنا الهدف الآني للرسول ﷺ هو بناء المدينة نموذجاً للهدف الاستراتيجي الذي يسعى لتحقيقه.

وأخيراً فإن نصوص الصحيفة تتفق مع منطق الحوادث في المدينة التي كان سكانها من المهاجرين والأوس والخزرج واليهود بحاجة إلى نظام لجميع شملهم ويحدد علاقتهم بعضهم البعض. وقد انتبه الرسول إلى ذلك فضمن الصحيفة المبادئ الهامة التي تكفل لهم تنظيم الحياة في السلم والحرب. كما عاهد اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم ليطمئن إلى جوارهم.

ويعلق (وات) على نص دستور المدينة بقوله: (فهو المصدر الوحيد الذي نجد فيه النظريات الفكرية التي كانت أساس الدولة الإسلامية في السنوات الأولى من تكوينها ...)^(١).

٢- الجهاد والمعارك الخالدة وتوحيد بلاد العرب

الجهاد وأهميته :

لم يلتجأ الرسول ﷺ إلى القتال طيلة إقامته بمكة وكان يحاول نشر الإسلام بالاقناع والمحجة والمنطق. إلا أن قريشاً أضطهدت المسلمين واضطربتهم إلى الهجرة للحجيرة ويشرب التي أصبحت بعد الهجرة إليها تسمى المدينة. وفي المدينة رأى الرسول توحيد المسلمين وتنظيمهم إلى جانب بقية سكانها ومن يفتى فيها على الشرك ليتمكن من الوقوف بوجه قريش. وكان الأوس والخزرج قد بايعوه بيعة حربية في بيعة العقبة الثانية، إذ تعهدوا له بالدفاع عنه وحمايته. وقد تعهد الرسول لهم بالعمل على نصرهم. ولما استقر المسلمون بالمدينة ثبت كيانهم فرض الجهاد

(١) المصدر السابق ص ٣٤٧ .

عليهم قال سبحانه وتعالى: «أَوْنَ لِلَّذِينَ يُعْذَلُونَ إِنَّهُمْ طَلَمُوا وَلَئِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِ لَقَدِيرٌ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ» [الحج: ٢٧] ومعنى هذه الآية أن الله قد أباح لهؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم أن يحاربوا من أجل أموالهم وديارهم وأهليهم لأنهم أخرجوا من ديارهم لا لسبب إنما لأنهم يبعدون الله.

ثم نزلت آية أخرى تحت على مجاهدة الشرك قال تعالى: «وَتَنَاهُوُمْ حَقَّ لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ وَيَحْكُمُونَ لِلَّذِينَ كُلُّمُ بِلَوْ» [الأనفال: ٣٩]. وقد شرعت هذه الآية كي لا يجرؤ مؤمن على تغيير دينه.

ثم قرر الجهاد في سورة البقرة، قال تعالى: «كَيْبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُنْزٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكُرُهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُجِبُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ» [البقرة: ٢١٦].

وقد اهتم الرسول بالجهاد، فهو أول رسول يحمل السيف تحقيقاً للمبادئ وقد قاد بنفسه خمسة وعشرين حملة. وأسد إلى أصحابه قيادة خمسة وثلاثين حملة، وكانت جميعها موجهة إلى قريش وإلى الأطراف الشمالية للجزيرة العربية ضد خبر والروم. ولم تكن نظرته إلى تلك المعارك نظرة عسكرية بل كانت نظرة متعددة الغايات والمرامى، وواحدة منها بالتأكيد هي تربية المسلمين تربية قتالية هجومية وزوج المسلمين الجدد في مواقف امتحانية. قال تعالى: «أَمْ حَسِبُوكُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَمْرُرَ اللَّهُ اللَّذِينَ جَهَنَّمُوا مِنْكُمْ وَصَلَمُ الْمُقْبَدِينَ ﴿١٤٢﴾» [آل عمران: ١٤٢]. وقد ذكر الجهاد في القرآن ثلاثة وعشرين مرة. وفي ثمان منها كانت الكلمة مرتبطة بالإيمان والهجرة^(١).

وبالاختصار فقد فرض الجهاد لأسباب كثيرة منها :

- ١- المحافظة على الدعوة الإسلامية وفسح المجال للذين يرغبون باعتناقها فقد هدلت قريش الدعوة الإسلامية وسلكت كل السبل من أجل القضاء عليها وعلى

(١) الحديثي، المصدر السابق، ص ٦٢ .

الرسول محمد ﷺ . وفي نفس الوقت كان هناك الكثيرون من المكينين من كان راغباً بدخول إلى الإسلام، لكن قريش كانت تخيفهم مما اضطر الكثيرين منهم أن يعتنقوا الإسلام سراً. وفيهم قال تعالى: «إِذَا لَمْ يَجِدُوا مُؤْمِنًا وَيَسِّهًا مُؤْمِنًا تَرْتَلِمُوهُمْ أَنْ تَظْفَرُوْهُمْ فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْدَةً يَغْزِي عَلَيْهِ» [الفتح: ٢٥] فإذا ذكر الله لرسول وللمؤمنين أن يحافظوا على الدعوة ويقاتلوا من أجل فتح المجال للضعفاء لاعتناق الإسلام. قال تعالى: «وَمَا لَكُمْ لَا تُقْتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالنَّاسَةِ وَالْأَلْذَانِ» [النساء: ٧٥].

٤- الدفاع عن النفس :

مات ياسر تحت عذاب قريش وضرب الرسول وأبو بكر وعدُّب مسلمون آخرون، ولم يحاول المسلمون رد الاعتداء عليهم وأسرف المشركون في اضطهاد المسلمين ووصلوا إلى حد تقرر فيه قتل الرسول بما حداهم أن يهاجروا إلى شرب ولاحقت قريش المسلمين إلى يشرب فأصبح من الضروري أن يدافعوا المسلمين عن أنفسهم، فاذن لهم سبحانه وتعالى بهذا الدفاع قال تعالى: «أَذْنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ كَيْفَ هُمْ ظَلِيمُوا إِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِ لَقَدِيرٌ» [آل عمران: ٣٩] الآية التي أخرجوا من يديهم يغزير حقاً إلا أن يغزوا ربنا الله [الحج: ٤٠]. ثم نزلت آية أخرى أكثر صراحة في الاذن بالقتال والدفاع عن النفس إذ قال تعالى: «وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُتَّهِيُّنَّكُمْ ..» [آل عمران: ١٩٠].

٥- حماية الأمة الإسلامية من جيوش الفرس والروم :

لم تكن الأمة العربية موحدة قبل الإسلام. وإنما كانت قبائل متخاربة مع بعضها، ولذا فلم يقم الفرس والروم وزناً لهذه القبائل. ولما جاء الإسلام وانتصر على خصوصه وانتشر في الجزيرة. ونبع في إقامة دولة عربية قوية متعددة أخاف الفرس والروم لأن الجزيرة العربية أصبحت منافساً خطيراً قوياً وغدت تدين بدين، وتعمل من أجل نشر مبادئه ولهذا دخل الفرس والروم المعركة ضد هذا الدين ودولته، وقد بدا ذلك في السنة السادسة للهجرة / ٦٢٧ م عندما أسلم فروة بن عمر

الجذامي عامل الروم على معان وأرسل هدايا للرسول. فقد حاول الرومان امتناعه ليترد ولما رفض القوا القبض عليه وسجنه ثم صلبوه في فلسطين^(١). ولما استلم كسرى رسالة الرسول التي يدعوه فيها الإسلام عبر عن حقده الدفين ضد العرب والدين الإسلامي الحنيف حين مزق رسالة الرسول. وأرسل إلى عامله في اليمن طالباً منه أن يرسل رجلين قويين إلى المدينة ليأتيان له بالرسول ليعمل به ما يشاء^(٢). وفي سنة ٨ هـ ٦٢٩ م أرسل الرسول مجموعة من المسلمين لنشر الدين الإسلامي في شرق الأردن. فخرج عليهم جمّع غفير وقتلواهم كلهم ما عدا واحداً لاذ بالفرار^(٣).

هذه أمثلة قليلة توضح مدى أهمية الجهاد لحماية الأمة الإسلامية من الفرس والروم وعمال الفرس والروم. على أن الحروب التي شرعاها الإسلام لم تكن ضد شعب فارس والروم إنما كانت ضد كسرى وقيصر وجيوشهما فلقد كان هؤلاء حاجزاً يمنع شعوبهما من دخول الإسلام. ولما سقط هذا الحاجز بدأت الشعوب التي كانت خاضعة لهم تفكّر بالإسلام وتقبل عليه.

فالغرض من الجهاد هو رد العدوان. ويلجأ المسلمون إلى السلم إذا لجأ إليه أعداؤهم قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِتَسْلِيمٍ فَاجْتَنِبْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]. وقال ﴿فَإِنْ أَعْزَلُوكُمْ فَلَمْ يَتَبَلَّوْكُمْ وَأَلْقَا إِنَّكُمْ أَشَّمُّهُمْ فَإِنْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سِكِّيلًا﴾ [النساء: ٩٠] ولنا في سيرة الرسول قدوة حسنة في السير على هدى الآية فعندهما بلغه أن الروم تزيد مهاجمة المسلمين ذهب على رأس جيش لمقاتلتهم ولما وجد أن جيوشهم تراجعت عاد أدراجه إلى المدينة ولم يفكر في مهاجمة الروم^(٤).

فالقتال الذي شرعه الإسلام كان لغرض صد العدوان وحماية الإسلام وحرية الدين وليس لغرض الاذلال والطمع والتحكم في ممتلكات الغير بل ابتغاء طريقاً

(١) ابن هشام ، السيرة ، ٤ / ٢٣٧-٢٣٨ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الطبرى ، ٢ / ٦٥٤ .

(٣) شليمى ، أحمد ، المصدر نفسه ، ٦١ ، ص ١٨٧ .

(٤) ابن هشام ، المصدر السابق ٤ / ١٦٠-١٦١-١٥٩ .

للسلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة.

كان لتشريع الجهاد أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين فقد أعطاهم صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل، ذلك أنهم أصبحوا نواة الأمة العربية الإسلامية، عليهم أن يجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام وجمع شتات العرب^(١).

وقد بربرت أمور كثيرة أثناء حركة الجهاد منها :

١- تغير طريقة الحرب عند المسلمين : فلم يعد المسلمون يتبعون أسلوب الكفر والفرار بل يحاربون وفق نظام مبني على أساس الثبات والاستقرار والتعاون. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فَتَحْتَهُمْ وَإِذَا كُرُوا إِلَّا لَتَكُنْتُمْ فَلْلَهُوك﴾ [الأفال: ٤٥] وقال أيضاً : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ كُفَّارًا رَبُّكُمْ لَا تُؤْمِنُمْ بِمَا يَرَوْنَ إِلَّا مُتَكَبِّرُونَ إِذَا لَقِيَكُمْ أَوْ مُتَحَدِّرُونَ إِنَّمَا فَتَحْتَهُمْ يَقْسِمُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ وَمَا أَنْوَهُ جَهَنَّمْ وَيَقْسِمُ الْمُصِيرُ﴾ [الأفال: ١١].

٢- أصبحت الحرب الإسلامية جزء من السياسة العامة للدولة العربية وتتأثر بطبيعتها. حيث الله هو السيد الأعلى، والسلطة لرسوله الذي يجب تنفيذ أوامره، فهو القائد الأعلى والمنظم للحرب وباعتباره الرئيس السياسي فقد أوجد تنسقاً بين السلطة الإدارية والسلطة الحربية.

قام الرسول بقيادة الحملات العربية في سبع وعشرون معركة وكان ينتدب نائباً عنه في بعض الحملات وتسمى المعارك التي قادها الرسول بنفسه (الغزوات) وأما ما التي ندب لها قواد فتسمى السرايا. ومع أن كلاً التعبيرين يوحيان بأنهما حملات حربية إلا أنه لم يوجد في جميعها قتال فعلي. الواقع أن قلة المشتركين في هذه الحملات والمعاهدات التي تخوض عنها يدل على أن كثيراً منها كانت بعثاته دبلوماسية للتفاوض وعقد الاتفاقيات لا القتال.

٣- وقد اقتضت الظروف التي عاشها الإسلام آنذاك أن لا يلتزم المسلمون بعض التقاليد التي كانت تراعيها العرب في القتال فقد أباح الله حرمة الأشهر

(١) سرور ، محمد جمال الدين ، قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد (القاهرة ، ١٩٧٧) ، ص ٩٧ .

الحرم إذ قال: «يَتَلَوُنَكُمْ عَنِ الْقَهْرِ الْعَرَمِ قَاتِلُ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَصَحْفُرٌ بِهِ، وَالْمَسِيْدُ الْعَرَمِ وَلِتَرَاجُّ أَهْلِهِ، مُنَهَّ أَكْبَرُ عِنْ الدُّلُوْلِ وَالْأَشْنَةُ أَحْسَبُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَالُونَ يَتَلَوُنُكُمْ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ لَهُمْ مِنْ دِينِهِ، فَيَسْتَهِنُ وَهُمْ كَافَّارٌ فَأُذْتَهُكَ حَيْطَتْ أَعْنَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلَيْكَ أَصْبَحْتُ النَّارَ هُمْ فِيهَا حَنَلْدُوكَ» [البقرة: ٢١٧]. وكان هذا الخرق لحرمة الأشهر الحرم هو عمل مقابل ما قامت به قريش في الصد عن سبيل الله والكفر به. وخروجها المسلمين من المسجد الحرام دون أن تراعي قدسيّة المسجد وحرمة اللجوء إليه. وهذا لا يعني أن الإسلام قد أباح حرمة الأشهر الحرم إباحة دائمةً ومستمرة. بل كان ذلك إجراء مؤقتاً اقتضاه مصلحة الأمة. وهناك آيات كثيرة تدل على حرمة الأشهر الحرم في الإسلام.

٤- وكان فرض القتال ثقيلاً على بعض المسلمين بل كان يثير التذمر عندهم قال تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ مَأْمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَلَمَّا نُزِّلَتْ سُورَةٌ مُنْكَرٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْفَتَالُ زَانَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَرَرٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَأْمِنُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمُوْتِ فَإِنَّهُمْ لَهُمْ طَاغِيَةٌ وَقُولُ مَغْرِبُتُ...» [محمد: ٢] وقوله تعالى : «أَلَرْ تَرَ إِلَيْهِ الَّذِينَ فِي هُنْمَ كُفُّارٌ أَيْنِكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَمَا فَوْزُ الْأَرْكَوْدَ فَلَمَّا كَبَتْ عَلَيْهِمُ الْفَتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْتَنَّ أَنَّاسٌ كَفَّشَةُ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ حَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لَرْ كَبَتْ عَلَيْنَا الْفَتَالُ لَوْلَا أَخْرَنَّا إِلَيْهِ أَجْرٌ فَيَبْرُرُ...» [النساء: ٧٧].

ب- صرف القبلة إلى الكعبة :

كان المسلمين يتوجهون في الصلاة نحو بيت المقدس^(١) لكنهم غيرا قبلتهم نحو الكعبة قبل بدر شهر (في شعبان) في سنة ٢ هـ / ٦٢٣ م روى ابن هشام (صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة)^(٢) ولكنه لا يحدد الجهة التي صرفت إليها. ويبدو أن أهل المدينة حتى من غير اليهود كانوا يولون وجوههم نحو بيت المقدس قبل هجرة المسلمين إليها. واستمر على ذلك بعد الهجرة رغم إسلامهم، ثمانية عشر شهراً. وكان الرسول

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٧ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٥٧/٢ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ٤١٦/٢ .

يحب أن يصلى قبل الكعبة. فأنزل الله تعالى: «فَذَرْنِي نَقْلَبَتْ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ...»^(١) [البقرة: ١٤٤].

فرحت اليهود عندما اختار الرسول بيت المقدس قبلة للمسلمين. ولعل الرسول كان يهدف من ذلك أن يألف أهل الكتاب. وإن ذلك تم على أثر الاسماء حيث تقرر في عدد الركع أيضاً.

وردت في سورة البقرة معلومات مهمة عن القبلة وتحويلها :

فالآية (١٤٥) تشير إلى وجود قيلة لكل دين تختلف عن قبلة الدين الآخر. والآية (١٤٨) تعلن عن اختلاف القبلات لا يغير من كونها تتجه إلى الله يغير الآيات (١٤٤، ١٤٩، ١٥٠) توجب على المسلمين التوجه نحو المسجد الحرام (الkübe) وأن هذا أمر واجب التنفيذ لأن الله يريد ذلك.

وان الجهات كلها لله، وهو يأمر حسب إرادته التوجه لأية جهة كانت. والآية (١٤٣، ١٤٤) تشير إلى أن ذلك حقاً من حقوق الله على عباده، وتشير الآية (١٤٤) أن تحويل القبلة نحو المسجد الحرام جاء استجابةً لرغبة الرسول الذي أصيب بقلق نفسي وتفكير باطني لطول فترة اتجاه المسلمين في صلاتهم نحو بيت المقدس. توضح الآية (١٤٥) المحاولات التي بذلها اليهود لاقناع الرسول بالبقاء على قبلته نحو بيت المقدس. لكن الفشل كان نصيب هذه المحاولات بعد نزول آية القبلة التي تحتم على الرسول وجوب عدم اتباع هذه الأهواء.

وبيّنت الآية (١٤٣) أن اختيار القبلة الجديدة جاء لغرض تمييز المسلمين عن غيرهم من أصحاب الأديان. وقد اضطر اليهود من ذلك لأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام له أهمية كبيرة فهو مظهر الاستقلال الطابع الإسلامي لأن الذين لا يعرف تفاصيل الأديان يعتمد على المظاهر. فإن كانت قبلة المسلمين قبلة اليهود كان المراقب الخارجي يلاحظ أن الإسلام كاليهودية فتحويل القبلة يقضي على مثل هذه الملاحظات النير صحيحة. ولذا فإن تحويل القبلة جاء نتيجة لرغبة الإسلام في اتخاذ طريق متميز خاص به.

(١) الطبرى ، المصدر السابق ، ٤٦/٢ ، وكان أهل مكة قبل الإسلام وعندما كان الرسول فيها (في مكة) وقبل الهجرة يتوجهون نحو بيت المقدس .

- توجد أدلة متعددة دفعت الرسول إلى تغيير القبلة نحو المسجد الحرام منها :
- ١- رأى الرسول أن النصارى واليهود متمسكنين بدينهما، فرغب في التركيز على العرب لنشر الإسلام بينهم ويسلك طريقاً مستقلاً عن اليهودية والنصرانية ويتجه لبث الإسلام بين العرب. ونظرًا لمركز الكعبة في نفوس العرب وعقائدهم قبل الإسلام فتوجه إليها لاظهار أن الإسلام لا يحارب كل معتقدات العرب فهو يعترض الكعبة ويجعلها قبلة وبذلك يخفى من شكرك ومخاوف العرب بموقفه الديني الجديد فتخف مقاومتهم وتبدىء شكوكهم فينجذبوا إليه.
 - ٢- أراد الرسول أن يظهر لقريش أنه لا يهدف إلى هدم آمالها وإيادة أسس عزها وبذلك يخفى من حقدها وكرامتها وربتها. ويمكن أن يجعلها تعتقد بصورة لا شعورية بأن انتشاء الإسلام سيؤدي إلى تثبيت مكانة مكة ومركزها.
 - ٣- رغبة الرسول في تجريد قريش من حاجتها الرئيسة التي تستند عليها في تأليف العرب ضد الإسلام وهي ادعائهم بأنه يحارب كافة معتقداتهم التي يقوم عليها كيانهم وعقائدهم. وقد نجح الرسول في ذلك فقد قلت حماسة القبائل العربية في محاربتها للرسول.
 - ٤- اعتقد الرسول أن التوجه نحو مكة سيدرك المهاجرين بموطنهم الأصلي ويشير عواطفهم ومشاعرهم ويحفزهم للوصول إليه والقضاء على من يحول بينهم وبين الوصول إلى مكة. ويدفعهم لاسترجاع أموالهم وبيوتهم من القرشيين الذين وضعوا اليد عليها ويقوى من عزيمتهم ويزيد حماستهم في محاربة قريش التي تحول بينهم وبين موطنهم وتنزعهم من الكعبة وهي أقدس شيء عندهم.
 - ٥- أراد الرسول أن يرض النزعة العربية في احترام الآباء وذلك عن طريق الاستعانة بالأيات القرآنية التي نزلت في هذه الفترة والتي أكدت أن الإسلام دين الحنيفية، أي دين إبراهيم الخليل. ولما كان العرب من أبناء إبراهيم الخليل. فالصلة باتجاه الكعبة معناه التأكيد على الصلة بابراهيم الخليل أبا العرب والتأكيد على مكانته واحترامه معناه واحترام أب العرب.
 - ٦- إن التأكيد على صلة الإسلام بابراهيم الخليل معناه أن الإسلام قديم وعميق

الجذور والأصول، وهو إحياء لأمر قديم وهذا يرضي المحافظين وينسجم مع نزعة احترام القديم والتقاليد التي كانت تتصف فيها العرب.

في حين كانت قريش وحلفائها تعتبر الإسلام بدعة جديدة تخالف سنن الآباء والأجداد. ولكن باتجاه المسلمين في صلاتهم نحو الكعبة أظهروا لقريش أن الإسلام قديم وأنه الدين الأصلي والنقي. وإن كانت هناك خلافات بين التقاليد العربية والتقاليد الإسلامية فإن الإسلام هو الصحيح لأنه الأقدم والأنقى وعلى العرب اتباعه.

٧- إن ربط الإسلام بدين إبراهيم الخليل^(١) بالاتجاه نحو المسجد الحرام يجرد اليهود من ادعاءاتهم ضد الإسلام والرسول. والتي يقولون فيها أن دينهم أقدم من الإسلام، وأن ما يؤمنون به هو مقياس الصواب ما دام الإسلام جديداً. وعلى الإسلام أن يبقى في دائرة دينهم. وإلا كان بدعة. ويتأكد الإسلام على صلته بإبراهيم الخليل فهو أقدم من اليهودية وإن كانت ثمة اختلافات بينه وبين اليهودية فسيبه ما لحق باليهودية من بدع وهرطقات. ولما كان الإسلام أقدم من اليهودية فهو المعيار والمقياس الأساس وإن كان ما يخالف الإسلام هو غير صحيح. وقد عرف الرسول دين إبراهيم الخليل عن طريق الوحي. وقد أقرت اليهودية أن الرسول يأتيه الوحي عندما كان على قبلتها.

ج- النزاع المسلح بين المسلمين وقريش وحلفائهم :

بدأ الرسول بنشر الدين الإسلامي بين القبائل العربية بعد نزول الآيات القرآنية التي تخص الجهاد. واستعد لصد أي عدوان ضد المسلمين وعول على معاقبة قريش التي أجبرت المسلمين على الخروج من مكة تاركين بيوتهم وأموالهم ومتاعهم. ومن أجل تنفيذ ذلك فقد عمل الرسول على استئمالة القبائل المقيمة على الطريق بين المدينة ومكة وتحالف مع أكثرها. وتحالف مع القبائل التي كانت تقيم على الطرق

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢ ، قال الرسول "اللهم إني أ Ibrahim عبدك ورسولك وأنا عبدك ورسولك" البلاذري ، المصدر السابق ص ٢٢ .

التجارية القرشية مما أثار روع قريش وجعلها تخشى المسلمين في المدينة. ولما اطمأن الرسول إلى حلفاء من القبائل الضاربة على الطريق التجاري الذي يسلكه تجار قريش، خرج بعض أصحابه في الشهر الحادي عشر للهجرة لاستطلاع نشاط قريش ولاعتراض عيرهم في الأيواء. لكنهم عادوا دون أي اشتباك مع قريش. وفي هذه الغزوة وادع الرسول بنبي حمزة من كتامة على ألا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه أحداً. ثم كتب بينهم كتاباً ثم رجع. وغزا في ربيع الشهر الثالث عشر للهجرة غزوة بواط يربد عيراً لقريش لكنه رجع ولم يلقي عيراً. ثم أردف ذلك في نفس التاريخ (الشهر الثالث عشر للهجرة) بغزوة بدر الأولى، وهي غير بدر الكبرى، ثم غزا غزوة ذي العشيرة في جمادى الأولى من الشهر السادس عشر للهجرة يعترض عيراً لقريش^(١).

وأرسل سرية أميرها عبد الله بن جحش في آخر رجب في الشهر السابع عشر للهجرة إلى نخلة الواقعة بين مكة والطائف. ليأتيه بأخبار قريش. فمررت قافلة لقريش في رجب فأصابوا بعض رجالها وغنموا ما كانت تحمله إيلهم من تجارة ورجعوا إلى المدينة محملين بالغنائم. لكن الرسول أوقف الإبل ولم يأخذها وقال لهم (ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام)^(٢) ثم عنفهم أخوانهم المسلمين فسقط في أيديهم. وقالت قريش استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام. وسفك المسلمون فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسرعوا فيه الرجال. فقال من يرد عليهم من كان بمكة (إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان)^(٣).

كانت هذه الحملة مغامرة كبيرة نظراً لبعد نخلة عن المدينة ووقوعها في منطقة يقطنها مشركون هم حلفاء لقريش. وكان توقيتها في الشهر الحرام أمر دقيق. غير أن الاحتجاج الذي جوبه به هذا العمل يدل على مدى تفلغل التقاليد القديمة في نفوس

(١) الواقدي ، كتاب المغازي ، ١١-١٣ / ١ ، تحقيق مارسون جونس (بيروت) ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢-٤٤٨ / ٢ .

(٢) الواقدي ، المصدر السابق ، ١٣-١٨ / ١ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٥٢-٢٥٤ / ٢ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢ / ٤٥٤ .

ال المسلمين ولم يقتذهم إلا نزول القرآن بإقرار ما فعلوا.

ثم حدثت بعد ذلك سلسلة متصلة من المعارك بين الطرفين ترمي إلى تحقيق هدف واضح. وهو أن كل طرف يريد القضاء على الطرف الآخر، فالمسلمون يرمون القضاء على قريش ليتشر لهم نشر الدعوة الإسلامية وضم مكة إلى حوزتهم وقد شعر القرشيون بخطر الإسلام على تجارتهم القادمة من الشام. وأيقنوا بخطر الإسلام على ديانتهم الوثنية وسيادتهم على الكعبة التي يجتون منها الفوائد المادية الكثيرة. ولذا فقد كرس كل طرف جهوده للقضاء على الطرف الآخر والخلص منه، وقامت من أجل تحقيق هذا الهدف معارك هامة بين المسلمين من جهة والقرشيين وحلفائهم من القبائل العربية في العجاجز من جهة ثانية. وكان الرسول قلما يخرج في غزوة تبوك فإنه بينما للناس بعد الشقة وشدة الزمان وشدة العدو الذي يصمد له ليتأهب الناس لذلك أمهته. فأمر الناس بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم^(١).

وفي دراسة هذه المعارك سيؤكّد على نتائجها لأعلى سيرها ويعني بإيضاح ما ترتب على النصر أو الهزيمة من نظم وحضارات وما ترتب على الانتصارات الإسلامية من سير الإسلام وانتشار حضارته وسيثار باختصار إلى الموضع الاستراتيجية والتكتيك الحربي والحيل التي اتبعها كل فريق للفوز على الآخر. وأما أهم هذه الغزوات والمعارك فهي :

١ - غزوة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢ هـ / ٦٢٣ م).

عندما سمع الرسول بأن أبو سفيان جاء مقبلاً من الشام في غير لقريش عظيمة فيها أموال قريش، وتجارة من تجارتهم، ندب المسلمين إليها. فخرج معه عدد كبير من المهاجرين والأنصار. وكان الأنصار يخرون لأول مرة من المدينة للغزو مع الرسول. ولما علم أبو سفيان أن الرسول استنصر المسلمين للغير أرسل من يستنصر قريش إلى أموالها ويجزم أن محمداً قد عرض للقاولة في أصحابه^(٢).

فتجهزت قريش سرعاً وكانتا بين رجلين أما خارج او باعث مكانه رجالاً.

(١) المصدر السابق ، ١٥٩/٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٥٧/٢ - ٢٥٨ .

ونجح أبو سفيان في احراز عيره بعد أن غير الطريق وسار محاذيًّاً بالبحر الأحمر حتى جاوز موقع المسلمين. وكتب إلى قريش (انكم إنما خرجتكم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا)^(١).

لكن القرشيين اختلفوا فيما بينهم، بين داع إلى الرجوع وبين مصر على مقاتلة المسلمين، وكان أبو جهل يتزعم الفتنة الأخيرة وكان الأخنس بن شريف زعيم بنى زهرة من زعماء الداعين إلى الرجوع وعدم التعرض للمسلمين.

بدأت الحرب بمعارزات فردية، ثم ترااحف الناس ودنا بعضهم من بعض وكان الرسول قد أمر أصحابه لا يحملوا حتى يأمرهم. وكان يحرض المسلمين على القتال ويأمرهم لا يقتلوا من المشركين ناساً خرجوا للحرب كرهاً^(٢). وانتهت المعركة بانتصار المسلمين بعد أن قدموا سبعة شهداء. أما قريش فقد قدمت سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً ثم انسحبت قريش مكسورة ولم يطاردهم المسلمون بل ظلوا ثلاثة أيام في أرض المعركة ثم عادوا إلى المدينة وزادت هيبتهم فيها ودخل الإسلام كثير من مشركي المدينة.

لقد أظهرت معركة بدر مقدرة الرسول العسكرية والقيادية. فقد اتخذ له مقرأً وسط جنده ليشرف، على إدارة المعركة. وصف جنوده وطلب منهم الشبات في الحرب ونبذ طريقة الكر والفر تلك الطريقة القديمة وكان يحثهم على القتال ويستشير أصحابه من أصحاب الرأي في أمور الحرب. فعندما لم يبادر قريش إلى ماء بدر ونزل أدنى ماء من بدر سأله أحد أصحابه : (الحباب بن المنذر) قائلاً: (... أرأيت هذا المنزل أمتزلاً أنزلكه الله، أليس لنا أن نتقدمه، ولا تتأخر عنه أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي وال الحرب والمكيدة، قال يا رسول فإن هذا ليس بمتزل، فإنهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فنزله ثم نفور ما وراءه من القليب. ثم نبني عليه حوضاً فنمليه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون) فقال الرسول : (لقد أشرت بالرأي ونفذ الرسول مقترحات الحباب. وكان

(١) المصدر السابق ، ٢٧٠-٢٧١ / ٢ .

(٢) المصدر السابق والجزء من ٢٨١ .

هذا من عوامل انتصار المسلمين في المعركة. ومن العوامل الأخرى أن الرسول أبدى شجاعة فائقة وسيطر على توجيه المعركة وإدارتها. يضاف إلى ذلك تفكك قريش وانقسامها وضعف حماسها للقتال بعد نجاة القافلة، في حين كان المسلمون الذين تقدموا إليهم الكثير من المهاجرين القرشيين الذين أخرجوا من ديارهم وصودرت أموالهم ومساكنهم رغم حرمه مكة وكان الكثير من القرشيين يعطرون على المسلمين والمهاجرين لأنهم أقاربهم. وهكذا فقد لعبت العصبية القبلية في العطف عليهم وعدم التحمس لقتالهم. وقد كان عون الله أكبر أسباب نصر المسلمين قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ تَرَكُمُ الْأَنْهَارَ يَسْتَرِي وَأَتَمْ أَذْلَهُ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ولمعركة بدر أهمية كبرى بالنسبة للمسلمين فهي المعركة الوحيدة التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً حقيقياً. فقد هزموا في أحد وأحاط بهم الأحزاب في الخندق حتى أصابتهم ألوان الشدائد والعناء الشديد وخسر المسلمون مؤنة وغير ذلك. ومع ذلك فقد رسخت أقدام المسلمين بالانتصار الذي حققوه في بدر. وقد أدرك الرسول أهمية هذه المعركة إذ كان يهتف مناجياً ربه في وسط ساحة المعركة قائلاً «اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»^(١). وكان يحرض المسلمين ويقول «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر إلا دخله الله الجنة»^(٢).

وقد سمي القرآن الكريم هذه المعركة معركة الفرقان، قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْفَرْقَانِ يَوْمَ الْتَّقَىَ الْجَمِيعُ﴾ [الأنفال: ٤١] ويسميها المسلمون غزوة الفرقان لأن الله فرق بين الحق والباطل. ولتأكيد أهميتها فقد ظل المسلمون إلى الوقت الحاضر يحتفلون بذكرها.

ولم يرتاح اليهود لهذا الانتصار الذي حققه المسلمون فأخذوا يستهزءون بهذا الانتصار. وقد تنبه الرسول إلى ذلك فأخرجبني قينقاع من المدينة وقد نزلت في هذه المعركة أدق التعليمات الإسلامية للحرب منها :

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٧٩/٢ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة

١- قوله تعالى ﴿وَأَعْنَدُوا لَهُمْ مَا أَنْتَفَعُوكُمْ بِقُوَّةِ دِينِكُمْ رِبَاطِ الْغَيْلِ تُرْهِبُونَ إِهْدُوا اللَّهُ وَعَذَّرُوكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وتحض هذه الآية المسلمين على الاستعداد للعدو بشكل ما ينفي الاستعداد.

٢- قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَجُلًا فَلَا تُؤْلُمُوهُ إِلَّا بِكَبَارٍ ﴽ١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِمُهُمْ بِمُؤْلِمٍ إِلَّا مُتَحَبِّرًا لِقَاتَلَ أَوْ مُتَحَبِّرًا إِلَّا فَتَرَ فَقَدْ كَانَ يُفَسِّرُ بَيْنَ اللَّهِ وَمَا أَنْوَهُ جَهَنَّمُ وَيُنَسِّرُ الْمُصِيرُ ﴽ١٦﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦] وتحض هذه الآية المسلمين على الثبات في المعركة بحيث يكون فيه المسلم كالطrod الأشم إما أن يتصر في المعركة أو يموت شهيداً وهو يصارع الأعداء.

٣- وقال تعالى : ﴿وَأَطْبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنْزَعُوا وَتَذَهَّبَ رِيعَكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴽ٤٧﴾ [الأنفال: ٤٧] وتحمل هذه الآية مبدأ الوحدة ودعوة صادقة إلى عدم التنازع والخصام في الحرب والسلم.

٤- قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فَتَهَا فَاثْبِتوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعْلَكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ١٥]. وتؤكد هذه الآية على ضرورة ذكر الله عند اشتداد المعركة.

وارتبطة بمعركة بدر بعض التشريعات الإسلامية ومنها :

١- توزيع الغنائم : قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ بَقِيَّةِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مُحْكَمٌ وَلِلرَّسُولِ وَلِيَزِي الْقُرْبَانَ وَالْيَتَمَّ وَالسَّكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

٢- رد المواريث إلى الأرحام لمن أسلم بعد الولاية بين المهاجرين والأنصار دونهم إلى الأرحام التي بينهم. قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاجَرُوا وَجَهَدُوا مَعْكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْضَاءِ بِقَيْمِنْ أَوْلَى يَسْعَونَ فِي كَبَيْتِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]^(١) وبذلك فقد ألغى نظام المؤاخاة لانتفاء الحاجة بعد ما حصل المسلمين على غنائم بعد انتصارهم في بدر الكبرى.

٣- تقسيم الأنفال : لما اختلف المسلمين في النفل يوم بدر انتزعه الله من يد

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٣ / ٢ .

المسلمين ورده على رسول الله قال تعالى: ﴿يَتَلَوُنَكُمْ عَنِ الْأَنْتَلِّ قُلْ أَلَّا تَلَوُنْ يَوْمَ الْرَّبُّوْلَ فَأَقْنَعُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ يَتِيمَكُمْ وَأَطْبِعُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأفال: ١١].^(١)

وسار الرسول بالنفل متوجهاً نحو المدينة حتى وصل مكان يقال له سير، تقسم هناك النفل الذي أفاء الله على المسلمين على السواء. في حين كان المسلمون قد اختلفوا فيه إذ قال من جمعه: هو لنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه والله لولا نحن ما أصبتموه. وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله مخافة أن يخالف عليه العدو، والله ما أنتم بأحق به منا.^(٢)

وقد رأينا أن نأخذه حين لم يكن دونه من يمنعنا، ولكن خفنا على رسول الله كره العدو فقمتنا دونه مما أنتم بأحق به منا.

٤- معاملة الأسرى معاملة حسنة، روى ابن هشام (أن رسول الله حين أقبل بالأسرى فرقهم بين أصحابه وقال استوصوا بالأسرى خيرا)^(٣)، ولذلك فقد كان المسلمون يؤثرون الأسرى عليهم في الغذاء أو العشاء^(٤) وكان فداء كل أسير أربعة آلاف درهم للرجل إلى الألف درهم إلا من لا شيء له، فمن رسول الله عليه^(٥). وأنزل الله في الأسرى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ قُلْ لَمَنْ فِي أَهْبَاطِكُمْ إِنَّ الْأَسْرَى إِنْ يَسْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يَمْنَأُ أَجْدَأْ مِنْكُمْ وَغَيْرُكُمْ وَاللَّهُ عَلَّمَ رَحْمَةً﴾ [الأفال]^(٦).

ب - أحد :

أثرت الهزيمة التي مُنيت بها قريش في بدر الكبرى على نفسيتها وقد بذلك أبو سفيان جهوداً لزرع الثقة في نفوس القرشيين فأمرهم بمنع البكاء على قتلهم. إذ

(١) ابن هشام المصدر السابق ٣٢٢/٢ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ٢٩٥/٢ .

(٣) المصدر السابق والجزء ص ٢٩٩ ، الواقدي ، المصدر السابق ١/١١٩ .

(٤) الواقدي ، المصدر السابق ١/١١٩ .

(٥) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣١٦/٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ٣٣٢/٢ .

قال مخاطباً القرشيين (يا معشر قريش لا تبكوا على قتلامكم ولا تنح عليهم نائحة)^(١) فمكثت قريش شهراً لا تنوح لها نائحة. ونذر أبو سفيان (أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزوا محمداً ..)^(٢) فجهز حملة تقدم بها إلى المدينة وهاجم أطرافها وحرق مجموعة من نخلها وقتل رجلاً من الأنصار وحليفاً له، ثم انصرف راجعاً بسرعة^(٣) مما يدل على أن الغرض من هذه الحملة هو إشعار المسلمين بأن معركة بدر لم تكن هي المعركة الحاسمة. وإن الصراع بين قريش والإسلام لم يتنه بعد.

-٣- غيرت قريش بعد غزوتها بدر طريق قوافلها التجارية إلى الشام، فأخذت تسلك الطريق التجديدية المارة بشرقى المدينة. وكانت هذه الطريق تمر بحقفاتها من القبائل أمثال بني سليم وأسد وغطفان. فخطط الرسول إلى ضرب هذا الطريق التجاري وذلك بالقيام بعدة حملات منها غزوة ذي أمر ضد غطفان، وغزوة فرمان الكدر، وغزوة بحران. ولم يحصل صدام في هذه الغزوات وقد شارك الأنصار في كافة هذه الغزوات^(٤). وفي شوال سنة ٣ هـ / ٦٢٤ م خرجت قريش وحقفاتها بجيشه لجب يقوده أبو سفيان إلى المدينة تزيد التأثير بما أصابها في غزوة بدر. وقد وصلت هذه الحملة إلى شمال المدينة وأخذت تهدد من المنطقة القرية من أحد فأصبح من الواجب على المسلمين مواجهة العدو. فتشاور الرسول مع المسلمين قائلاً لهم: (فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهם حيث نزلوا، فإن أقاموا، أقاموا بشر مقام وإنهم دخلوا علينا قاتلناهم فيها)^(٥). وكان عبد الله بن أبي سلول مع رسول الله في الرأي. وكان الرسول يكره الخروج. وقال بعض المسلمين أخرج بنا إلى أعدائنا. ولم يزل المسلمون برسول الله الذين من أمرهم حب لقاء القوم حتى أقنعوا بالخروج إلى قريش وملاقتها.

ولما سار الرسول لمقابلة الأعداء حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد

(١) الواقدي ، العنزي ، ١٢١/١ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤٧/٣ .

(٣) المصدر السابق والجزء من ٤٨ .

(٤) المصدر السابق والجزء من ٤٨-٥٠ .

(٥) المصدر السابق والجزء من ٦٧ .

انفصل عن المسلمين عبد الله بن أبي بثلث الناس ورجع إلى المدينة ويبدو أن ذلك كان قد تم بالاتفاق مع الرسول لغرض حماية المدينة من احتمال هجوم قريش عليها مستغلة خلوها من المحاربين.

ومضى الرسول بالمسلمين حتى أنزلهم الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد. وقال مخاطباً المسلمين لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره. وأمر الرماة وكانوا خمسين رجلاً بأن يمنعوا الخيل عن المسلمين بالنبل ثلاثة تأييدهم من خلفهم إن كانت للمسلمين أو عليهم. وأمرهم بالثبات في أماكنهم. وأمرهم قائلاً : (...احموا ظهورنا، فإن رأيتمنا قد غنمنا لا تشاركونا. وإن رأيتمنا نقتل فلا تنصرونا)^(١) ، ولبس درعین واستعد للقتال.

وتعبرات قريش كانوا ثلاثة آلاف رجل. والتقي المسلمون بالقرشيين وخلفاءهم. وحميت الحرب وأنزل الله نصره على المسلمين وكانت هزيمة قريش أمر لا شك فيه. ولكن رماة المسلمين مالوا إلى العسكر حين انتصر المسلمون وخلوا أظهر المسلمين لخيل قريش. فأتاهم القرشيون من الخلف وصرخ صارخ إلا أن محمداً قد قتل، فانكفا المسلمون وانكفا عليهم القرشيون. وأصاب القرشيون من المسلمين كثيراً. وانكشف المسلمون وأصاب فيهم العدو حتى خلص العدو إلى الرسول ﷺ وأصيبت رياعيته، وشج في وجهه وجرحت شفته^(٢).

ومع ذلك فقد صمد الرسول مع قلة من الصحابة. وبينما هم بالشعب وكان قد انصرف معظم رماة المسلمين من أماكنهم رأى خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهلها فكر بالخيل وصعد مع رماة قريش إلى أعلى الجبل وبدأوا ويمطرون المسلمين بوابل من السهام. فانكفا المسلمون وهكذا انتصرت قريش في المعركة لكنها انسحبـت من ميدانها دون أن تلاحق المسلمين. ولعلها خشيـت أن ملاحقتها لل المسلمين إلى المدينة قد يشير ذلك أهلها. أو أن قريشاً تملك معلومات تشير إلى وجود قوات إسلامية أخرى في المدينة لحمايتها من هجوم قريش متوقعـ فيتفاوتـ

(١) الواقدي ، المصدر السابق ، ٢٢٩/١ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٨٤/٢ .

أهل المدينة والقوات الإسلامية فيها لحرب قريش فينقلب نصرها إلى هزيمة. وأصيب الرسول نفسه، فأظهر اليهود القول السيء فقالوا (ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيّب هكذا بنى فقط، أصيّب في بدنـه، وأصيّب في أصحابـه) وجعل المنافقون يخذلون عن الرسول أصحابـه ويأمرونـهم بالتفـرق عنه^(١).

وأخذـوا يـشتـمـونـ الرـسـولـ وـيـعـلـنـونـ فـرـحـهـمـ بـمـاـ أـصـابـ الرـسـولـ وـالـمـسـلـمـينـ وـيـظـهـرـونـ أـقـبـحـ القـوـلـ^(٢) وـقـدـ وـصـفـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ يـوـمـ أـحـدـ فيـ سـتـيـنـ آـيـةـ مـنـ سـوـرـةـ آلـ عمرـانـ^(٣).

وصفـ ماـ أـصـابـ المـسـلـمـينـ بـأـحـدـ وـعـاتـبـ مـنـ عـاتـبـ مـنـهـ. وـذـكـرـ الطـوـافـ التـيـ تـخـاذـلـتـ فـيـ الـحـرـبـ وـبـيـنـ أـنـ سـبـبـ خـسـارـةـ الـحـرـبـ لـأـنـهـ لـمـ يـصـبـرـوـ فـيـ الـحـرـبـ. وـدـعـاهـمـ إـلـىـ عـدـمـ الـحـزـنـ عـلـىـ مـاـ أـصـيـبـ مـنـهـ بـأـحـدـ. وـوـصـفـ الـمـسـلـمـينـ الـذـيـنـ حـوـرـاـ عـلـىـ الرـسـولـ بـالـخـرـوـجـ إـلـىـ مـقـاتـلـةـ قـرـيـشـ خـارـجـ الـمـدـيـنـةـ لـكـنـهـ لـمـ يـثـبـتوـ فـقـدـ وـلـىـ مـنـهـ مـنـ وـلـىـ.

وـلـمـ يـتـحـقـقـ لـقـرـيـشـ وـلـاـ لـلـيـهـودـ مـاـ كـانـوـنـهـ مـنـ القـضـاءـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ أـوـ إـضـعـافـهـ. وـقـدـ تـرـكـتـ قـرـيـشـ وـحـلـفـاهـمـ فـيـ حـيـرـةـ وـتـرـدـدـ وـقـلـقـ. وـأـصـبـحـ مـنـ الـوـاجـبـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ إـزـالـةـ آـثـارـ الـهـزـيـمـةـ وـاستـعـادـةـ قـوـتـهـمـ وـمـكـانـتـهـمـ وـأـصـبـحـ وـاضـحـاـ لـقـرـيـشـ أـنـهـ لـمـ تـعـدـ تـمـلـكـ زـمـامـ الـمـبـادـرـةـ لـحـرـبـ الـمـسـلـمـينـ إـذـاـ اـنـتـقـلـ هـذـاـ الزـمـامـ إـلـىـ يـدـ الـيـهـودـ وـخـاصـةـ بـنـيـ النـصـيرـ الـذـيـنـ طـرـدـهـمـ الرـسـولـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ فـيـمـاـ بـعـدـ فـتـزـعـمـ هـؤـلـاءـ غـزـوـةـ الـخـنـدقـ ضـدـ الـمـسـلـمـينـ.

جـ - أهم غـزوـاتـ ماـ قـبـلـ الـخـنـدقـ :

وـفـيـ الـيـوـمـ التـالـيـ لـأـحـدـ خـرـجـ الرـسـولـ لـغـزوـ قـرـيـشـ مـرـهـاـ لـلـعـدـوـ وـلـيـلـهـمـ أـنـهـ خـرـجـ فـيـ طـلـبـهـ لـيـظـنـوـ بـهـ قـوـةـ وـأـنـ الـذـيـ أـصـابـ الـمـسـلـمـينـ لـمـ يـدـهـنـهـ عـنـ عـدـوـهـ^(٤) خـرـجـ

(١) الواقدي ، المصدر السابق والجزء ص ٣١٨ .

(٢) المصدر السابق والجزء ص ٣١٧ .

(٣) سورة آل عمران ، ابن هشام ، السيرة ، ١١٢/٣ ، الواقدي المصدر السابق ، ٣١٩/١ فـماـ بـعـدـ .

(٤) الطبرى ، تاريخ ، ٥٣٤/٢ .

الرسول فأقام في حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها أربعة أيام ثم رجع إلى المدينة.

وفي صفر من عام ٤ هـ / ٦٢٥ م غزا الرسول غزوة الرجيع لأن وفداً منبني عضل والقاربة قدموا المدينة وادعوا الإسلام وأن منهم من يحتاج إلى من يفهم في الدين ويقرءهم القرآن. وطلبو أن يرسل معهم من يقوم بذلك فارسل الرسول معهم ست نفر من المسلمين لكنهم غدروا بالنفر عند ماء لبني هذيل بناحية العجاجز في الرجيع^(١). وأخذوا سيفهم ليقتلوهم وما زالوا يدافعون عن أنفسهم حتى قتل بعضهم وأسر الآخر. وكانت نهايتهم الاستشهاد. وكان ذلك سبب غزوة بني لحيان، التي انتهت دون صدام^(٢).

ثم غزى الرسول نجداً في غزوة ذات الرقاع فلقي جمعاً من غطفان ولم تكن بينه وبينهم حرب ثم انصرف الرسول إلى المدينة وفي شعبان سنة ٤ هـ / ٦٢٥ م غزا الرسول غزوة بدر الأخيرة. وانتظر الرسول القرشين هناك ثمان ليالي ولم تأت قريش فرجع إلى المدينة. وفي شهر ربيع الأول ٥ هـ / ٦٢٦ م غزا الرسول دومة الجندل ولم يلق كيداً فرجع إلى المدينة^(٣).

د- غزوة الخندق ٥٥ هـ :

وكانت غزوة الخندق بسبب يهود بني النضير الذين أجلواهم الرسول من المدينة إلى خيبر. حيث أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضيري وحببي بن أخطف النضيري وكنانة بن الربيع النضيري وغيرهم هم الذين حزبوا الأحزاب إذ ذهبوا إلى مكة واجتمعوا برجالات قريش ودعوهم إلى حرب الرسول وقالوا لهم : (إننا سنكون معكم عليه حتى نستأصله)^(٤).

(١) المصدر السابق والجزء من ٥٣٨ .

(٢) المصدر السابق والجزء من ٥٩٥ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٢٤-٢٢٠ / ٣ .

(٤) الطبرى ، المصدر السابق ، ٥٦٥ / ٢ ، وراجع ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٢٥ / ٣ .
الواقدي ، المنازي ، ٤٤١ / ٢ .

فواهقت قريش على ذلك، وأجمعت على حرب الرسول واستعدت لذلك. ثم خرج أوليك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه. وأن قريشاً قد حالفوهم على ذلك فاتتفقوا وتحالفوا مع النفر من اليهود. ثم جاءوا بني سليم فدعوهم يخرجون معهم إذا سارت قريش، ثم رجعوا إلى غطفان فجعلوا لهم تمر في خبيث سنة وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا^(١) وبلغ جيش الأحزاب، من قريش وسليم وغطفان وأسد عشرة آلاف. وكان لكل جماعة قائدها. فأبوب سفيان قائد قريش وحلفائها من الأحابيش وبيني كنانة وتهامة، وعبيبة بن حصن الغزارى قائد غطفان ومحى بن أخطب قائد اليهود.

فلما سمع الرسول بما عزمت عليه قريش وحلفائها ضرب الخندق على المدينة وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين في الأجر. وكان الرسول قد وكل بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه وعمل هؤلاء القوم بكل حماسة واندفاع في حفر الخندق وقد استقرت عملية حفره ستة أيام ثم نزل الرسول ذات سلع فجعله خلف ظهره والخندق من أمامه. وكان عسكره هناك وضرب فيه من ادم. ووضع حراساً على الخندق خشية التخريب^(٢).

وأقبلت قريش وحلفائها وأحابيشها، واتخذوا مواقعهم في شمال المدينة بمكان يعرف بمجتمع الأسياخ. وتجمع أبو سفيان في حملبني قريطة على نقض العهد الذي بينهم وبين الرسول^(٣). فعمظ الأمر على المسلمين ونشط المنافقون بدعواتهم ضد الإسلام والرسول. وخشي الرسول أن تسرع بنو قريطة في الإغارة على المدينة ليلاً فلما أبلغ أنها تاهبت لمهاجمة المدينة، عهد إلى فريق من جند المسلمين لحراستها. وأقبلت قريش نحو الخندق فلما رأوه قالوا: (إن هذه لمكيدة ما كانت

(١) الواقدي ، المصدر السابق ، ٤٤٢/٢ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣/٢٢٦.

(٢) الطبرى ، المصدر السابق ، ٥٦٦/٢ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣/٢٢٦.

(٣) الواقدي ، المصدر السابق ، ٤٤٥/٢ ، ٤٦٥ ، ٤٤٦-٤٤٥ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٢٦/٣ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ٥٦٦/٢ .

(٤) ابن هشام ، ١ ، المصادر السابق ، ٣/٢٣٠-٢٣١ ، الواقدي ، المصادر السابق ، ٤٥٦/٢ .

العرب تكيدوا^(١)) وصاروا يطوفون بخليهم حول الخندق لعلهم يعشرون على سيف منه يمكنهم من عبوره. وقد ردهم المسلمين على أعقابهم حين حاولوا اقتحام مضيق الخندق وأقام الرسول وأقام عليه المشركون بضعة وعشرين ليلة، قريباً من شهر لم تكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبال والحصار.

ولما اشتد الأمر على المسلمين بعث الرسول إلى قائد غطفان وأعطاه ثلث شمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهما عن المسلمين، وجرى بينهما الصلح حتى كتبوا كتاب صلح، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوغة في ذلك. وقبل أن يشهد عليه استشار الرسول بعض الصحابة فلم يرجحوا ذلك فاتبع الصحابة فلم يرجحوا ذلك فاتبع الرسول رأيهما فالغنى الاتفاق^(٢).

ولما اشتد الحصار على المسلمين رأى الرسول ضرورة اتباع الحيلة لتفتيت الأحزاب وخلق جو من عدم الثقة بينها، وذلك باستخدام نعيم بن مسعود الغطفاني الذي أسلم. أثناء الحصار سراً من أجل تحقيق هذه المهمة، ونجح نعيم في الواقعية بين الأحزاب وجعل قريش تتأكد من غدر القرطبيين بهم فزعموا على الرحيل. وكان للعوامل الطبيعية أكبر الأثر في ذلك إذ هبت ريح عاتية كفأت قدورهم ونزع عنهم خيالهم فأرغمتهم على الرحيل^(٣).

وكان لطول مدة الحصار أثر كبير في نفوس الأحزاب المتحالفه مع قريش ضد المسلمين. إذ ملت وستمنت طول مدة الحصار، الذي لم تعتاده من قبل وكان لفشل الأحزاب أثر مهم على المسلمين، فقد تبين لهم أن المدينة لا تؤخذ عنوة ثم التفت الرسول إلىبني قريظة الذين نقضوا العهد الأعداء عليهم حتى زاغت أبصار المسلمين وبلغت القلوب الحناجر، فحاصرهم المسلمون خمسة وعشرون ليلة حتى

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٥/٣ .

(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٣٤-٢٣٣/٣ ، الطبرى ، المصدر السابق ٢/٥٧٣ ، الراقدى ، المصدر السابق ٤٧٧/٢ .

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٩ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣/٤٤٣ .

نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس. فحكم بقتل الرجال وتقسيم أموالهم بين المسلمين^(١) لارتكابهم جريمة الخيانة العظمى.

حدث أثناء غزوة الأحزاب شيء له أهمية في الحضارة العربية الإسلامية، ذلك هو قيام المستشفيات في صورها الأولى في التاريخ العربي الإسلامي. فقد نصب المسلمون خيمة في مسجد المدينة لمداواة الجرحى، وكانت فيها امرأة اسمها رفيدة الأنصارية لها خبرة بالطب، فأخذت على عاتقها مداواة الجرحى وخدمتهم^(٢).

هـ- صلح الحديبية ٦ هـ / ٦٢٧ م

فشل غزوة الأحزاب رغم أن قريشاً وحلفائها قد استنفذوا لها معظم إمكاناتهم المادية والمعنوية، للقضاء على المسلمين معروضين هبيتهم ومصالحهم المادية للخطر، فاطمأن الرسول على سلامة الوضع السياسي بعد هذا الفشل، ونتج عن ذلك تبدل الوضع الاستراتيجي، إذا أصبح زمام الأمور بيد الرسول وانتقل المسلمون من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. وأصبحت المدينة مقفلة للMuslimين بعد إخراج بنى قريظة منها. فأتىح للرسول التفرغ لمواجهة أعدائه في الخارج. أحس الرسول باشتياق المسلمين لديارهم في مكة ولزيارة الكعبة التي يحنون إليها. ويتجهون من بعد للصلوة نحوها. فاستغل الرسول شهر الحرام الذي لا تجوز فيه الحرب والقتال وأذن للMuslimين بالرحيل إلى مكة ففرحوا وبدأوا رحلتهم في ذي القعدة سنة ٦ هـ / ٦٢٧ م وكانوا حوالي ألف مسلم من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب^(٣).

ولم تستطع قريش دخول المسلمين الكعبة لأن هذا معناه استسلامها للMuslimين. فقررت منع المسلمين من الوصول إلى الكعبة. فانتدبت خالد بن الوليد الذي نزل بدبي طوى، وهو موقع قرب مكة، ولغرض تحاشي الصدام مع قريش غير الرسول طريقة إلى مكة وانتهى إلى الحديبية، وهو مكان أسفل مكة. فنزل فيه وكان الرسول

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣/٢٤٩-٢٥٢ ، الواقدي ، المصدر السابق ، ٢/٥١٢ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣/٢٥٠ .

(٣) المصدر السابق والجزء من ٣٢٢-٣٢٤ .

يهدف من زيارة الكعبة جملة أمور منها :

أن يؤكد لقريش وللعرب بأن المسلمين يحترمون الكعبة ويقدسونها، يضاف إلى ذلك فإنه أراد أن يُخرج قريش بهذه الزيارة، فهي إن منعت المسلمين من أداء الفريضة الواجبة على العرب وقاتلتهم في شهر محرم، إذ سمح لهم بالزيارة، فإن ذلك يعتبر اعترافاً منها بوجود المسلمين واعترافاً بضعف سلطانها على الكعبة. ثم إن وصل الرسول الكعبة سيتيح له الاتصال بالعرب القادمين من مختلف أجزاء الجزيرة، ليعرض عليهم الإسلام وأرسلت قريش السفراء إلى الرسول بغية اقناعه بالعدول عن دخول الكعبة. ولما أجاب الرسول أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت معظمًا لحرمته. أجابت قريش (وإن كان جاء لا يريد قتالاً، فر الله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تحدث بذلك عنا العرب) ^(١).

ويبدو أن الرسول نجح في إشعار قريش بضعف موقفها اتجاهه، يدل على ذلك أنها أرسلت خمسة سفراء وهم : بشر بن سفيان الكعبي، وبديل بن ورقاء الغزاعي، ومكرز بن حفص بن الأطيف، والحلبي بن علقمة، وعروة بن مسعود. في حين أن الرسول أرسل سفيرين وهما خراش بن أمية وعثمان بن عفان، ثم أرسلت قريشاً سفيراً سادساً وهو سهيل بن عمرو وقالت له :-

(أنت محمداً فصالحة ولا يكن في صلحه، إلا أن يرجع عنا عامة هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً) ^(٢). فاجتمع مع الرسول وكتبوا معاهدة صلح جاء فيها :

(هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع العرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكتف بعضهم عن بعض، على أنه من أني محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفرة. لا تبدي عداوة. وأنه لاسلال ولا غلال. الأسلال السرقة الخفية والأغلال الخيانة. وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد

(١) المصدر السابق والجزء من ٣٢٥.

(٢) المصدر السابق والجزء من ٣٣١.

وعهده دخل فيه^(١)، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه) ثم انصرف المسلمون إلى المدينة أن حصلوا على موافقة قريش بزيارة الكعبة، في العام القادم والسيوف مغمدة، على أن تخرج قريش منها.

ولما أقرت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقاويا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. وقد دخل في الإسلام في الفترة ما بين صلح الحديبية وفتح مكة، مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. والدليل على ذلك هو أن الرسول خرج إلى الحديبية في ألف وأربعينألف. في حين خرج في عام فتح مكة في عشرة آلاف^(٢).

وقد أظهر الرسول ﷺ متنهي الحكم، وبعد نظر سياسي كبير حين قبل بهذه المعاهدة لأن المسلمين سرعان ما جنو ثمارها، إذا حققت :

- ١- اعتراف قريش بال المسلمين طرقاً مساوياً لها. وتحول المسلمين من مجموعة ثانية إلى هيئة لها وجود وحقوق وعليها واجبات والتزامات.
- ٢- فسحت المعاهدة المجال للرسول والمسلمين للتفرغ لنشر الإسلام والتعريف به. وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الصلح بلفظة (الفتح) قال تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الفتح: ١، ٢] وقد نزلت هذه الآية عقب صلح الحديبية.
- ٣- أعطت المسلمين فرصة التفرغ لليهود ليتخلصوا منهم، ولذا غزا الرسول خير سنة ٧ هـ / ٦٢٨ م وانتصر عليهم.
- ٤- أسرع الكثير من رجالات قريش لدخول الإسلام، ومنهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وذلك لأن الإسلام بدأ ينتشر ويتنصر، فبدأ الكثير من رجالات قريش يفكرون بالإسلام ومياديه.
- ٥- ثم إن دخول المسلمين مكة في العام المقبل بعد خروج قريش منها، إنما هو انصار كبير للمسلمين لأنهم سيدخلونها أمنين مطمئنين، وهذا خير من أن

(١) المصدر السابق والجزء من ٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق والجزء من ٣٣٦-٣٣٧ .

يدخلوها وقريش فيها والحدّر يملأ قلوبهم.

٦- إن الذين جاءوا من قريش فأسلموا لكن الرسول ردهم ، دافعوا عن أنفسهم وأصبحوا خطراً على قريش نفسها. لأن الرسول عندما ردهم وفاة بالعهد لم يعد هؤلاء إلى مكة ، بل عسكروا في طريق قوافلها التجارية. وأخذوا يهددون هذه القوافل. وزاد عددهم حتى بلغوا حوالي ثلاثة مائة ، وكانوا بزعامة عتبة بن أبي سعيد. فاضطرت قريش أن تطلب من الرسول أن يضمهم إليه^(١). ويجدو أن سبب ذلك أن قريشاً ظنت أن إسلامهم سيلزمهم بالالتزام ببنود صلح الحديبية.

و- غزوة خيبر ٧ هـ / ٦٢٨ م :

كان الرسول ﷺ قد أخرجبني النضير وبني قينقاع وبني قريطة من المدينة، لعدم التزامهم ببنود الصحيفة، ولكن خطر اليهود لم ينته ببلاد الحجاز باجلاقهم عن المدينة فرأى الرسول بعد صلح الحديبية أن يهاجم خيبر. ولم يذكر المؤرخون أنه كان بين الرسول ويهود خيبر عهد أو صحيفه كما كان بينه وبين يهود المدينة. وقد غزا الرسول يهود خيبر ليدعوهم للإسلام ، أو قبول الجزية أو الحرب فلما لم يسلموه ولم يقبلوا الجزية حاربهم.

وروى ابن هشام والواقدي والطبرى ، أن أهل خيبر كانوا قد ظاهروا غطفان على رسول الله ﷺ وأن غطفان قصدت خيبر ليظاهروا اليهود ، ثم خافوا المسلمين على أهليهم وأولادهم فرجعوا^(٣).

ولم يكن يهود خيبر يتوقفون غزوة الرسول لهم (المنتعمون وحصونهم وسلامتهم وعددهم)^(٤).

سار الرسول إلى خيبر في محرم من السنة السابعة للهجرة ، حتى نزل مساء بoward يقال له الرجيع فنزل فيه وبذلك فصل بين يهود خيبر وعرب غطفان ليحول بينهم

(١) ابن هشام ، المصدر السابق والجزء ص ٣٣٦ .

(٢) شبل ، أحمد ، المصدر السابق ، ٢٢٨/١ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٤٤/٣ ، الواقدي ، المصدر السابق ٦٤٢/٢ الطبرى ، المصدر السابق ، ٩/٣ .

(٤) الواقدي ، المصدر السابق ، ٦٣٧/٢ .

وبين أن يمدوا أهل خيبر. وكان عرب غطفان مظاهرين يهود خيبر على المسلمين على أن يعطوهم نصف تمر خيبر لمدة سنة^(١). ثم تحرك الرسول نحو خيبر دون أن يعلم أهلها فاستقبله عمال خيبر غادين، فلما رأوا جيش المسلمين أببروا وهردوا، وأخذ الرسول بمحاجمة الآطام (الحصون) واحدة بعد الأخرى. فاستولى على حصن ناعم، ثم القموص ولما تقدم يفتح حصونهم الواحد بعد الآخر انتهوا إلى حصينهم الوطيط والسلام وكانا آخر حصون خيبر افتتاحاً. ولما أيقنوا بالهلاكة سألوا الرسول أن يسيرهم (بنفهم) وأن يحقن لهم دماءهم ففعل.

ثم مشى محىصة بن مسعود أخوبني حارثة، بينهم وبين الرسول فلما نزل أهل خيبر على ذلك، صالحهم الرسول على النصف في أموالهم. وإن شاء أن يخرجهم متى شاء ثم صالح أهل فدلل على مثل ذلك^(٢).

ويعد انصراف الرسول من خيبر أتى وادي القرى ودعى أهلها إلى الإسلام فامتنعوا وقاتلوا. ففتحها عنوة. فاضطر أهلها للتسليم وغنم المسلمون منهم أناشأ ومتاعاً. وتترك المسلمون لأهل وادي القرى التخيل، والأرض بأيدي اليهود وعاملوهم على نحو ما عاملوا عليه أهل خيبر.

ولما بلغ أهل تيماء ذلك صالحوا المسلمين على الجزية، وأقاموا في بلادهم وأرضهم في أيديهم^(٣).

وكان الانتصار المسلمين في خيبر وفدى ووادي القرى وتيماء أهمية خاصة، إذا أصبح للدولة العربية الإسلامية الفتية سلطان سياسي وأراضي مملوكة. يجرون منها أصبح للدولة العربية الإسلامية الخراج والجزية. وهكذا وجد بتلك الدولة الإسلامية لأول مرة أهل ذمة وقد سمح لهم أن يتمتعوا بحرি�تهم الدينية ويزرعوا أراضيهم وفق الشروط التي أخذت عليهم. وهناك أهمية أخرى لانتصار المسلمين في خيبر وفدى

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٢٤ / ٣ ، الواقدي ، المصدر السابق ٦٣٩ / ٢ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٤٤ / ٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦٨ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٨-٣٦ ، ٤٢ ، الواقدي ، المصدر السابق ٧٠٧ / ٢ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٨-٤٧ ، الواقدي ، المصدر السابق ٧١١ / ٢ .

ووادي القرى، وهي أن المسلمين أبعدوا الخطر الذي كان يهدد المدينة من قبلهم، وتتوفر للدولة العربية الإسلامية الناشئة الأمان والاستقرار.

ز- عمرة القضاء ٧ هـ / ٦٢٨ م :^(١)

خرج الرسول في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، وهو الشهر الذي صدر فيه المشركون، معتمداً عمرة القضاء بدل عمرته التي صدرها عنها.

وخرج معه المسلمون فمن كان معتمداً معه في عمرته وكانوا ألفين فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنها. وأقام الرسول بمكة ثلاثة^(٢).

روى الواقدي (لما قضى رسول الله نسكه دخل البيت، فلم يزل فيه حتى أذن بلال بالطهر فوق الكعبة. كان رسول الله أمره بذلك) ولكن قريشاً أبى وقالت (لم يكن في شرطك) ولذا فإن بلالاً (أذن فوق الكعبة يومئذ مرة ولم يعد بعد)^(٣). وزار المهاجرون من المسلمين بيوتهم ودورهم التي تركوها. ثم طلبت قريش من المسلمين أن يخرجوا فخرجا إلى المدينة في ذي القعدة من السنة نفسها.

ح- فتح مكة ٨ هـ / ٢٩ م :

وكانت قبيلة خزاعة قد عدت على بكر قبل الإسلام. وظل العداء مستحكماً بين القبيلتين حتى ظهر الإسلام، وحجز بينهم وتشاغل الناس به^(٤) فلما كان صلح الحديبية كان من بين بنوده، من أحب أن يدخل في عهد الرسول وعنته دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعدهم دخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش. ودخلت خزاعة في عقد الرسول.

فلما كانت تلك الهدنة اغتنمتها بنو بكر، وأرادوا أن يصيروا ثاراً

(١) وتسمى أيضاً عمرة القصاص ، انظر الواقدي ، المصدر السابق ، ٢/٧٣١ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤/١٢-١٤ ، الواقدي ، المصدر السابق ، ٢/٧٣١ .

الطبرى ، المصدر السابق ، ٣/٣ .

(٣) المنازي ، ٢/٧٣٨ .

(٤) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤/٣١-٣٥ ، الواقدي ، المصدر السابق ، ٢/٧٨١ .

الطبرى ، المصدر السابق ، ٣/٤ .

بخزاعة. فخرج نوفل بن معاوية الديلي في بني الدليل - وهو يومئذ قائدتهم - حتى بيت خزاعة وهم على الوتير ماء لهم، فأصابوا منهم رجلاً وتحاوزوا واقتتلوا. ورفقت قريش بنى بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً، حتى حازوا خزاعة على الحرم، فلما دخلت خزاعة مكة لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له رافع^(١).

فخرجت وفود من خزاعة إلى الرسول وأخبروه بما حدث وبمظاهره قريش بنى بكر عليهم. فبعث الرسول إلى أهل مكة وسألهم عن الأمر، وخبرهم بين إحدى ثلاث خلال (بين أن يدرروا خزاعة أو يبرأوا من حلف نفاثة - فرع من بكر - أو ينذر اليهم على سواء...)^(٢) لكن أهل مكة رفضوا ذلك.

وندمت قريش على رد وفد الرسول بما ردوه^(٣) وعلى ما صنعت من عون بنى بكر على خزاعة. وعرفوا أن الرسول لن يدعهم حتى يغزوهم. فانتدبوا أبا سفيان للذهاب إلى المدينة ليكلم الرسول بأن يزيد الهدنة ويجدد العهد قبل أن يبلغه خبر مناصرة قريش لبكر ضد خزاعة^(٤). لكن معاوية أخفق في مهمته وعاد إلى قريش يخبرهم بذلك.

أجمع الرسول على المسير، إلى مكة لعشر مضيفين من رمضان، في عشرة آلاف من المسلمين. وكانوا من المهاجرين والأنصار ومن مختلف القبائل، كبني سليم ومزينة. وأسلم وجهيتة، وبني غفار، وضمرة، وأشجع وبني كعب وكان الرسول قد كتب لهذه القبائل (أن رسول الله يأمركم أن تحضروا رمضان بالمدينة)^(٥).

كان الرسول قد عمّ الأخبار عن قريش (فلم يأتهم خبر عن رسول الله ولا يدرؤون ما هو فاعل)^(٦) وكان الرسول يقول (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش

(١) الطبرى ، المصدر السابق ، ٤٤/٣ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٣٢/٤ .

(٢) الواقدى ، المصدر السابق ، ٧٨٦/٢ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ٣ .

(٣) الواقدى ، المصدر السابق ، ٧٨٧/٣ .

(٤) الواقدى ، المصدر السابق والجزء من ٧٨٥ .

(٥) الواقدى ، المصدر السابق والجزء من ٧٩٨-٧٩٧ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٦٣/٤ .

(٦) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤٢/٤ .

حتى نبغتها في بلادها^(١). وكان اختيار شهر رمضان مبالغة في الكتمان، إذ لم تتوسع قريش قيام المسلمين بمثل هذه الحملة الكبيرة في الشهر الحرام.

وفي منتصف الطريق إلى مكة التقى بالرسول عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بعياله إلى المدينة، فأسلم على يدي الرسول^(٢). وبعد مرحلة التقى الرسول أيضاً برجلين من مشاهير قريش، وهما أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن المغيرة، بربidan الإسلام. وكان الأول ابن عم الرسول والثاني ابن عمته^(٣). ومعنى ذلك أن قريشاً كانت ترغب في الاستسلام، بطريقة لا تمس شرفها ومكانتها بين العرب.

ويبدو أن العباس عم الرسول كان يعطف على قريش، ويفكر بمستقبلها ويريد لها العز والكرامة بالإسلام لاهلاكها. فقد كان يقول : (والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتيه فيستأمنه أنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر)، وأخذ يبحث عن من يستطيع أن يرسله إلى قريش ويحذرها من مغبة مواصلة مكابرتها ومقاومتها للإسلام ثم التقى بأبي سفيان الذي أرسلته قريش، لأخذ أمان من الرسول لقريش وتههد له أن يشفع له عند رسول الله، أن ذهب إليه وأسلم فقابل الرسول وأسلم على يديه^(٤). ثم عاد أبو سفيان إلى مكة وأخبر قريش بأن محمدأً قد أتى بهم ولا قبل لهم به. قالوا وما العمل فقال باعلى صوته (فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن). فقالوا ويحك وما تغنى عنا دارك قال: ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد^(٥).

ولما اقترب الرسول من مكة اتخذ كل ما لديه من أبهة وحنر، وقسم جيشه إلى أربعة أقسام وجعل كل قسم منها يدخل من جهة^(٦) ليقضي على أية مقاومة. وكان

(١) الطبرى ، المصدر السابق ، ٤٧/٣ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤٢ / ٤ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤٢/٤ ، ٤٣-٤٢ ، الواقدى ، المصدر السابق ، ٨٠٦ / ٢ ، ٨١١ .

(٤) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤٤/٤ ، ٤٦-٤٤ .

(٥) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤٧/٤ .

(٦) المصدر السابق والجزء من ٤٩ .

الرسول قد عهد إلى أمرائه من المسلمين، حين أمرهم أن يدخلوا مكة (أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم). إلا أنه قد عهد في نفر سماهم أمر بقتلهم، وأن وجدوا تحت أستار الكعبة^(١)، وحاولت بعض الفئات القرىشية بزعامة صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل منع المسلمين من الدخول، وشهروا السلاح بوجوههم لكنهم وبعد مقاومة لم تدم طويلاً، انهزوا وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال. واقتصرت فئات أخرى الدور وأغلقت عليهما الأبواب وطرح آخرون سلاحهم في الطرقات فأخذه المسلمون^(٢). وتوجه الرسول نحو الكعبة وطاف بها سبع مرات وحطم ما حولها من الأصنام.

ثم جاءت قريش وأسلمت بين يدي الرسول، وبأياعته على السمع والطاعة. ثم أصدر عفواً عاماً. إذ خاطب القرشيين قائلاً (اذهبا فأنتم اطلقاء)^(٣) ونهى عن الهجرة بعد فتحه مكة وأبقى سقاية الحج بيد العباس، وسدانة الكعبة بيد عثمان بن طلحة^(٤).

وحيث دخل الرسول مكة وفتحها تخوف الأنصار من بقائه بها لكنه طمأنهم وقال لهم : (المحيا محياكم والممات مماتكم)^(٥) وفي اليوم الثاني أعلن الرسول حرصه مكة إذ قال :

(أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيمة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعتصد فيها شجر، ولم تحل لأحد كان قبله، ولا تحل لأحد يكون بعدي ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلهما. إلا ثم قدر رجعت كحرمتها بالأمس، فليلغ الشاهد منكم الغائب^(٦)).

ثم بعث الرسول خالد بن الوليد فيما حول مكة على رأس سرية تدعوا إلى الله عزوجل.

(١) المصدر السابق والجزء ص ٥١ .

(٢) الواقدي ، المصدر السابق والجزء ص ٨٢٦ ، ابن هشام ، المصدر السابق ص ٥٠-٤٩ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق الجزء ص ٥٥ .

(٤) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٥) المصدر السابق والجزء ص ٥٩ .

(٦) المصدر السابق والجزء ص ٥٨ .

ولم يأمرهم بقتاله. فوطىء بنى جذيمة فأصاب منهم. ثم بعثه إلى نخلة لهم العزي. فلما انتهى إليها خالد هدمها^(١) وأقام الرسول بمكة بعد فتحها خمس عشر ليلة^(٢).

٤- إسلام هوازن وثقيف :

كانت هوازن وثقيف وغطفان حلفاء لقريش، وقد ظاهروها في حروبها ضد الرسول. فلما نجح الرسول في دخول مكة وقضى على مقاومة قريش، ونظمها القديم القائم على الوثنية، وأصبح حلفاؤها من هوازن وثقيف وغطفان وغيرهم من القبائل التي تقيم بالقرب من مكة معزولين أمام المسلمين، رأت هذه القبائل بأن الرسول سيهاجمهما أن عاجلاً أم آجلاً. ولذا فقد قررت أن تبدأ بالهجوم على المسلمين، فمشى أشراف هوازن بعضهم إلى بعض وأشراف ثقيف بعضهم إلى بعض وحشدوا الجيوش. وقرروا المسير، إلى محاربة المسلمين تحت قيادة مالك بن عوف النصري^(٣).

ولما جمعت هوازن وثقيف المسير، إلى ملاقاة المسلمين، أمر مالك أتباعه أن يجلبوا معهم أموالهم ونسائهم وأبنائهم، حتى نزلوا بأواسط واجتمع الناس به، فعسكروا وأقاموا. وجعلت الإمدادات تأتيهم من كل ناحية، وكان دريد بن الصمة الشاعر المعمر قد أنظم إلى جيش هوازن ليتفعوا بخبرته وتجاربه، لكنهم صدوا عنه عندما اعترض على جلبيهم معهم أموالهم ونسائهم وأبنائهم في الوقت الذي يستعدون فيه للقتال^(٤).

فلما علم الرسول بأن هوازن وثقيف سائرون إليه، خرج من فوره لصد خطرهم ومعه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، وخرج مع الرسول ناس من المشركين منهم صنوان بن أمية. وكان الرسول قد استعار منه

(١) المصدر السابق والجزء من ٧١ ، ٧٩ ، الواقدي ، المصدر السابق والجزء من . ٨٧٥، ٨٧٣

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤/٨٠ ، الطبرى ، المصدر السابق . ٦٩/٣ .

(٣) الواقدي ، المصدر السابق ، ٣/٨٨٥ ، ابن هشام ، المصدر السابق . ٤/٨٠ .

(٤) الواقدي ، المصدر السابق ، ٣/٨٨٨ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤/٨١ .

مائة درع بأداتها كاملة^(١). وخرج رجال من مكة غير مسلمين ركباناً ومشاة، ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم^(٢). فلما انتهى الرسول إلى حنين في ١٠ شوال عسكر بها. فحال المسلمين ذهوا وإعجاب لكثره عدهم. أما هوازن وثيفن فقد كمنوا لل المسلمين في شعاب الوادي ومضايقه وتهيئوا أعدوا. ولما هجم عليهم المسلمون من كل مكان، وشدوا عليهم شدة رجل واحد. وانشمر راجعون لا يلوبي أحدهم على أحد^(٣). فلما كانت هزيمة المسلمين قال بعض المنافقين: (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر)^(٤) وصرخ جبلة بن العتبيل (الا بطل السحر) فقال له صفوان وكان على الشرك (أسكت فض الله فاك. فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب الي من أن يربني رجل من هوازن)^(٥).

ثم أعاد الرسول تنظيم صفوف المسلمين، فانحاز ذات اليمين مع مجموعة من ثبتوا من أهل بيته، والمهاجرين والأنصار وأخذ ينادي المسلمين فعادوا إليه، والتلفوا حوله^(٦). واستقبلوا الأعداء فاقتتلوا وأعجب الرسول بشبات المسلمين وجذبهم، فقال (الآن حمي الوطيس)^(٧) وولى الأعداء هاربون، وسار بعضهم إلى الطائف وسار فريق آخر إلى نخلة، وتوجه فريق ثالث إلى أوطاس تاركين نسائهم وأطفالهم وأموالهم غنية لل المسلمين^(٨) فوجه الرسول بعض الصحابة ليقضوا على مقاومتهم.

لم يرغب الرسول أن يشغل المسلمين بالغنائم، لذا فقد أمر بالسيء أن يوجهوا

(١) الواقدي ، المصدر السابق ، ٨٩٠/٣ .

(٢) الواقدي ، المصدر السابق ، ٨٩٥/٣ .

(٣) المصدر السابق والجزء من ٨٩٨ ، ابن هشام المصدر السابق ٨٥/٤ .

(٤) الواقدي المصدر السابق الجزء من ٩١٠ ، ابن هشام المصدر السابق ٨٦/٤ .

(٥) ابن هشام ، المصدر السابق والجزء من ٨٦ ، الواقدي ، المصدر السابق ٩١٠/٣ .

(٦) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٨٧/٤ .

(٧) المصدر السابق والجزء والصفحة

(٨) المصدر السابق والجزء من ٩٥ .

(٩) المصدر السابق والجزء من ١٠١ ، الواقدي ، المصدر السابق والجزء من ٩١٣-٩١٤ .

إلى الجعرانة. وأمر بالغناائم فسيقت إليها وحبش بها^(١).

ثم تأهب للمسير للطائف للاحتجة ثقيف الذين لجأوا إليها. فانتهى الرسول إلى الطائف. وكانت ثقيف قد رمموا حصنهم، وأغلقوه عليهم وصنعوا الصنائع للقتال. وأدخلوا في حصنهم ما يكفيهم لمدة سنة لو حوصروا.

ومضى المسلمون ونزلوا حصن الطائف. وضرب الطائفيون المسلمين بالنبل فاستشهد الكثير من المسلمين، لأن المسلمين اقتربوا من حاطن الطائف، فكانت النبل تناههم. فاضطر المسلمين أن يعسّروا في مكان آخر ليأمنوا رمي أهل الطائف^(٢).

أقام الرسول يقاتل ثقيف نصف شهر من وراء الحصن، ولم يخرج إليه في ذلك أحد منهم. وأسلم من حوله من الناس كلهم. ثم رجع الرسول حتى نزل الجعرانة وبها السبي الذي سباه المسلمون في معركة حنين، من نسائهم وأبنائهم فلما وصل الرسول الجعرانة قدمت إليه وفود هوازن مسلمين فأعتقد أبناءهم ونسائهم^(٣). أما أموالهم التي غنمها المسلمون، فقسمها المسلمون على المؤلفة قلوبهم من كبار قريش وغيرهم من الذين أسلموا حديثاً^(٤). ولم يعط الأنصار منها ففضبوها لكن الرسول أرضاهم عندما قال لهم : (...ألا ترثون يا عشرة الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امراً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار...)^(٥). وبذلك هدا الرسول نفوسهم.

ثم انصرف الرسول إلى المدينة بعد أن ولّ عتاب بن أبي سعيد على مكة لينظم أمور المسلمين بها. وخلف معاذ بن جبل يفقه الناس^(٦).

(١) ابن هشام المصدر السابق والجزء من ١٢٥.

(٢) الطبرى المصدر السابق ، ٨٢/٣ ، ابن هشام ، المصدر السابق ، ١٣٧-١٣٠ / ٤ .

(٣) ابن هشام المصدر السابق ، ١٣٥ / ٤ - ١٣٦ .

(٤) المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٣ .

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة .

أيقن سادات الطائف أن المسلمين أصبحوا قوة كبيرة، في جزيرة العرب وأن مصلحتهم تتحتم عليهم الدخول في الإسلام، ومن هؤلاء عروة بن مسعود الثقفي صهر أبي سفيان الذي اتبع أثر الرسول، حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام. فخرج يدعو قومه إلى الإسلام فلما دعاهم إلى الإسلام واطهر لهم دينه رموه بالنبل من كل جهة، فأصابه سهم وقتلته^(١).

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة شهراً، وفي شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة أتمرو بينهم، وراؤا أن لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا. ثم استقر رأيهم على أن يبعثوا إلى الرسول وفداً برئاسة عبد باليل بن عمرو، ليعرض عليه صلح ثقيف معه ورغبتهم في الإسلام.

ورغم استعداد وفد ثقيف للدخول في الإسلام، فإنهم طلبوا من الرسول أن (يدع) الطاغية، وهي اللات لا يهدمنها ثلاث سنين، ... فأبى أن يدعها شيئاً مسمى) وسألوه أن (يعفيم عن الصلاة وأن لا يكسرها أو ثانهم بأيديهم .. فقال لهم رسول الله : أما كسر أو ثانكم بأيديكم فستغفلكم منها، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه فقالوا يا محمد فستوتكمها وإن كانت دناءة)^(٢).

وكذلك طلب وفد ثقيف من الرسول أن يعلن حرمة وجاء اسم للطائف موطن قبيلة ثقيف. فكتب الرسول لهم :-

(بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبي ، رسول الله إلى المؤمنين : إن عصاه^(٣) وج وصيده لا يعذد. من وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به النبي محمد وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله).^(٤) رجع وفد ثقيف فاصدين بلدتهم لنشر الإسلام فيه. وبعث الرسول معهم

(١) المصدر السابق والجزء ١٨٢ .

(٢) المصدر السابق والجزء من ١٨٥ .

(٣) العصابة شجر له شول ، ووج اسم الطائف ، لايغض ، لا يقطع انظر ابن هشام المصدر السابق والجزء من ١٨٧ ، هامش رقم (١) (٢) .

(٤) المصدر السابق والجزء والصفحة

المغيرة بن شعبة، وأبو سفيان بن حرب لهدم اللات. فقام المغيرة بمهمة هدم اللات. وقام قومه بمحابيته خشية أن يصاب بهم كما أصيب عمرو بن مسعود من قبل^(١). ثم أسلم بنو ثقيف وأصبحوا من أشد العرب حرماً على الإسلام، وذوداً عنه حتى في محن الردة حيث أصبح الإسلام مقصوراً على أهل مكة والمدينة والطائف وقبيلة عبد القيس^(٢).

وبإسلام ثقيف غدت الحجاز بكمالها تدين بالدين الإسلامي كما أخذت القبائل العربية الأخرى التي كانت ما تزال على الشرك تحد حذو ثقيف، وترسل بعوثاً إلى المدينة لتعلن أضوائها تحت راية الإسلام ومباعدة الرسول.

نهاية الكفاح :

١- إكمال الدعوة الإسلامية :

بكى بعض من سمع قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أتوا جاً فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان تواباً) وعندما سئلوا عن سبب بكاءهم قالوا: إن معنى هذه السورة قرب وفاة الرسول، فقد جاء نصر الله وفتحت مكة، وجاءت أفواج الناس تدخل في دين الله أتوا جاً، ومعنى ذلك أن مهمة الرسول قد انتهت بنجاح، وبإتمام مهمته العظمى طلب منه الله أن يستغفر للذنبه ويستعد للقاء ربه.

ومثل هذا ما قيل في الآية الكريمة والتي كانت خاتمة القرآن الكريم «أَتَيْتُكُمْ وَبِتَكُمْ وَأَتَيْتُكُمْ يَعْمَقِي وَرَضِيْتُكُمْ الْهَمَّ وَبِنَا» [المائدة: ٣].

٢- حجة الوداع :

عندما توالى وفود العرب على مكة معلنـة إسلامـها، شعر الرسول بأنه أكـمل دـينه وأنه قد قارب نهاـيـته، فـعزم عـلـى أداءـ الحـجـة فـخرج فـي السنة العـاشرـة للـهـجرـة /

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ .

(٢) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، ١٤٦ - ١٤٧ / ١

٦٣١ م من المدينة في مائة ألف مسلم أو يزيدون، وقبل أن يتم مناسك الحج خطب الرسول على جبل عرفات في هذا التجمع الكبير ليشهدهم على أنفسهم بأنه بلغ الرسالة وأوفاها وقد وضع في خطبته دستوراً للمسلمين إذ قال في هذه الخطبة حسب رواية ابن هشام :^(١)

(يا أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلغت فمن كان عنده أمانة فليؤدعا إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كلة، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع. وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضاً في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد، أيها الناس: فإن الشيطان قد ينس من أن يبعد بأرضكم هذه أبداً. ولكنه أن يطمع في سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس: أن النسيء زيادة في الكفر، يظل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرام، ثلاث متواالية رجب مصر^(٢) الذي بين جمادى وشعبان، أما بعد أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً عليهم، أن لا يوطئن فرشكم أحد تكرهونه، وعليهم أن لا يأتين بفاحشة ميبة. فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح. فإن انتهن فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا النساء خيراً، فإنهن

(١) المصدر السابق ، ٤/٢٥٠-٢٥٢ .

(٢) إنما قال الرسول ذلك لأن ربيعة كما كانت تحرم رمضان وتسمية رجياً فيبين الرسول أنه رجب مصر لا رجب ربيعة .

(٣) جمع عسانيه وهي الأسرية .

عندكم عوان^(١) لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتوهن بأمان الله واستحللتكم ب كلمات الله، فاعقلوا أيها الناس: قولي، فاني قد بلغت. وقد تركت فيكم ما إن اعتصتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بينا كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه فعلمون أن كل مسلم أخ لمسلم وإن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت؟ .. قال المسلمون نعم فقال الرسول (اللهم اشهد) .. ثم أكمل الرسول مناسك الحج فكانت حجة الوداع وذلك لأنه لم يحج بعدها .

٢- مرض الرسول ووفاته :

ثم رجع الرسول إلى المدينة وانصرف إلى تنظيم أمور المدن والقبائل الإسلامية. فأرسل العمال إلى المدن ومختلف القبائل يعلموهم فرائض الإسلام ويقيمون العدل ويجمعون الزكاة^(٢) وعاش الرسول في أيامه الأخيرة عيشة هدوء، واستقرار ورضا بال، وذهن، مما مكنته من أن يصلى بالناس إلى ما قبل ثلاثة أيام من وفاته. وفي المرة الأخيرة التي صلى فيها الرسول في المسجد خاطب الناس قائلاً :

(أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت منه عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحناه من قبلي فهي ليست من شأنى^(٣) .

ودعا الحاضرين جميعاً إلى التمسك بفرائض الدين، والعيش بسلام وتقوى وختم كلامه بقوله تعالى: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يربدون علوأً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) ثم عاد إلى بيته وبدأت قواه تضعف بسرعة. وبينما كان يتهل إلى الله، ارتفعت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى في ظهر يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول عام ١١ هـ / ٨ حزيران ٦٣٢ م.

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤٤٦-٤٤٧ / ٤ .

(٢) ابن الوردي ، زين الدين بن مظہر ، تاریخ ابن الوردي (النجف ، ١٩٦٩ ، ص ١٨١) .

٣- الصلات الدبلوماسية بين الرسول ﷺ ورؤساء القبائل العربية وملوك العالم :

١- عام الوفود :

تسمى سنة تسع للهجرة بسنة الوفود، لأن وفود العرب ضربت إلى الرسول من كل مكان بعد فتح مكة. يروي ابن هشام (فلما فتح مكة، ودانت قريش، ودخلوها الإسلام، وعرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله .. أتوا يضربون إليه من كل وجه^(١)).

وكانت ثقيف أول من أرسل وفداً لمقابلة الرسول، وقد أسلم الوفد بعد أن حصل من الرسول عهداً. وكان لإسلام ثقيف، أهمية كبيرة، فقد غدت الحجاج بكاملها تدين بالإسلام، وحدثت القبائل الأخرى حذو ثقيف فأرسلت وفوداً للمدينة لتعلن إسلامها. وكان وفد تميم من جملة تلك الوفود التي قدمت المدينة، فقد قدم عطارد بن حاجب بن زرارة عدس التميمي في اشرافبني تميم. فأسلموا وجوزهم الرسول فأحسن جوائزهم^(٢). وقدم على رسول الله وفد فيبني عامر، فيهم عامر بن الطفيلي ولكنه لم يسلم، وحاول الغدر بالرسول^(٣). وبعث سعد بن بكر إلى رسول الله ضمام بن ثعلبة فأسلم هو وقومه^(٤). وقدم وفد عبد القيس برئاسة الجارود بن عمرو بن حنش فرجع إلى قومه وأسلموا جميعاً^(٥).

وقدم وفدبني حنيفة ومعهم مسليمة بن حبيب الحنفي (مسليمة الكذاب) الذي أسلم ثم ارتد بعد عودته إلى اليهودية^(٦). وقدم وفد طيء برئاسة زيد الخيل سيدهم فأسلموا وحسن إسلامهم^(٧). وقدم فروة بن مسيل العradi على رسول الله، مفارقاً

(١) السيرة ، ٤٠٥/٤

(٢) المصدر السابق والجزء ص ٢٠٦-٢١٢ .

(٣) المصدر السابق والجزء ص ٢١٤

(٤) المصدر السابق والجزء ص ٢١٩-٢٢١

(٥) المصدر السابق والجزء ص ٢٢١-٢٢٢

(٦) المصدر السابق والجزء ص ٢٢٢-٢٢٣

(٧) المصدر السابق والجزء ص ٢٤٢

لملوك كندة ومباعداً لهم، فأسلم هو وقومه^(١). وقدم عمرو بن معد يكرب في ناس فيبني زيد فأسلموا.

فلما توفي رسول الله ﷺ ارتد وقال شعراً في ذلك^(٢). وقدم الأشعث بن قيس في وفدي كندة، ووفد بني الأزد، برئاسة صرد بن عبد الله الأزدي. كما أرسل اليه ملوك حمير رسولاً يحمل كتاباً إلى رسول الله يعلمه بإسلامهم. فقبل إسلامهم وأرسل إليهم كتاباً يعلمهم فرائض الإسلام^(٣).

وأرسل الرسول إلى أهل اليمن. معاذ بن جبل بعد أن أوصاه وعهد إليه ثم قال له (بسر ولا تعسر. وبشر ولا تفر، وأنك ستقدم على قوم في أهل الكتاب يستلونك ما مفتح الجنة، فقل شهادة لا إله إلا الله وحده لا شريك له)^(٤).

وأرسل فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي إلى الرسول بإسلامه وأهدي له بغلة بيضاء. وكان فروة عاماً للروم على من يليهم في العرب. وكان منزله معاً وما حولها في أرض الشام. فلما بلغ الروم ذلك في إسلامه طلبوه حتى أخذوه، فحبسوه عندهم. ثم ضربوا عنقه^(٥).

وهناك قبائل تلكلات في إعلان إسلامها، ولم ترسل وفداً للرسول لبيعته فأصبحت عرضة لغزو المسلمين حتى تقر بالإسلام وتعرف برسالة محمد. كما كان الحال في بني الحارث بن كعب بنجران. فأرسل إليهم خالد بن الوليد وأمره أن يدعوهم للإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثة، فإن استجابوا يقبل منهم وإن لم يفعلوا يقاتلهم. فأنذرهم خالد فأسلموا ودخلوا فيما دعوا إليه.

وكتب خالد إلى الرسول يسأله في رأيه في البقاء بينهم أو الرجوع إلى المدينة. فأجابه الرسول (فأقبل وليقبل معك وفندعم)^(٦) ووصل وفندعم المدينة وأجرى حديثاً

(١) المصدر السابق والجزء من ٢٢٩-٢٢٨

(٢) المصدر السابق والجزء من ٢٣١-٢٣٠

(٣) المصدر السابق والجزء من ٢٣٥

(٤) المصدر السابق والجزء من ٢٣٧

(٥) المصدر السابق والجزء من ٢٣٨-٢٣٧

(٦) المصدر السابق والجزء من ٢٤٠

مع الرسول. ثم رجعوا إلى قومهم مع عمرو بن حزم، ليقفهم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقائهم. وكتب إليه كتاباً عهداً إليه فيه عهده^(١). وتعد سرية خالد بن الوليد إلىبني الحارث بن كعب تحولاً جديداً في تاريخ القتال في الإسلام. إذ أنها كانت بعكس سابقتها لا للدفاع عن الإسلام ضد من يهدده. ولكن للهجوم على من تلّاكاً في اعتقاده، وإظهار الخصوص لنبيه^(٢).

ورغم كثرة الوفود التي جاءت إلى الرسول والتي قدمت الطاعة وأعلنت إسلامها فقد ظل في الجزيرة فريق يحرص على الاحتفاظ بدینه، ولا يرغب في تسليم أمره للدين الجديد. وقد عقد الرسول سلسلة من المعاهدات مع هذه القبائل والمدن التي رغبت في الاحتفاظ بدینها. ورغم أن هذا الفريق لم يكن في الكثرة بحيث يحسب له حساب، فإن سورة التوبه التي نزلت قبيل موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة، أمهلت هؤلاء أربعة أشهر، فإن لم يسلموا فسيحاربون والله رسوله براءة منهم. قال تعالى ﴿بِرَأْيِهِ مِنْ أَئُلُّهُ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَنْهُمْ مِنَ الظَّرِفِينَ ۚ﴾ وَإِذَا نَبَّأَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحِجَّةِ الْأَكْثَرُ أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ مِنَ الظَّرِيفِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ شَاءُتْ فَهُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَإِنْ تَوَيَّبُوكُمْ تَأْغِلُوكُمْ عَذَابٌ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَشَرِّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُعَذَّبُونَ إِلَيْهِمْ إِلَّا الَّذِينَ عَنْهُمْ مِنَ الظَّرِيفِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْتُصِرُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يَطْلُبُوكُمْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَإِنَّهُمْ إِلَيْهِمْ عَنَّهُمْ إِلَى مُذَمِّنِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّبِعِينَ فَإِذَا أَنْتُخَلَّ أَنْتَخَلَ الظَّرِيفُ الظَّرِيفُ كَافَلُوا الظَّرِيفِينَ حَيْثُ وَجَدُوهُمْ وَسَدُّوهُمْ وَأَخْرُوْهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصُدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقْامُوا الصَّلَاةَ وَمَا لَوْا الْأَرْكَزَةَ فَلْتُحُلُّوْهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه: ٥-١].

ونقضت هذه السورة ما بين الرسول والمرشِفين في العهد الذي كانوا عليه فيما بينهم وبين الرسول الذي جاء فيه (أن لا يصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام) وكان ذلك عهداً عاماً بين الرسول وبين الناس في أهل الشرك.

(١) المصدر السابق والجزء من ٤٤٣-٤٤١

(٢) عاقل ، نبي ، ضوء جديد على موضوع عام الوفود وكتب الرسول الى الملوك والامراء ، مجلة كلية التربية ، جامعة البصرة ، السنة الثالثة ، ٦ (البصرة ، ١٩٨١) ص ١٩-٢٠ .

وكانت في بين ذلك عهداً بين الرسول وبين القبائل من العرب إلى آجال مسمى. فنزلت السورة السابقة في ذلك وفيمن تخلف من المنافقين في تبوك وفي قول من قال منهم^(١).

ولما حل موسم الحج بعث الرسول ﷺ أبا بكر أميراً على الحج، ليقيم للMuslimين حجهم والناس في أهل الشرك على منازلهم في حج. وأمره أن يخالف المشركين في أداء مناسك الحج فيقف في اليوم التاسع في ذي الحجة بعرفة ولا يقف بالمزدلفة. ولا ينصرف في عرفة، في ذلك اليوم إلى المزدلفة إلا بعد غروب الشمس ويبيت بالمزدلفة ليلة، ثم يفيض منها قبل شروق الشمس، يوم النحر إلى مني^(٢).

ثم اختار الرسول علي بن أبي طالب ليقرأ عليهم سورة التوبة التي نقضت ما بينه وبين المشركين من عهد، إلا ما عقد لأجل معين فإنه يبقى إلى أجله.

فخرج علي بن أبي طالب إلى مكة، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب (فاذن في الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ) فقال: أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحتج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عرياناً، ومن كان له عند رسول الله عهداً فهو له إلى منته^(٣). وأجل الناس أربعة أشهر في يوم أذن لهم، ليرجع كل قوم إلى مأتمتهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهداً إلى مدة فهو له إلى منته فقالوا : (نحن نبراً من عهدهك وعهد ابن عمك إلا في الطعن والضرب)^(٤) فرجع المشركون فلام بعضهم بعضاً.

فكان ذلك العام آخر عام تقام فيه طقوس غير إسلامية في الحج، وذلك تنفيذاً لقوله تعالى: «بِئْلَهَا الظُّرُكَ، أَمَّا الشَّرِكُوكَ بَعْشَ مَلَكَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ»

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤/١٨٨.

(٢) الواقدي ، مغازي ، ٣/٦٧٠.

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤/٩٠-١٩١ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ٣/١٢٣ ، الأزرقى ، أخبار مكة ، ١/٦٨١.

(٤) ابن القيم ، زاد المعاد ، ٣/٢٥.

بَمَّا عَلِمْتُمْ هَذَا» [التوبه: ٢٨]. وقد حث هذا الإنذار من بقى من العرب على الشرك، أن يسلموا فتتابعت الوفود بعد هذا العام، لمبايعة الرسول على الطاعة والولاء.

٢- كتب الرسول إلى الملوك والأمراء :

بعد أن تخلص الرسول في يهود المدينة، وعقد هذه الحديبية مع قريش، فرر أن يوجه نظره إلى خارج العجاجز لنشر الدين الإسلامي، ولذا فقد بدأ منذ السنة السادسة للهجرة بإرسال رسائله إلى القبائل العربية وأمرائها، والى ملوك وحكام الدول المعاصرة. وتعد هذه السياسة نقطة تحول في تاريخ العرب، فبعد أن كانت بلاد العرب مفككة تحول العرى ويحكم الأجنبي بعض أطراها، بدأ العرب بنشر الدعوة الإسلامية إلى مختلف الأقطار والأماكن.

إن الاستراتيجية غير المباشرة التي استخدمها الرسول في هذه المرحلة، طريق حتمي وموقف مبدئي حدده وقررته الشريعة الإسلامية، قال تعالى : «أَدْعُ إِنَّ سَيِّلَ رَيْكَ بِالْحَكْمَةِ وَالْوَاعِظَةِ لِلْمُسْتَأْنِدِينَ وَهَدِيلَهُمْ إِلَيْنِي هُنَّ أَخْسَرُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَمَّيْنِ» [التحل: ١٢٥]. وقال أيضاً «لَا إِكْرَاهَ فِي الَّذِينَ قَدْ شَيَّبْنَ الرُّشْدَ مِنَ النِّفَّ» [البقرة: ٢٥٦].

ظهر الإسلام بين العرب وهو في حالة نضج قومي، يؤهلهم لتحمل المسؤولية وكان اختيار العرب لتحمل مسؤوليته بسبب مزايا وفضائل خاصة بهم، وكانوا أهلاً لتحمل مثل هذه الرسالة الإنسانية^(١). وقد شعر الرسول ﷺ بضرورة قوة العرب لتحقيق رسالة الإسلام. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا. قال تعالى : «وَلَئِنْ كُنْتُمْ أَمْمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْقَبْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمُرْفُوِيِّ» [آل عمران: ٤٠]. وقال أيضاً «وَكَذَلِكَ جَنَّتُكُمْ أَمَّةٌ وَسَطَا لِتُكَوِّرُو شَهَادَةَ عَلَى الْأَنْوَافِ وَيَكُونُ أَرْسُلُ عَبْيَكُمْ شَهِيدًا» [السورة: ١٤٣]. والأمة الوسطى هي الأمة العربية التي كانت في مرحلة النضج العضاري وقد وردت آيات قرآنية كثيرة توضح العلاقة الوثيقة بين العروبة والإسلام. قال تعالى : «فَإِنَّمَا عَرَبَّا عَبْرَ ذِي عِنْجَ» [الزمر: ١٢٨]. «وَكَذَلِكَ أَزْيَّنَا إِلَيْكَ فَرِعَانًا عَرَبَّا» [الشورى: ٧]

(١) عقلق، ميشيل، في سبيل البعث ص ١٢٧ .

﴿كَاتَبَ اللَّهُ يُلْمِدُكُ إِلَيْهِ أَنْجَبَتِي وَهَذَا إِسَانُ عَرَفَتُ ثَبِيثَ ﴾[النحل: ١٠٣]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ تَقْنُولُتَ ﴾[يوسف: ٢]. وأيات كثيرة^(١). سعى الرسول إلى التركيز على العلاقة المتبينة بين العربية والإسلام، فعمل على احتواء الأمة العربية عقائدياً وليس عنصرياً. وقد أقرت وثيقة المدينة على ذلك إذ جاء فيها «هذا كتاب من محمد بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويشرب ومنتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس». وهذا يعني أن الأمة الواحدة هي المسلمين فقط وليس كل العرب. والأمة هنا كيان قومي يقوم على العقيدة. وليس من الأمة من لم يعتقد هذه العقيدة، ولأجل أن يتحقق الرسول ذلك أرسل رسائل إلى الأمراء العرب، كما وأرسل مثلها إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة.

لقد أظهرت رسائل الرسول إلى الملوك والأمراء أهمية المسؤولية الملقاة على كاهل العرب، وقدرتهم على تحمل أعباء الرسالة الإسلامية وتبلیغها إلى العالم كله. ووضحت هذه الرسائل السبيل الذي تسلكه الأمة العربية في بناء الدولة الكبرى، التي ضمت العراق والشام ومصر، وبلاد المغرب والأندلس، وجنوب فرنسا والمشرق حتى حدود الصين.

كانت كتب الرسول إلى الملوك والحكام مختومة بخاتم من فضة، نقش ثلاثة كلمات : محمد رسول الله. وقد حمل هؤلاء الرسل الكتب المختومة بخاتم الرسول إلى الملوك وعادوا بأجوبته عليها، بعضها فيه قبول للدعوة الإسلامية. وبعضها فيه رفض لها.

وتقسم كتب الرسول إلى قسمين، كتب أرسلت إلى الأمراء العرب. وكتب أرسلت إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة.

١- كتب الرسول إلى الأمراء العرب :

كان في جملة الأمراء العرب الذين تلقوا رسائل من الرسول يدعوهם فيها إلى الإسلام المنذر بن ساوي، فقد كتب إليه الرسول كتاباً مع العلاء بن الحضرمي.

(١) الرعد، آية ٢٧، فصلت، آية ٣، الأحقاف، آية ١٢، الزخرف، آية ٤٤ .

فكتب المنذر إلى الرسول بتصديق الرسول وإسلامه وإسلام بعض أصحابه، وبقاء آخرين على المجوسية واليهودية فأجابه الرسول من قام على يهوبيته أو مجوسيته فعليه الجزية^(١).

وكان عمرو بن العاص رسول الرسول إلى جifer وعياذ أبني الجلندي سيدا قبائل الأزد في عمان، يدعوهما للإسلام إذ كتب الرسول إليهما : (.. فلاني رسول الله إلى الناس كافة. لأنذر من كان حياً. ويحق القول على الكافرين. وأنكما إن أقررتם بالاسلام ولتكماء وإن أبيتما أن تقرأوا بالاسلام فإن ملككم زائل عنكم. فأجابا إلى الإسلام وصدقوا النبي)^(٢).

وكتب الرسول إلى أهل اليمن كتاباً، يوضح لهم فيه شرائع الإسلام وفرائض الصدقة في الموارث والأموال، ويوصيهم خيراً بمعاذ بن جبل، ومالك بن مرارة اللذان أمرهما بجمع الصدقات والجزية^(٣).

وبعث الرسول سليمان بن عمر العاص، إلى هودة بن علي الحنفي، وإلى ثامة أميري اليمامة، يدعوهما للإسلام فلم يجيئا دعوته^(٤). ثم بعث الرسول شجاع بن وهب إلى جبلة بن الأيم الغساني صاحب دمشق وكتب إليه : (سلام على من اتبع الهدى وأمن به، إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك^(٥). فلما أتاه الكتاب قال : (من ينزع مني ملكي أنا سائر إليه، ...) ولم يسلم. وكتب إلى قيسار الروم يستأذنه في الذهاب لقتال الرسول فنهاه عن ذلك^(٦).

وأرسل الرسول الحارث بن عمرو الأزدي، إلى صاحب بصرى، فاعتربه

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ١ / ٢٦٣ (لايدن) ، ١٣٢٢هـ .

(٢) المصدر السابق والجزء ، ص ٢٦٣-٢٦٢ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤ / ٢٣٥-٢٣٧ .

(٤) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤ / ٢٥٤ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٩٧ .

(٥) الطبرى ، تاريخ ، ٢ / ٦٢٥ ، وقد وهم الطبرى عندما قال أن الرسول أرسل الرسالة إلى المنذر بن الحارث ، لأن الأخير حكم ما بين ٥٨٢-٥٦٩م ، أي أنه توفى والرسول ما يزال صياماً .

(٦) ابن سعد ، المصدر السابق ، ١ / ٢٦١ .

شرحبيل بن عمرو الفهاني في موتة، في قرى البلقاء وأمر بضرب عنقه صبراً^(١). وهناك فتنة من الأمراء العرب سمعت بالدين الجديد، وبلغتها أخبار الرسول ومعلومات عن الإسلام، فأسلمت وكتب إلى الرسول بإسلامها. ومن بين هذه الفتنة فروبة بن عمرو الجذامي، عامل الروم على معان في أرض البلقاء فقد أسلم، وأرسل هدايا للرسول، كان من بينها فرس وبنطلة بيضاء وحمار وقباء سندي فمحوس بالذهب. فلما بلغ الروم إسلامه طلبوا منه الارتداد عن الإسلام لكنه رفض، فحبسوه ثم قتلوا وصلبوه في فلسطين^(٢).

٢- كتب الرسول إلى الملوك وأمراء الدول المجاورة :

وكتب الرسول رسائل إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة، عارضاً عليهم الإسلام، ولم يطلب منهم الخضوع له. وكان أول رسول بعثه رسول الله عمرو بن أمية الفصري إلى النجاشي وكتب معه كتاباً جاء فيه من جملة ما جاء : (.. وإنني أدعوك تتبعني وتؤمن بالذي جاعني ، فإنني رسول الله أدعوك وجندك إلى الله ..)^(٣) فكتب النجاشي إلى رسول الله جواباً دبلوماسياً، دلل على قدرة النجاشي في كسب الأصدقاء.

وبعث رسول الله كتاباً إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي فيه (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى .. سلام على من اتبع الهدى، وأمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأنني رسول الله إلى الناس كافة، ليتنز من كان حياً، أسلم تسلّم ، فإن أتيت فعليك إنتم الم Gors)^(٤). وقد عبر كسرى عن حقده الدفين على العرب والدين الإسلامي، حين مزق كتاب الرسول ولما بلغ رسول الله ذلك قال (مزق الله ملكه)^(٥).

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ٤٠٦/١ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٣٨-٢٣٧/٤ .

(٣) الطبرى ، المصدر السابق ، ٦٥٢/٢ .

(٤) المصدر السابق والجزء من ٦٥٤ ، ابن سعد ، الطبقات ، ١/٢٦٠ ، اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ٦٦/٢ ، (نجد ، ١٩٦٤).

وأرسل الرسول حاطب بن أبي بلترة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فأدلى إليه كتاب رسول الله، الذي كتب فيه الرسول في جملة ما كتب : .. أما بعد فإني أدعوك بدعابة الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم المجروس. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشرك به شيئاً ..) فأحسن المقوقس استقبال رسول النبي وأجابه : (قد علمت أن نبياً قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج في الشام. وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجارتين لهما مكان في القبط الأعظم. وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها)^(١) فقبل الرسول هديته.

وكتب الرسول في الرسالة التي بعثها مع دحية بن خليفة الكلبي، إلى هرقل : (... من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد. أسلم تسلم. وأسلم يؤتيك الله أجرك مرتين، وإن تولى فإن إثم الأكارين عليك)^(٢) و(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضاً بعض أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا نشهد بأننا مسلمون)^(٣) فأحسن هرقل استقبال دحية وكساه وأرسل معه هدايا للرسول. ولعل الظروف المحيطة بهرقل هي التي دفعته إلى أن يحسن استقبال دحية وذلك لأن دولته خرجت متيبة جداً من حربها ضد الفرس، فهو لا يريد الدخول في حرب مع عدو جديد. وبذل يكون قد تصرف هذا التصرف الحسن نتيجة لبراعث سياسية، والدليل على ذلك أنه جمع الجيوش الجرارة لحرب العرب في الشام وفلسطين ومصر، وغضب على المقوقس واستدعاء إلى القسطنطينية حين علم أنه دخل في صلح مع العرب. ثم نفاه. وأرسل إلى قواه الروم بمصر يوبخهم ويعتزم عليهممواصلة قتال العرب. وظل كذلك إلى أن مات والعرب يحاصرون حصن بابلدون سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م^(٤).

(١) ابن سعد ، المصدر السابق ، ١ / ٢٦٠ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ٢ / ٦٥٤ .

(٢) ابن سعد ، المصدر السابق ، ١ / ٦٠ .

(٣) الطبرى ، المصدر السابق ، ٢ / ٦٤٩ ، اليعقوبى ، المصدر السابق ، ٢ / ٦٧ .

(٤) ابن القيم الجوزية ، زاد المعاد / ٣ / ٦٠ .

ويعرض الدكتور نبيه عاقل على التاريخ الذي أجمع عليه المصادر العربية، انطلاق رسول إلى الملوك والأمراء، وهو المحرم في السنة السابعة للهجرة لأنَّ (كان على الإسلام والمسلمين في هذا الوقت المبكر أن يقفوا في وجه الأخطار والتحديات التي تمثلها قريش، وغيرها من قبائل قريش ونجد التي لم تكن قد انضمت تحت لواء الإسلام).

إذا أضفنا إلى هذا أن مدن العجائز الكبرى نفسها، كمكة والطائف كانت ما زالت تناصب الرسول العداء ولم تخضع لسلطانه) ولذا فإنَّ (المنطق يفترض ألا يتطلع الرسول إلى نشر دينه خارج الجزيرة، وأن يفرضه على إمبراطوريات عظمى كبيزنطة وفارس، في حين أن أقرب مدن العجائز التي كانت لا تزال على الشراك وتسعى ب مختلف الوسائل والسبل، بما في ذلك الحرب عليه وعلى دينه)^(١).

والرأي عندي أن اعتراض الدكتور نبيه عاقل، يحتاج إلى إعادة نظر لأن جميع المصادر العربية تؤكد على أن المحرم في السنة السابعة للهجرة، هو تاريخ انطلاق رسول إلى الملوك والأمراء وأن ذلك حصل بعد هدنة الحديبية، التي أعطت للمسلمين فرصة للدعوة إلى الإسلام والتعرif به.

وينكر بعض المستشرقين^(٢) وجود مثل هذه الرسائل، وحجتهم في ذلك أن هذه الرسائل لا توجد في سجلات هؤلاء الملوك والرؤساء، وإن الإسلام في رأيهما دين يخص الجزيرة العربية. وخير الوفادات يخرج به عن نطاقه. وكان الرسول ﷺ في حالة ضعف سياسي وعسكري، لا يمكنه من تحدي قوة العالم بالرسائل والوفادات. يضاف إلى ذلك عدم وجود قصة الرسائل في مغازي الرسول مؤلفه ابن اسحق. وإن أخبار الوفادات تحوي تفاصيل وصفت بأنها أسطورية مما يدعو

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها (القاهرة ، ١٩١٤) ص ٦٤-٦٥

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤-٢٥ .

(٣) Margoliouth , Muhammad and the rise of Islam . (London , 1932) p.368 .

وات مونتموري ، محمد في المدينة ص ٥٢٠-٥٢١

Muir , the life of Mohammad (Edinburgh 1923) p.43-44 the Caliphate (Edinburgh 1925) pp. 43-44.

إلى رفض الأخبار برمتها. وأخيراً فإن بعض الرسائل تشمل على آية فرائية نزلت بعد الرسائل بستين^(١). والرأي عندي أن عدم مبالغة حكام فارس وبيزنطة بالعرب، واستصحابهم لهم كان من العوامل التي أدت إلى عدم اهتمام مؤرخيهم بتدوين هذه المراسلات.

إذ لم يكن العرب في نظرهم إلا قبائل ضعيفة تابعة، كل ما تتمكن أن تفعله هو غزو بعضها بعضاً وغزو حدود الروم والفرس، ولهذا لم تحفل بهم إلا في هذه الناحية ولم يتحدث مؤرخوهم عن العرب، إلا في المناسبات المتصلة بأمثال هذه الشؤون.

وقد تكون يد التدمير أتت عليها في الاضطرابات الكثيرة، التي نزلت بهذه الدول بعد إرسال هذه الرسائل. وليس من المعقول أن يتواتي الرسول في إرسال رسائل يدعو فيها للإسلام، وقد أتيحت له الفرصة بعد هدنة الحديبية مع قريش، لأن الدين الإسلامي ديننا للناس جميعاً، ولا بد أن يكون الرسول قد خطأ في هذا السبيل ما استطاعه من خطوات.

وأما من ناحية التوثيق التاريخي، فإن ابن هشام قد أورد خبر الرسائل بروايتين، الأولى بسنده عن أبي بكر الهنلي، والثانية لابن إسحاق بسنده عن يزيد بن أبي حبيب المصري^(٢).

وقد ثقت الرسائل من مصادر نصرانية أيضاً. فقد ذكر المؤرخ البيزنطي ثيوفانس أن الرسول ﷺ أرسل سفيراً إلى هرقل، حاملاً رسالة يدعوه فيها للإسلام لكنه لم يذكر نص الرسالة^(٣). وأورد أبو صالح الأرمني في كتابه كنائس مصر وأديرتها^(٤). والذي كتبه في القرن السادس الهجري/ التاسع الميلادي، خبر كتابة الرسول إلى الموقوس.

أما ما يقوله المستشرقون بأن أخبار الوفادات تحوي تفاصيل، وصفت بأنها

(١) إبراهيم ، عز الدين ، الدراسات المتعلقة برسائل النبي ﷺ ، مجلة المؤرخ العربي ، انعدد الثالث والعشرون (الرياض ١٩٨٣) ص ٢٤٥ .

(٢) ٤/٢٥٤-٢٥٥ ، وانظر ابن القيم الجوزية ، نفس المصدر ، ٦٠/٣ .

Theophanes , Chronographia , (Born , 1939) pp. 277-278

(٣)

(٤) تحقيق أيفات من ١٠٠ .

أسطورية كدعوتهم كيف أن الرسل أصبحوا بين عشبة وضحاها يعرفون لغات من أرسلوا إليهم عن غير سبق تعلم؟ الجواب أنه لم يكن وجود من يحسن الفارسية والحبشية، ولغة الأقباط غريباً لكنه اختلاط العرب بهذه الأمم.

أما كون بعض رسائل الرسول تشتمل على آية قرآنية نزلت بعد الرسائل بستين. فملخصة أن ثلاثة من هذه الرسائل، وهي رسالته إلى هرقل والمقوص والنجاشي قد تضمنت آية كريمة، ذكروا أنها نزلت في السنة ٩ هـ من وفـ نصارى نجران. وبهذا يحصل التناقض، لأن الرسائل أرسلت في نهاية سنة ٦ هـ أو بداية سنة ٧ هـ. والأية التي يشيرون إليها هي الآية رقم ٦٤ من سورة آل عمران وهي قوله تعالى :

﴿قُلْ يَكَاهِلُ الْكِتَابَ تَعَالَى إِنْ حَكَمَتْ سَوْلَمَ بِبَيْتِنَا وَبَيْتِكُمْ أَلَا تَقْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشَرِّكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ أَنْفُسِهِ فَإِنْ تَوَلُّوْ فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران]^(١) وقد رجع المشككون إلى تفسير الطبرى وتفسير ابن كثير.

لكن هذه الآية لم يتفق المفسرون على أنها نزلت في وفـ نجران، السنة التاسعة من الهجرة لأن الطبرى الذى اعتمد عليه أصحاب هذا الرأى قد ذكر ثلاثة احتمالات في أسباب التزول، أولهما أنها نزلت في اليهود. وثانيهما أنها نزلت في نصارى نجران، والثالث وهو الراجح أنها نزلت في اليهود والنصارى جمـعاً^(٢). (وعليه فالقول بأن الآية قد نزلت في السنة التاسعة ضعيف، والراجح أنها قد نزلت قبل ذلك، مما ينفي التناقض المزعوم مع تاريخ الإيقاد)^(٣). وأما استبعاد أصحاب الشبهة القول بتعدد نزول هذه الآية مرة في السنة التاسعة ومرة قبل التاسعة، وهو ما احتمله بعض العلماء ووصفهم ذلك بأنه من تخيلات علماء المسلمين فهذا يعني عدم تفهمه لمعنى تعدد التزول، لأن الشيء قد ينزل مرتين تعظيماً ل شأنه وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه^(٤) أي أن الآية تنزل في مناسبتها الأولى ثم تجد مناسبة ثانية فتنزل بمعنى إعادة تطبيقها، على الطرف الجديد للحكمة.

(١) ابن القيم الجوزية ، زاد المعاد ، ٦٠/٣ - ٦١ .

(٢) الطبرى ، تفسير ، ٦ / ٤٨٣ - ٤٨٥ .

(٣) لـ إبراهيم - عز الدين ، المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

ولا تذكر المصادر شيئاً عما أكملت إليه أصول رسائل النبي صن التي أرسلها إلى الملوك والأمراء، إلا ما كان من إشارة السهيلي إلى انتقال الرسالة التي أرسلها الرسول ﷺ إلى هرقل، وإلى بعض ملوك إسبانيا وقد تابع هذه الإشارة عبد الحفي الكتاني^(١).

وبعد استعراض الدراسات المتعلقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء وقادة الشعوب والجماعات، في زمانه يمكن أن تستخلص الأمور الآتية :

١- إن موضوع الرسائل قد وثق في المصادر توثيقاً يجعله من المسلمات التاريخية التي لا يرضى إليها الشك، مع ذلك فهو يحتاج إلى إعادة كتابة : لتجميع أطراقه، وإضافة ماجد من أبحاث إليه والترجح بين النصوص الواردة فيه، والتدقير في التفاصيل الجزئية لأخبار الوفادات.

٢- إن حملات التفكيك التي بدأها المستشرقون، لا ثبت للمناقشة وربما كانت لغرض نفي صفة عالمية للإسلام وهي صفة واسعة لا يمكن انكارها.

٣- إن الرسائل التي اكتشفت ابتداء من سنة ١٨٥٠ م قد أضافت إلى الموضوع بعدها جديداً وساعدت على المزيد من توثيقه.

٤- معارك نشر الدعوة خارج جزيرة العرب

١- غزوة مؤتة ٨ هـ / ٦٢٩ م :

شرف الله العرب بتحمل مسؤولية نشر الإسلام، وتبلیغه إلى البشرية جموعاً. وقد رسم الرسول الاستراتيجية الكفيلة بتحقيق ذلك. فكان قراره بغزو مؤتة تأكيداً على تنفيذ هذه المسؤولية. ولهذا القرار أهميته العظمى لأن العرب سيحاربون ليس

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(٢) السهيلي ، الروض الأنف ، ١٩٧/٣ ، عبد الحفي الكتاني ، التراتيب الادارية ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٣) إبراهيم ، عز الدين ، المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

فقط القبائل العربية في الشام فحسب، بل سيحاربون جيشاً لأكبر امبراطورية في العالم، الامبراطورية البيزنطية، ويعني هذا القرار أن بإمكان العرب اختراق الخطوط الدفاعية الامامية للبيزنطيين، وبهذا فإن الأمة العربية انتقلت في مرحلة الدفاع عن نفسها إلى مرحلة الهجوم، على أية قوة تحول بينها وبين نشر راية الإسلام في العالم.

كان الرسول قد بعث الحارثة بن عمير الأزدي، حاملاً منه رسالة إلى ملك بصرى، فلما نزل بصرى عرض له جبلة بن الأبيهم فأمر به فأوْتَ رياطاً، ثم قدمه فضرب عنقه صبراً.

بلغ الرسول الخبر. فاشتد عليه وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارثة، فأسرع الناس وخرجوا فمسكروا بالجرف ولم يبين الرسول الأمر^(١). وعيّن الرسول زيد بن حارث أميراً على الناس، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن أبي رواحة، فإن أصيب فليرتضي المسلمين بينهم رجالاً فليجعلوه عليهم. وكان المسلمين ثلاثة آلاف. وشيعهم الرسول إلى ثنية الوداع وأوصاهم قائلاً لهم: (اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوا الله وعدوك بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع مع معتزلين للناس، فلا تعرضا لهم. وستجدون آخرين للشياطين في رؤوسهم حفاحص فاقلعوها بالسيوف. ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مريضاً، ولا كبيراً ولا تحرقن نخلاً ولا تقطعن شجراً ولا تهدموا بيئاً^(٢)). وخطب زيد بن حارثة قائلاً: (...إذا لقيت عدوك في المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث، فايتهم ما أجبوك إليها فاقبل منهم وأكف عنهم، أدعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فأقبل منهم وأكف عنهم .. فإن أبو فدعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم وأكف عنهم، فإن أبو فاستعن بالله وقاتلهم ...)^(٣)

ومضى المسلمين عن المدينة حتى نزلوا معان في أرض بلقاء، فسمع العدو

(١) الواقدي، مغازي ، ٧٥٦-٧٥٥ / ٢ ، والجرف موضع على نحو ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ، انظر معجم البلدان ٢ / ٨٧ .

(٢) الواقدي ، المصدر نفسه ، ٧٥٨ / ٢ .

بعسيرهم فجمع لهم جيشاً كبيراً، وأنظم إليهم في لخم وجذام والقيني وبهراء وبلى ووائل وبكر. وعليهم رجل في بلى يقال له مالك بن رافلة. فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم. وقالوا نكتب إلى رسول الله فنخبره بالخبر فلما بردنا وإما يزيدنا رجالاً لكن بن أبي رواحة شجعهم قائلاً : (...ما كن نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة خيول، ألا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به انطلقوا)^(١) فانطلق المسلمون وقاتلوا، فاستشهد ابن حارثة، فأخذ اللواء جعفر ثم قاتل حتى استشهد، ثم خلفه ابن رواحة في القيادة فاستشهد أيضاً. ثم ولى المسلمين عليهم خالد بن الوليد^(٢).

بذل خالد بن الوليد جهداً لخداع العدو عسكرياً، لإضعافه والإجهاز عليه ومن ثم اهزمه، فقد جعل مقدمته ساقته مقدمته وميمنته ميسرتها، وميسرتها ميمنته. فأنكر البيزنطيون ما كانوا يعرفون في رايات المسلمين وهياكلهم، وقالوا قد جاءهم مدد فربعوا فاكتشفوا منهزمين فقتل المسلمين منهم مقتلة لم يقتلها قوم قبلهم^(٣). وهكذا تمكن خالد بمهاراته العسكرية في الانسحاب بال المسلمين إلى المدينة. ولم يؤثر هذا الانسحاب على عزيمة المسلمين ومعنويتهم، أو على إيمانهم بالإسلام لأن مجابتهم لإحدى أعظم قوتي في العالم يعتبر نصراً لا شك فيه.

وكانت هذه الغزوة بداية لدخول الإسلام في الشام، ولها آثارها النفسية على عرب الشام الذين رأوا إخوانهم عرب الحجاز والجزيرة يحاربون إحدى أكبر القوتين في العالم، رغم قلة عددهم بفضل إيمانهم بالإسلام، فانتشر الإسلام بين هذه القبائل المقيمة في الشام، وتخوم العراق بعد هذه الغزوة. وجاء قرار الرسول بفتح مكة تأكيداً على قدرة المسلمين على تحقيق النصر، ودليلاً على أن المسلمين لم يصبهم الوهن بعد الذي أصابهم في موتة. فلما تم للرسول فتح مكة في السنة ٨ هـ/

(١) المصدر السابق والجزء من ٧٥٧-٧٥٨ .

(٢) المصدر السابق والجزء من ٧٦٠ ، وانظر ابن هشام ، المصدر السابق ٤/١٩ .

(٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤/١٩-٢١ ، الواقدي ، المصدر السابق ، ٢/٧٦١-٧٦٣ .

(٤) الواقدي ، المصدر السابق ، ٢/٧٦٤ .

٦٢٩ م عول على غزو بلاد الشام الجنوبية لينشر الإسلام هناك. فكانت غزوة تبوك.

- غزوة تبوك ٩ هـ / ٦٣٠ م :

تنفيذًا لسياسة الرسول في توجيه أنظار المسلمين إلى الشام قرر الرسول القيام بغزو للشام لدفع أي اعتداء يقوم به الروم على أطراف الجزيرة الشمالية. ذكرت الأنباء القادمة من الشام أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد روق جنده لسنة وانضممت معه لخم وجذام وغسان وعاملة، وزحفوا فقدموا مقدمتهم إلى البلقاء، وعسكروا بها واتخذ هرقل حمى مقراً له. فأوضح الرسول الأمر للMuslimين وبين لهم أنه ينوي غزو الروم. وطلب منهم التأهب، وبعث إلى القبائل والى مكة يستنفرهم إلى غزو الروم. فبعث إلى قبيلة أسلم وجهينة وأشجع وبني كعب وسلمي، وقبائل متعددة أخرى. وكان الرسول لا يغزو غزوة إلا ورث بغيرها، لثلا تذهب الأخبار بأنه يريد كذا وكذا، حتى كانت غزوة تبوك، إذ جلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أحبتهم، واحبوا بالوجه الذي يريد، وذلك بعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له^(١). وحث الرسول المسلمين على القتال والجهاد ورغبتهم فيه وأمرهم بالصدقة فحملوا صدقات كثيرة. ورغم أهل الغنى في الخير والمعروف، واحتسبوا في ذلك الخير، وقووا أناس في دون هؤلاء، من هو أضعف منهم، حتى كانت النساء يتبرعن بكل ما قدرن عليه. حدث ذلك والناس في عشرة شديدة. وشدة في الحر، وجدب في البلاد وحين طابت الشمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم، وظلالهم، ويكرهون الشخص على الحال في الزمان الذي هم عليه^(٢).

وقد استغل المنافقون هذا الأمر، فتخلعوا عن ركب المجاهدين وعملوا على تبيط هممهم وإضعاف عزيمتهم.

رغم الصعوبات التي واجهت تجهيز الحملة، تمكّن الرسول من جمع ثلاثة ألف مجاهد عسكر بهم بثنية الوداع، ومنها تحرك شمالاً إلى وادي القرى ثم فدك

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ١٥٩ / ٤ ، الواقدي ، المصدر السابق ، ٩٨٩ / ٣ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ١٠١ / ٣ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ١٥٩ / ٤ ، الواقدي ، المصدر السابق ، ٩٩١ / ٣ .

فالحجر فتيماء، ثم وصل تبوك وأقام بها عشرين ليلة^(١). ولم يلق كيداً وصالحه أهلها على الجزية. وأتاه وهو بها يحنه بن رؤبة صاحب أيله فصالحه على أن يدفع يحنه لل المسلمين عن كل حالم في السنة ديناراً، وشرط عليهم الضيافة لمن يمر بهم من المسلمين. وكتب لهم الرسول كتاباً بأن يحفظوا ويعنوا^(٢). وتعهد أهل جربا وأنزع بدفع الجزية لل المسلمين وكتب الرسول لكل منهم كتاباً. وصالح الرسول أهل مقنا أيضاً وكتب لهم كتاباً^(٣). وبعث الرسول خالد بن الوليد إلى أكبر بن عبد الملك الكندي بدومة الجندي، فأخذته أسريراً وقدم به للرسول، فأسلم أكبر على يد الرسول فكتب الرسول له ولأهل دومة كتاباً^(٤).

انصرف الرسول من تبوك عائداً إلى المدينة دون أن يتبع السير إلى حدود الشام. ولم يحصل صدام بين المجاهدين المسلمين وبين الروم. واكتفى الرسول بتوطيد نفوذ الإسلام في شمال الحجاز. وقد تمكن من ذلك بعد أن أقبلت عليه وفود المستوطنات النصرانية واليهودية، في المنطقة الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية للحجاز. واتفقوا مع الرسول على أن يؤدوا الجزية لل المسلمين. وبذلك يكون الرسول قد أخضع أهالي المنطقة لنفوذ الإسلام، وغدت بلاد الحجاز كلها خاضعة لدولة الإسلام.

٣- حملة أسامة بن زيد ١٠ هـ :

لما أدى الرسول حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، وعاد مع أصحابه إلى المدينة. اطمأن أن الإسلام أصبح في مأمن من ناحية جزيرة العرب، لكنه شعر أن الخطر لا زال محيقاً بالإسلام من ناحية الشام، حيث الروم مرابطون على حدوده الجنوبية ولذا فقد اهتم بهذا الأمر، فأمر المسلمين بالتهيؤ لمحاربة الروم. وأمرهم بالاسراع في غزوهم. ثم دعا أسامة بن زيد وقال له (سر على اسم الله وبركته

(١) ابن هشام ، المصدر السابق ، ١٦٢/٤ ، ١٦٨ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٢ .

(٢) الواقدي ، المصدر السابق ، ١٠١٥/٣ .

(٣) البلاذري ، فتح البلدان ، ص ٧١ ، الحيدر ابادي ، المصدر السابق من ٥٥-٥٤ .

(٤) الطبرى ، ١٦٨/٣ ، للتفصيل راجع الفصل المتىيل بعنوان علاقة الرسول بأهل النمة.

(٥) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ٧٢-٧١ .

وأسرع السير تسبق الخبر .. وخذ معي الأدلة، وقدم العيون أمامك والطلائع ..) وعقد الرسول بيده له اللواء. ثم أوصى الرسول أسامة قائلًا : (اغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغروا ولا تندرروا. ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ... ولا تنازعوا ولا نفلحوا فتذهب ريحكم ...) ^(١).

فتتجهز الناس وتجمع الأنصار والمهاجرين. ولم يبق أحد من المهاجرين إلا انتدب في تلك الغزوة، عمر بن الخطاب، أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص .. الخ. غير أن بعض المهاجرين ساءه تولية أسامة قيادة الحملة لحداثة سنّه ^(٢). فلما بلغ ذلك الرسول صعد المنبر وخطب المسلمين قائلًا : (أما بعد، أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميريأسامة بن زيد والله لن طعمتم في إمارتيأسامة لقد طعمتم في إمارتي أيام في قبله، وأيم الله إنه كان للإمارة خليقاً وإن ابنه من بعده لخلق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس اليه، وإن هذا لمن أحب الناس الي .. فاستوصوا به خيراً فإنه في خياركم) ^(٣).

حرص الرسول على تنفيذ حملة أسامة رغم مرضه. فعندما جاءه المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعونه، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال الرسول ﷺ لهم : (انفذوا بعث أسامة) فمضى الناس إلى المعسكر، خارج المدينة، فباتوا ليلة غير أنه لم يكدر يشرع في السير حتى جاءه خبر اشتداد مرض الرسول، فرجع إلى المدينة بصحبة عمر بن الخطاب وأبي عبيدة. وبعد فترة من وصولهم مات الرسول في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م ^(٤).

ولما بربع أبو بكر بالخلافة حرص على تنفيذ رغبة الرسول، رغم ما عرض من رغبة بتأجيل الحملة حتى يضرب الإسلام بجرانه، أي يقر قراره ويستقيم. لكن خطابهم قائلًا : (لو ظلت أن السابعة تأكلني بالمدينة لانفذت هذا البعث) ^(٥). فخرج أسامة في ربيع أول سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م على رأس الحملة التي أعدها الرسول

(١) الواقفي ، المصدر السابق ، ١١١٧/٣ .

(٢) المصدر السابق والجزء من ١١١٨ .

(٣) المصدر السابق والجزء من ١١١٩ .

(٤) المصدر السابق والجزء من ١١٢٠ .

وذهب معه الصحابة ما عدا عمر بن الخطاب فقد أبقاء أبو بكر بالمدينة، ويعث أبو بكر إلى الذين تكلموا في تأجيل حملة أسامة إلى ما بعد الردة وحثهم على الالتحاق (فلم يختلف عنبعث إنسان واحد) ^(١).

اهتم أبو بكر بحملة أسامة كثيراً، فقد خرج يشيع أسامة وال المسلمين الخارجين معه للجهاد. فلما ركب أسامة في أصحابه وهم ثلاثة آلاف مجاهد. وقف أبو بكر إلى جانب أسامة ثم قال : (استودع الله دينك وأمانتك، وخواتيم عملك، إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول صبيك فانفذ لأمر رسول الله ﷺ فلاني لست أمرك ولا أنهاك عنه وإنما أنا منفذ لأمر أمر به رسول الله) ^(٢).

سار أسامة قاصداً البلقاء فلما وصل ابني -موضع الشام في جهة البلقاء- شن غارة على أهلها وقضى على كل مقاومة فيها.

وقتل قاتل أبيه وغنم بعض الغنائم ثم عاد منتصراً إلى المدينة. ولما سمع المسلمون بقدومه مع المجاهدين خرج أبو بكر مع المهاجرين وخرج أهل المدينة مسروراً بسلامة المجاهدين المسلمين ^(٣).

أثارت حملة أسامة الرعب في قلوب الروم، فعندما بلغ هرقل أمر الحملة وما قام به أسامة، دعا بطارقته وقال لهم (هذا الذي حذرتم، فاييتم أن تقبلوه مني، قد صارت العرب تأتي مسيرة شهر تغير عليكم، ثم تخرج في ساعتها. قال أخوه سأقوم فأبقي رابطة تكون بالبلقاء) ^(٤) والرابطة في هذا النص تعني الحامية القوية. يضاف إلى ذلك فإن حملة أسامة أشرعت القبائل العربية المقيمة في أطراف الشام الجنوبيّة، على قوة المسلمين ومهدت الطريق لحركة تحرير الشام فيما بعد.

(١) المصدر السابق والجزء من ١١٢١ .

(٢) المصدر السابق والجزء من ١١٢٢ .

(٣) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٤) المصدر السابق والجزء من ١١٢٤-١١٢٥ .

(٥) المصدر السابق والجزء من ١١٢٤ .

الفصل الرابع

أثر الإسلام في حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأعداد الأمة العربية لأخذ دورها الحضاري الإنساني

اهتم الإسلام كثيراً بتنظيم العلاقات الاجتماعية، بين المسلمين وأهل النمة (أهل الكتاب). فقد حرم الربا لكي لا يفرق التكالب على المال كلمتهم ولا تضيع الرحمة والمرودة بين الناس، ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل. قال تعالى : ﴿أَلَّا يَأْكُلُنَّ أَرِبَّاً لَا يَقُولُونَ إِلَّا كَمَا يَعْمَلُ الَّذِي يَتَعَجَّلُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٧٥].^(١)

ونظم الإسلام المعاملات بين أفراد المجتمع الإسلامي كالبيع والشراء، واهتم كثيراً بالأسرة. فنظم الزواج والطلاق وأوجب للزوجة نفقة على زوجها. وللأب على ابنه وللابن على أبيه. وسمى عقد الزواج ميثاقاً. ووصفه بأنه علاقة رحمة ومودة. وأوجب للمرأة على زوجها المهر والنفقة، ونهى عن الزواج بالمشركات وعن الزواج بالمحارم من النساء.^(٢).

وأكمل الإسلام على المحافظة على أواصر القرابة وعدم العبث بها، بدلوافع الحسد والغيرة. وأوجب على المسلم التمسك بالصفات الحسنة، والفضائل العالية كالاستئذان قبل دخول بيوت الناس. قال تعالى : ﴿يَكِنْتُمْ أَلَّا مَأْتُمْ لَا تَدْخُلُوْ بُيُوتًا

(١) انظر كذلك آية ٢٧٨-٢٨٠.

(٢) النساء آية ٢٣.

عَذَرْ بِيُورُوكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْسِوا وَتَسْلِمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذِلِّكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ فَإِنْ لَزَمَ حِصْدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يَوْمَ تَرْكُوكُمْ لَكُمْ قِيلَ لَكُمْ أَتَيْجُومُ فَأَتَيْجُومُ هُوَ أَنَّكُمْ لَكُمْ ﴿النور: ٢٧-٢٨﴾]. وأوصى الإسلام برد التحية بمنتها أو بأحسن منها^(١).

وأكمل الإسلام على حفظ العهود والمواثيق والالتزام بها. قال تعالى: «وَأَوْفُوا بِمِهْدَ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَمَّ تَوْكِيدُمْ﴾ [النحل: ٩١]. وساوى بين قتيل المعاهدين للمسلمين مع قتيل المسلمين أنفسهم. قال تعالى: «فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَذْقَرْ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَفِيقَهُ مُؤْمِنَكُهُ﴾ [النساء: ٩٢].

وأمر الإسلام بحسن معاملة الزوجة ورعايتها. وجعل الطلاق بيد الرجل لأنه مسؤول عن تربية الأسرة ومعيشتها، ورباط الزوجية هو أساس هذا كله. ولذا فمن الخطأ أن يوضع في أيدي غير مسؤولة. ومع ذلك فقد وضع الإسلام للرجل قبولاً تحول بينه وبين العبث برباط الزوجية والتخلص منه لسبب غير معقول قال تعالى: «وَلَذَنْ أَرْدَتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجَ مَعَكَارَ زَوْجَ وَمَائِتَشَةَ إِلَخَدَنْهَنَ قِنْطَارَا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْ شَبَيْنَا أَتَأْخُذُونَهُ بِمَهْتَنَا وَلَيْشَمَا مُبَيْنَا ﴿٢﴾» [النساء: ٢٠].

جعل الله المؤمنين أخوة لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاوتون به من الحق. قال الرسول: (يا أيها الناس إنما المؤمنون أخوة، إن ربكم واحد، وإن أبيكم واحد، كلكم لأدم وآدم من تراب). إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقى)^(٢). وقال تعالى: «يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا كَلَّنْتُمْ بَنْ ذَكْرِ وَأَنْقَ وَجَعَلْتُمْ شُعُورَ وَقَبَلَ لِيَغَافِرُ إِنَّ أَكْثَرَتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَقْنَتُكُمْ ..﴾ [الحجرات: ١٣]

واعتلى الموالي في ظل الإسلام أسمى المراتب وتسلموا أعلى المناصب، فقد كان بلال الحبشي يؤذن على ظهر الكعبة. وكان زيد بن حارثة وابنه أسامة من جلة الصحابة. وقد أرسلهما الرسول على رأس غزوات وتحت إمرتهم كبار الصحابة. وقد فضل زيد بن حارثة مولاه الرسول على الالتحاق بأبيه وعمه، فلما سمع الرسول منه قال أشهد أن زيداً أبني، يرثني وأرثه. وكان زيد رابع أربعة دخلوا

(١) انظر النساء ، آية ٨٦

(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٠٠

الإسلام، (وهم خديجة، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر، وزيد). لم يُبع الإسلام للمسلم أن يسترق أخيه المسلم. ثم أنه لم يبع الاسترقة أسرى الحرب الشرعية التي لم تقم إلا لنشر الإسلام، بشرط أن تكون مسيوقة باعتداء غير المسلمين على المسلمين.

وقد عمل الإسلام على تعبيد الطريق للاحتمال الرق. إذ وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة جعلت فك الرقاب أولى العبادات، التي تقرب المسلم إلى الخالق ونظم الإسلام شؤون الرقيق، وأخذ بأيديهم في طريق الحرية، فسوى بين الرقيق وモلاه في المأكل والملبس والتعليم والتهدیب، وساواهم في الحرية ما عدا الولاية (الرياسة) ورغم المسلمين في تحرير من بأيديهم من الرقيق، ودعا إلى معاملتهم بالحسنى وحذر من الإساءة إليهم.

وشرع الإسلام عدة وسائل للنهوض بالأرقاء، والعمل على مساعدتهم في تحرير أنفسهم. قال تعالى: «وَالَّذِينَ يَعْفُونَ الْكَيْنَتَ مِمَّا مَلَكُوكُمْ أَيْمَنُكُمْ فَكَيْنُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَمَا تُوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي أَتَكُمْ» [النور: ٣٣].

ورغم الإسلام في اعتاق الرقيق دون مقابل تقرباً إلى الله. قال تعالى: «أَلَّا يَجْعَلَ اللَّهُ عَبْتَنِي ٨ وَلَسَانَهُ وَشَنَائِنَهُ ٩ وَهَدَيْتَهُ أَنْبَدَتِينِ ١٠ فَلَا أَفْحَمَ الْعَقَبَةَ ١١ وَمَا أَذْرَكَنِي الْعَقَبَةُ ١٢ فَلَكَ رَقْبَةٌ ١٣» [البلد: ١٢-٨] وسن الإسلام طريقة التدبير لتحرير الرقيق. وهي أن يوصي السيد بتحرير مولاه بعد موته. وجعل الإسلام من وجوه صرف الزكاة فك الرقاب. وهي أن يعطي الأمير أو العامل أو مسؤول الصدقات للرقيق المكاتب وما يستعين لتحرير نفسه، أو أن يشتري الإمام بمال الصدقة العبيد ثم يحررهم، واهتم الإسلام بنفسية الرقيق الأسير ليطيب خاطره ويفتح الأمل في نفسه^(١).

وقد ترك الإسلام آثاراً واضحة على الأدب العربي، فقد أثرت بلاغة القرآن وقوته أسلوبه على فحول البلاغة وأمراء الكلام العرب فانساقوا إلى تقليده ومحاكاته وأعجب به البعض لندرة أنهم امتنعوا عن نظم الشعر، ومنهم لبيد بن ربيعة أحد أصحاب المعلقات. وقد أجمعوا المصادر على أن لبيداً لم يقل في الإسلام إلا

البيت الآتي :^(١)

الحمد لله الذي لم يأتيني أجيلاً حتى اكتسبت من الإسلام سريراً^(٢)
وقد شاعت ألفاظ القرآن بين القبائل العربية والإسلامية، فيما كانوا يقولونه في
خطبهم وأشعارهم، فكانت بذلك بلغة موحدة لهم، وحدت أدوافهم ومشاربهم
وأوجدت فيهم خيالاً متجانساً.

وصف قنادة (ت ١١٧ هـ / ٧٣٥ م) عند تفسيره لسورة الأنفال، حالة العرب
السياسية قبل الإسلام عندما قال تعالى: «وَادْكُرُوا إِذْ أَنزَلْنَا عَلَيْنَا فِيلٌ شَنَقُونَ فِي الْأَرْضِ
مَخَافِرُكُمْ أَنْ يَنْظَلُوكُمُ الْأَنْاسُ» [الأنفال: ٢٦]. وتعني كلمة الناس في الآية القرآنية
الفرس والبيزنطيين الذين كانوا يتنافسون للسيطرة على أجزاء من جزيرة العرب، في
نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع^(٣). ولما جاء الإسلام وحد العرب للوقوف
بوجه الأجنبي، فقد جمع القبائل تحت لوائه وقضى على العصبية القبلية، وألف بين
قلوب المسلمين فزالت الحزازات القديمة، والثارات التي كانت بين القبائل إذ
خضعوا لحكم الرسول وتعاليم القرآن، بعد أن كانوا يأتิرون بأوامر رؤساء
متفرقين. وبذلك خضعت القبائل لحكومة مركزية لها نفوذها وسلطتها في قلوب
الناس. وعندما دانت القبائل بالإسلام أخذت تشعر أن الإسلام أصبح رمزاً لعزتها
وكرامتها ووحدتها وشعار مجدها وفخرها.

إن فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة، هي التي جمعت شتى القبائل في
هذا النظام السياسي الموحد.

وكان عرب ما قبل الإسلام في وضع اقتصادي مت逮د (وكانوا معكوفين على
رأس حجر بين فارس والروم)^(٤) فلما جاء الإسلام ارتفع مستوى العرب
الاقتصادي، بعد أن تحرروا من الأجنبي الذي كان ينهب خيراتهم.

(١) الزووزني ، شرح المعلقات السبع (بغداد) ص ٢١٤ .

(٢) كستر، المصدر السابق، ص ٩ .

(٣) الطبرى ، تفسير الطبرى ط ١ طبعة محمود شاكر وأحمد شاكر ، (القاهرة ، ١٩٥٨)
ص ٤٧٨ .

وتعد الأموال التي تدفقت إلى بيت المال، عن طريق الخراج والجزية والغنائم والحسود من أهم أسباب انتعاش العرب اقتصادياً.

والخلاصة فقد نقل الإسلام الفرد من السيف إلى المسالمة، ومن الثار إلى القصاص، ومن النهب إلى الأمانة، ومن الوثنية إلى التوحيد، ومن نظام الطبقات إلى المساواة، ومن القوة إلى القانون ومن الإباحية إلى الطهر، ومن الحياة القبلية إلى المسؤولية الشخصية.

ونظم أسس تكوين المجتمع الإسلامي، فجعله قائماً على المؤاخاة ونظم علاقة المسلمين مع غيرهم. وأقر الإسلام النظم المختلفة التي تخص الأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وأثر الإسلام على أخلاق العربي، ونظم أمور الدنيا وشؤون الدين.

وحقق الرسول مرحلة الوحدة العربية الأولى في حدود الجزيرة العربية، وبنى شخصية المناضل المؤمن، الذي أصبح مستعداً لنشر دعوة الإسلام خارج الجزيرة العربية، لحل أزمة الحضارة التي عانت البشرية منها طويلاً. فأرسل الرسل إلى ملوك العالم وحكامه ومنذ ذلك الوقت دخل العرب مرحلة جديدة، في حياتهم وهي طرد الأجنبي من بلادهم وتحرير أرضهم، وإيجاد الحلول الصحيحة لأزمة الحضارة التي عانت منها البشرية كثيراً. بإنتهاء الحكم الأجنبي والحرمان من الحرية الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

«النبي» لـ«الكتاب»

مقدمة الكتاب

أولاً: الكتب

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢١ م). *نقوش البلدان*، (باريس ١٨٤٠). *المختصر في أخبار البشر* (المطبعة الحسينية).
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م). *الخرج* (القاهرة ١٣٥٢ هـ).
- الارمني، أبو صالح، كنائس مصر وأديرتها، تحقيق إيفات.
- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م) *أخبار مكة* (مكة ١٣٥٢ هـ).
- الأصفهاني، أبو الفرج (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م). *الأغاني* (طبعة دار الكتب المصرية وطبعة سياسي).
- الأصفهاني، حمزة - تاريخ سبي ملوك الأرض (بيروت).
- أمراء غسان، ترجمة بندرلي جوزي (بيروت ١٩٣٣).
- أمير علي، سيد. *مختصر تاريخ العرب* (بيروت ١٩٦١).
- أمين، أحمد. *فجر الإسلام* (القاهرة ١٩٦٥) مكتبة النهضة المصرية.
- أولندر، جورنار، ملوك كنده، ترجمة د. عبد الجبار المطلي (بغداد ١٩٧٣).
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن الكرم (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م). *الكامل في التاريخ*. *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (القاهرة ١٩٦٤).
- ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) *زاد المعاد في هدي خير العباد* (القاهرة) و (بيروت).
- ابن الكلبي. هشام بن محمد (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م). *الأصنام* (القاهرة ١٣٤٣ هـ).

- ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت ٣٧٨ هـ / ٩٨٦ م). الفهرست (مصر ١٣١٧ هـ).
- ابن الوردي، زين الدين بن مظفر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م). تاريخ ابن الوردي (النجف ١٩٦٩).
- ابن حجر العسقلاني، أبي الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) تهذيب التهذيب (جدير آباد الدكن). شرح البخاري (القاهرة ١٩١٢).
- ابن رشيق، أبي علي الحسن (ت ٤٥ هـ / ١٠٥٨ م). العمدة، تحقيق محى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٢٤).
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٨٤ م) الطبقات، (لابيدن ١٣٢٥ هـ).
- ابن سليمان، ماري (ت القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) أخبار فطاركة كرسى المشرق (روما ١٨٩٩).
- ابن صاعد، أحمد، طبقات الأمم (نجف ١٩٦٧).
- ابن طاوس، علي بن موسى (ت ٥٦٤ هـ / ١٢٦٦ م). فرج الهموم في معرفة علم الجعوم (نجف ١٣٦٨ هـ).
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م). فتوح مصر وأخبارها (القاهرة ١٩١٤).
- ابن عبد ربّه، أبو عمر شهاب الدين (ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م). العقد الفريد (القاهرة ١٩٣٥).
- ابن عنان، زيد بن علي. تاريخ حضارة اليمن القديم، (القاهرة د. ت).
- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م). المعارف (القاهرة ١٣٠٠ هـ). الشعر والشعراء (بيروت / ١٩٦٠) وطبعة لابيدن.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء (٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م). البداية والنهاية (مطبعة السعادة - القاهرة د. ت).
- ابن متى، عمرو (القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي). أخبار بطاركة كرسى المشرق (روما ١٨٩٦).
- ابن منظور، أبو الفضل جمال (ت ٧١١ هـ / ١١٣١ م). لسان العرب (بيروت ١٩٥٥).

(١٩٥٦).

- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) السيرة، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة ١٩٤٦ - ١٩٥٥).
- الآلوسي، محمود شكري. بلوغ الأرب، الطبعة الثالثة (دار الكتاب العربي بمصر). تاريخ نجد (القاهرة ١٣٤٧ هـ).
- ايليا بارشيناتا (ت ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م). تاريخ إيليا بارشيناتا، ترجمة يوسف حبي (بغداد ١٩٧٥).
- بانقية، محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، (بيروت: ١٩٧٣).
- البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٦ م). صحيح البخاري (القاهرة ١٩٣٢).
- بروكلمان، كارل. تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس (بيروت، ١٩٦٠).
- بكر، منذر عبد الكريم. دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (الدول العربية الجنوبيّة) (البصرة ١٩٨٠) الجذور التاريخية لعروبة الأجوزاً قبل الإسلام (البصرة ١٩٨١). رؤية حول إعادة كتابة تاريخ العرب قبل
- الباركي، أبو عبيد الله عبد الله (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) معجم ما استجمم من أسماء البلاد والمواقع (القاهرة ١٩٤٥).
- البلاذري، أحمد بن يحيى، (ت، ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م). فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة).
- بلييف. العرب والإسلام والخلافة العربية، ترجمة أنيس فريحة (بيروت ١٩٧٣).
- البريزي، يحيى بن علي (٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) شرح المعلقات العشر (كلكتا ١٨٩٤).
- توماس آرنولد. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٥٧).
- ثلاث رسائل (القاهرة ١٣٨٢ هـ).
- الجاحظ، أبو عثمان بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م). البيان والتبيين (القاهرة ١٩٣٢).
- الجارم، محمد نعمان. أديان العرب في الجاهلية (القاهرة ١٩٢٣).
- جاودب، مصطفى عبد اللطيف، الحياة والموت في الشعر الجاهلي (بغداد ١٩٧٧).

- جرونبو، كونستاف فون. حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويه (القاهرة ١٩٥٦).
- الجميلي، رشيد. تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة (بيروت ١٩٧٢).
- حاج خليفة، مصطفى عبد الله (ت ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢ م). كشف الظنون من أسامي الكتب والفتون (طهران ١٩٧٧).
- حتى، فيليب، تاريخ العرب المطول (بيروت ١٩٦٥). تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (بيروت ١٩٥٨).
- حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي (القاهرة ١٩٦٤).
- حمزة، نواد. قلب جزيرة العرب (القاهرة ١٩٤٣).
- الحموي، ياقوت، (ت ٦٦٦ هـ / ١٢٢٩ م). معجم البلدان (طبعة بيروت دار صادر والطبعة الأوروبية). معجم الأدباء، تحقيق مرغيلوث (القاهرة ١٩٤٥).
- الحوفي، محمد أحمد، الحياة العربية في الشعر الجاهلي (القاهرة ١٩٤٩) والطبعة الرابعة ١٩٦٢.
- العجير آبادي، محمد حميد الله. مجموعة الوثائق السياسية (القاهرة ١٩٥٦).
- خان، ظفر الإسلام. التلمود، تاريخه وتعاليمه (بيروت ١٩٧١).
- الخضرري، محمد. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (القاهرة ١٩٢٦) - ابن خلدون، ولی الدين بن عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) تأريخ ابن خلدون، (طبعة بولاق) المقدمة (القاهرة ١٩٣٠).
- الدوري، عبد العزيز مقدمة في تاريخ صدر الإسلام (بيروت، ١٩٦١).
- الدياري بكري، حسين بن محمد (ت ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م). تاريخ الخميس (القاهرة ١٢٨٣ هـ).
- ديسو، رينه، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواхи (القاهرة ١٥٩٥).
- النعوي / أبي عبد الله محمد، (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٥ م). تذكرة الحفاظ (جبار آباد الدكن ١٣٣٣ هـ).

- روشناین، جو سناف مملکة الحیرة، ترجمة منذر البکر منشور في مجلة كلية التربية العدد ٨ السنة الرابعة (بصرة ١٩٨٢).
- الزیدی بن بکار (ت ٢٢٦ هـ / ٨٥٠ م) نسب قریش (القاهرة ١٣٨١).
- الزیدی، محی الدین محمد (ت ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م)، ناج العروس (القاهرة ١٣٠٦).
- الوزنی، الحسین بن احمد (ت ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م). شرح المعلقات السبع (بغداد ت).
- زیدان، جرجی تاریخ العرب قبل الإسلام (بیروت ١٩٦٦) آداب اللغة العربية (بیروت ١٩٦٧) التمدن الإسلامي (بیروت ١٩٣٦)
- السالم، السيد عبد العزیز - دراسات في تاريخ العرب (القاهرة ١٩٦٧)
- السخاوی، محمد بن أبي بکر (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (دمشق ١٩٣٠ م)
- سرور، محمد جمال. قیام الدولة العربية الإسلامية في حیاة محمد (القاهرة ١٩٧٧)
- السمهوری، علی بن عبد الله ، (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) کتاب الوفا ٢ (القاهرة ١٣٢٦ هـ).
- سهیمی، حمزہ (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م). تاریخ جرجان (حیدر آباد الدکن ١٩٥٠)
- السهیلی، عبد الرحمن (ت ٥٨١ هـ / ١١٥٨ م) الروض الأنف في شرح السیرة النبویة لابن هشام (القاهرة ١٩٧٠ م)
- السیوطی، جلال الدین عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) الدر المنشور في التفسیر بالمانور (طهران ١٣١٤ هـ).
- الشافعی، محمد بن طلحة (ت ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م) مطالب السؤال في مناقب الرسول (طهران ١٣٨٧ هـ)
- شریف، احمد ابراهیم، مکة والمدینة فی الجاهلیة وعصر الرسول (القاهرة ١٩٦٧)
- شلبی، احمد تاریخ التربية الإسلامية (بیروت ١٩٥٤)
- شیر، ادی. التاریخ السعراوی (باریس ١٩١٨)
- الطبری، محمد بن جریر (ت ٣١١ هـ / ١٩٢٣ م) تاریخ الطبری (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهیم)، طبعة دار المعارف بمصر تفسیر الطبری طبعة محمود شاکر وأحمد

شاكر (القاهرة ١٩٥٨).

- العاملی، السيد محسن الأمین، سیرة الرسول عن طبقات ابن سعد (بغداد ١٩٨٣).
- عبد الحمید، سعد زغلول. في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت ١٩٧٦).
- العبدی، محمود عبد الله إبراهیم، بنو شیبان (بغداد، ١٩٨٤).
- العسكري، أبو هلال (ت ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م). الأولی، تحقيق محمد السيد الوکیل (طنجة - المغرب).
- العلي، أحمد صالح. محاضرات في تاريخ العرب (الموصل، ١٩٨١).
- علي، جاسم صکبان. نصاری العراق في العصر الأموي (بغداد ١٩٧٤). أطروحة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة.
- علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام طبعة دار العلم للملائين. (بيروت) تاريخ العرب في الإسلام طبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد ١٩٦٣).
- الفزالي، أبو حامد محمد (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م). إحياء علوم الدين (القاهرة ١٩٣٣).
- فلها وزن، يوليوم، الدولة العربية وسقوطها، ت. عبد الهادي بوريدة (القاهرة ١٩٦٨).
- الفياض، عبد الله. محاضرات في تاريخ صدر الإسلام (بغداد ١٩٦٧).
- الفیروز أبادی، محمد بن یعقوب (٨١٧ هـ / ١٤١٤ م). تنوير المقیاس من تفسیر ابن عباس (القاهرة ١٣٥٦ هـ).
- القاسم بن سلام، أبو عبید (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م). الأموال، تحقيق خليل هراس (القاهرة ١٩٦٨).
- القالی البغدادی، أبو علي إسماعیل بن القاسم (ت ٩٦٦ هـ / ١٥٥٨ م). ذیل الامالی والنواذر (بيروت ١٩٨٠).
- القلقشندي، ابن أبي العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ / ١٤٤٨ م). صیح الأعشی (القاهرة ١٩١٣).
- کراف، جورج، نسخة المهد الذي أقطعه محمد (لا يزيد ١٩١٨).

- كستر، م. ج. العبرة ومكة وعلاقتها بالقبائل العربية، ترجمة يحيى الجبوري (بغداد ١٩٧٦).
- ماجد، عبد المنعم التاريخ السياسي للدولة العربية (القاهرة ١٩٧٥).
- المبرد، أبي العباس بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م). الكامل في اللغة والأدب (القاهرة د. ت.).
- محمد في المدينة، ترجمة شعبان برکات (بيروت د. ت).
- المسعودي، أبو الحسن علي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م). التنبیه والاشراف (القاهرة ١٩٣٨) وطبعه لایدن مروج الذهب، طبعة عبد الرحمن محمد.
- موسى أ. شمال الحجاز، ترجمة عبد المحسن الحسيني (الإسكندرية ١٩٥٨).
- العيداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت ٥١٨ هـ / ١١٤٤ م) مجمع الأمثال (القاهرة ١٣٥٢ هـ).
- النجار، محمد محمود، الدرة الثمينة في تاريخ المدينة (القاهرة ١٩٥٦).
- نلسن، ديتلوف، تاريخ العرب القديم، ترجمة الدكتور فؤاد حسين (القاهرة ١٩٥٨).
- نولاكة، يثودور. اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب (القاهرة ١٩٦٣).
- التويري، شهاب الدين أحمد (ت ٢٣٣ هـ / ١٣٣٢ م). بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (طبعة دار الكتب القاهرة).
- الهاشمي، علي. المرأة في الشعر الجاهلي (بغداد ١٩٦٠).
- الهمداني، الحسن بن احمد بن يعقوب (ت ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م) كتاب الإكليل الجزء الأول (بغداد ١٩٧٧). والجزء الثاني (بغداد ١٩٨٠) صفة جزيرة العرب (القاهرة ١٩٥٣).
- وات، مونتغمري. محمد في مكة، ترجمة شعبان برکات (بيروت د. ت).
- الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م). كتاب المغازي، تحقيق مارسيدين جونس (بيروت د. ت).
- الولفسون، أ. تاريخ اللغات السامية (بيروت ١٩٨١).
- اليازجي. كامل. معالم الفكر العربي في مصر الوسيط (بيروت ١٩٦٠).

- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) تاريخ اليعقوبي (نجف ١٩٦٤).
البلدان منشور مع كتاب الأعلاف النسبية (لابدن ١٨٩٢ م).

ثانياً : (البحوث في المجالات)

- إبراهيم، عز الدين، المؤرخ العربي ٤٣ (الرياض ١٩٨٣)
- جاوريك، مصطفى عبد اللطيف. من حقائق الهجرة (مجلة كلية التربية بجامعة البصرة العدد ١٦ السنة الثالثة ١٩٨١).
- عاقل، نبيه، ضوء جديد على موضوع عام الوفود وكتب الرسول إلى الملوك والأمراء (مجلة كلية التربية جامعة البصرة السنة الثالثة العدد السادس ١٩٨١).
- النبي، عدنان. حول المشروع التلمرمي الاستثنائي (مجلة العوليات الأثرية السورية العدد ١٣ لعام ١٩٦٣).

المجالات

- مجلة سومر، مجلدات مختلفة.
- مجلة المشرق، مجلدات مختلفة.

(دوائر المعارف)

- دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية)

ثالثاً: (المصادر الأجنبية)

أ- الكتب

*Ali, Jasim. S.**The Christains of the Jazira, (unpublished PH. D. Edinburgh University, 1982).**Bar-Heberaeus,**The Chronography, trans, W. Budge (lodon 1932).**Bell. Richard**The origin of Islam, (london 1926).**Eusebius of Caesarea,**The Ecclesiastial History, Irans, K. lake (london, 1926).**George, Roux**Ancient Iraq, (london, 1964).**Herodotus,**The History of Herodotus, Irans, G. Rawlison (london, 1920).**James G. Frazer**The Golden Bought, A study in megic and seligion (london, 1947).**John of Ephesus,**Ecclesiastical History, ed. J. B.**Morgoliouth, (Leiden, 1909).**King, L. W.**History of Sumer and Akkad (london 1915).**Lewis, Bernard,**The Arab in History (london, 1966).**Margolioith,**Muhammed and the sice of Islam (london, 1932).**Michael the syrian,**Chronique demichel Le syrien ed. J. B. Chabot, (Paris, 1899 - 1901).**Moberg, A.**The Book of Himyarites (london, 1924).**Montgomery, J. A.**Arabia and Bible (Philade! Phia, 1934).*

- Muir, The life of Mohamed, (Edinburgh) 1923.*
- The Caliphate, (Edinburgh, 1925).*
- Nicholson,*
- Aliteart History of the Arabs,*
(Cambridge, 1953).
- O. Leary,*
- Arabia before Muhammed, (london, 1927).*
- Philby, H. Stj, B.*
- The Background of Islam, (Alexandria, 1949).*
- Sabeaos, The Chronicle of Sebeos, Petrograd, 1879.*
- Sozomen,*
- The Ecclesiastical History (lobdon, 1846).*
- Strapo,*
- The Geography of stapo, Irans.*
- Hamilton, (london, 1916).*
- Theopharstus,*
- Historia. Plantarum, ed. Hort, 1916.*
- Theophanes, Chronographia, (Bonn, 1939).*
- Zachariah of Mitylene,*
- The Chronicle of Zachariah of Mitylene, trans, F. J. Hamilten and E. W. Brooks. (london, 1899).*

ب- المجالات

The Muslim world, (New York, 1927 - 1928).

ج- دواوين المعرف : :

- Encyclopaedia of Britanica (london).*
- Encyclopaedia of Biblica (london).*
- Encyclopaedia of Islam, (leidew).*
- Encyclopeadia of Neligion and Eithices.*

الفهرس

٥	المقدمة
		الباب الأول: تاريخ العرب قبل الإسلام
٨	الفصل الأول: المصادر وجغرافية بلاد العرب
٨	١- أهمية الموضوع ومصادره
١٧	٢ - الموقع والسطح والأقسام الطبيعية
٢٠	٣- المناخ والنباتات الطبيعية
٢٠	(أنهار شبه جزيرة العرب)
٢١	أقسام بلاد العرب
٢٤	٤- الساميون وطبقات وأنساب العرب :
٣٣	الفصل الثاني: الدول العربية القديمة
٣٣	١- الدول العربية الجنوبيّة :
٣٤	الدولة المعينية
٣٦	قطبان
٣٧	دولة سبا
٤٧	٢- الدول العربية التجارية :
٦٢	٣- دول الأطراف
٨٨	٤- حواضر الحجاز
٩٤	أهم حواضر الحجاز :

الفصل الثالث: حضارة العرب قبل الإسلام	١٠٤
٢- تطور العقائد الدينية والظروف المحيطة بها	١١٦
٣- العرب ودورهم في التجارة الدولية	١٢٦
الباب الثاني: تاريخ عصر الرسالة	
الفصل الأول: مصادر دراسة عصر الرسالة	١٤١
المقدمة	١٤١
الفصل الثاني: حياة الرسول قبلبعثة وظهور الدعوة الإسلامية	١٥٧
دعوة حجاج مكة :	١٦٩
يعتنا العقبة :	١٧٠
الفصل الثالث: قيام دولة المدينة	١٧٧
١- أسس وتنظيمات الدولة العربية في المدينة وأهمية دستورها	١٧٧
٢- الجهاد والمعارك الخالدة وتوحيد بلاد العرب	١٨٨
٣- الصلات الدبلوماسية بين الرسول ﷺ ورؤساء القبائل العربية وملوك العالم :	٢٢٥
٤- معارك نشر الدعوة خارج جزيرة العرب	٢٣٧
الفصل الرابع: أثر الإسلام في حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية	
وأعداد الأمة العربية لأخذ دورها الحضاري الإنساني	٢٤٤
مصادر الكتاب ومراجعه العربية:	٢٤٩
أولاً: الكتب	٢٤٩
ثانياً : (البحوث في المجلات)	٢٥٧
المجلات	٢٥٨
(دواتر المعارف)	٢٥٨
ثالثاً: (المصادر الأجنبية)	٢٥٩